مطبوعات كتابي

الطريق إلى بئر سبع

الرواية التي سيقرأها العالم عام ١٩٦٤ عن مآسي حرب فلسطين

الترجمة الكاملة لأحدث وأروع
قصة طويلة عن مأساة
خروج العرب من ديارهم!
للروائية الإنجليزية المعاصرة

إيثيل مانين

إيثيل مانين

الطريق إلى بئر سبع

THE ROAD TO BEERSHEBA

BY

ETHEL MANNIN

الثمن : ١٠ قروش

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ٩٦ كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر . (وتطلب قائمة بها من الادارة) .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ٧٢ كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة باسترناك (دكتور جيفاجو) ، وتطلب قائمة بها من الادارة .

الاشتراكات

عن ١٢ عددا من كتابى أو ١٢ عددا من مطبوعات كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٢٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية ١٦٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل . (ومن يرغب فى ارسال الأعداد بالبريد « الجوى » يدفع فرق الرسوم) . وترسل القيمة من مصر باذن بريد عادى ، ومن السودان بحوالة بريدية ، ومن البلاد الأخرى بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما قابلة للصرف فى مصر ، (وسعر صرف الكوبون ٣٧ مليما) .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

رئيس التحرير : حلمى مراد

الكتاب الثانى والسبعون

الطريق إلى بئر سبع

ترجمة : الدكتور نظمى لوقا

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — القاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥

مطابع منكور وأولاده

هاتان السلسلتان .. فى عهدهما الجديد

عزيزى القارىء ..

فى مستهل هذه المرحلة الجديدة من حياة (كتابى) و (مطبوعات كتابى) – السلسلتين اللتين حبوتهما بحبك واعزازك منذ اللحظة الأولى لصدورهما ، حتى اليوم ، طوال اثنى عشر عاما – أرى من حقك على ان نتبادل معا حديثا « من القلب الى القلب » ، كما ألفنا ان نتبادل فى كل مناسبة سابقة ..

والمناسبة أو « البشرى » الجديدة التى أود أن أزفها اليك – والى نفسى فى الوقت عينه – هو أن أمنية قديمة من أمانى قد آن لها أخيرا أن تتحقق .. والأمنية التى أعنيها ، والتى طالما تمنيتها ، هى أن أتخفف من أحد العبئين الثقيلين اللذين أخذتهما على عاتقى – مضطرا – منذ أصدرت العدد الأول من (كتابى) فى مارس عام ١٩٥٢ .. وهما : **أولا** ، عبء مسئوليتى كناشر للسلسلتين (بكل ما تحمل عملية النشر فى ذاتها من متاعب ، وهموم ، وأعباء ادارية والتزامات مالية وحسابية .. ومشكلات طباعة ، وورق ، وحبر ، وتسويق ، وتوزيع .. الى آخر هذه الدوامة الرهيبة !) .. **وثانيا** : عبء مسئوليتى عن تحرير السلسلتين ، (بكل ما تحمله عملية التحرير من مهام حبيبة الى نفسى ، وتحليق فى آفاق الفكر والثقافات والفنون .. ومعاناة لمشكلات الحرص على أمانة الترجمة وسلامة التلخيص وجمال الأسلوب .. ألخ) .

ولا أكتمك اننى لم أقدم على الاضطلاع بكلا العبئين ، حين أصدرت (كتابى) ، الا لأننى لم أجد الناشر الذواقة الذى يؤمن بفكرتى ويولى المشروع ثقتـه ويطمئن الى نجـاحه ، فيقـدم على اخراجـه الى حيز التنفيـذ ٠٠ فكان أن اضطررت الى تنفيذه بمفردى ، وقد جرف ايمـانى ترددى ، وغلبتنى حماستى له على أمرى ٠٠

كما لا أكتمك اننى قد طالما شقيت بهذين العبئين اللذين أثقلا كاهلى طوال هـذه الأعوام الاثنى عشر ٠٠ وفى الوقت الذى كانت فيه دوائر الصحافة والأدب فى العالم العـربى تتجاوب بأصـداء نجاح (كتابى) و (مطبوعاته) كنت أنا أتجرع غصص التعاسة والألم ، والرثاء لنفسى من أجـل المصير الذى انتهيت اليه ، و (السـاقية) التى وجدتنى مشدودا اليها ، مسئولا عن دورانهـا المستمر بلا توقف ، كالثور المعصوب العينين ٠٠

٠٠ وكلما ضقت بتعـاستى ، تأججت بين جوانحى نيران الثورة على نفسى وعلى الوضع الشـاذ الذى وجدتنى أسيرا له ٠٠ وضع « الكاتب » الذى يعمـل « ناشرا » ، والأديب الذى يقضى أيامه ويفنى حيـاته فى مواجهة مشكلات الادارة والطبـاعة ، والحبر والورق ، والفواتير والحسـابات ٠٠ والعياذ بالله !

٠٠ واشتقت الى أن أكون أديبا وكاتبـا ، وحسب ! ٠٠ أقرأ ، مستمتعا بالقراءة ٠٠ وأكتب ، مستمتعا بالكتـابة ٠٠ كما بدأت ٠٠ وكما هى طبيعتى ، ومزاجى ، وحلم حياتى ! ٠٠ اشتقت الى ذلك شوقا كاد يغرينى بأن أحطم كل عائق يقف بينى وبين حلمى العتيد ، ولو كان هذا العائق (كتابى) ! !

٠٠ وحين كان حنقى على نفسى يقهـرنى ، واحسـاسى بالارهاق يسول لى أن أتوقف عن اصـدار كتـابى ! ٠٠ أو يحملنى على الأقل على التراخى فى اصداره بانتظام ، كى

أتحرر بعض الوقت من « الأسر » ، وأستريح من جر الساقية والدوران حولها كالثور ، معصوب العينين .. فأستمتع بقراءاتى المحببة ، فى غفلة من سوط الجلاد الذى يلهب ظهرى .. كانت صيحاتك تلاحقنى : كتابى يجب أن يستمر .. كتابى يجب أن يصدر بانتظام .. فكنت أرضخ لمشيئتك ، وينسينى اشفاقى على (كتابى) ، اشفاقى على نفسى .. فأستسلم لمصيرى ، وأمضى فى طريقى ، كاسف البال ..

.. حتى سنحت فرصة لمست فيها من الوزير الانسان ، راعى الثقافة والآداب والفنون ، الدكتور محمد عبد القادر حاتم ، غيرة ـ مشكورة ـ على كتابى ومطبوعاته ، وقلقا ـ لا أدرى كيف أصفه ـ من أجل عدم انتظامهما ، وتقديرا كريما للرسالة التى يستهدفانها .. وترحيبا ـ يثلج صدرى ـ بأن تتولى « مؤسسة الأنباء والنشر » عنى عبء اصدار السلسلتين اللتين أفنت متاعبهما زهرة عمرى ، والتهمتا خير سنوات حياتى .. فتعلقت مرحبا بطوق النجاة ، وداعبنى ـ من جديد ـ الأمل فى أن أعود كاتبا ، وأديبا ، وحسب .. أحلق فى دنيا الأدب ، والفكر ، والفن ، كالنحلة ، لأجمع لك من كل زهرة من أزهار المعرفة رحيقها العذب .. ومن كل نبع من ينابيع الثقافة قطرات وقطرات ..

ولست أزعم أننى قد تخففت ـ بعد ـ من الأعباء « المزدوجة » التى أرهقتنى ، فليس ذلك بالأمر اليسير ، سيما فى البداية .. كما لا أزعم أن العدد الأول الذى بين يديك يرضينى ، أو يرضيك ـ فان أحلامى لكتابى لا تقف عند حد ـ وانما هو مجرد ايذان بالعودة .. عودة العجلة الى الدوران .. وما هو الا بداية لأعداد متلاحقة أرجو أن يتفوق كل عدد منها على سابقه .. وكلما أتاحت لى الظروف أن أتخفف

من قدر من الأعباء الادارية ، استطعت أن أعطى التحرير قدرا أكبر من الجهد ، ومن الوقت ، ومن الأعصاب ..

فاذا أسعدتك – أيها القارىء العزيز – عودة (كتابى) و (مطبوعات كتابى) الى الصدور والانتظام ، **فلتكن غبطتك بعودتهما دينا فى عنقك للوزير الذى فتح للثقافة فى بلادنا آفاقا جديدة ، تتنفس فيها ، وتزدهر ، وتترعرع .. وماعليك الا أن تتوجه بالشكر العميق ، النابع من القلب ، للدكتور محمد عبد القادر حاتم ، الذى أتاح لكتابى ومطبوعاته مواصلة رسالتهما الثقافية التى آمن بها ، فرعاها .. فجاءت هذه الرعاية حلقة جديدة من حلقات عمله الدائب لتحقيق « الثورة الثقافية » التى ينادى بها فى كل مناسبة قائد ثورتنا المباركة الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر ..**

« الثورة الثقافية » التى خلقت مفاهيم جديدة لدور الدولة فى رعاية الآداب والعلوم والفنون ، وجعلت من وزارة الثقافة لواء ضخما يستظل به جميع العاملين فى حقول المعرفة ، سواء عن طريق أجهزة الوزارة ذاتها ، أو عن طريق مؤسساتها العامة ، وفى مقدمتها المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة ، التى أخذت على عاتقها مهمة ضخمة هى اصدار كتاب جديد كل ٦ ساعات ، وقطعت فى هذا السبيل شوطا بعيد المدى ، ملموس الأثر .

وفى ظل هذه المفاهيم الجديدة ، لنسر معا أيها القارىء العزيز على بركة الله .

والله ولى التوفيق ؟

حلمى مراد

المؤلفة .. فى سطور

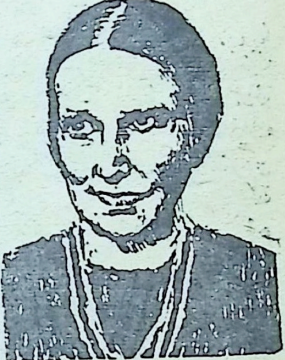

❋ « ايثيل مانين » ـ مؤلفة هذه القصة الشائقة ـ روائية انجليزية معاصرة ، من أصل ايرلندى ، ولدت فى لندن عام ١٩٠٠ .. وهى تعتبر « عصامية » ، ثقفت نفسها بنفسها ـ اذ اضطرتها الظروف الى ترك المدرسة فى سن الرابعة عشرة ، وبدأت حياتها العملية فى الخامسة عشرة ، ككاتبة اختزال فى وكالة للاعلانات .

❋ ثم تدرجت فى العمل حتى صارت ـ فى سن ١٧ سنة ـ مساعدة لمحرر المجلة المسرحية والرياضية (ذى بليكان) .

❋ وفى سن الثانية والعشرين ، كتبت روايتها الطويلة الأولى ، ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة ..

❋ ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام ، بانتظام .. كما ألفت عدة كتب فى أدب الرحلات ، وصفت فيها سياحاتها فى كل من (بورما ، الهند ، روسيا ، المغرب ، مقاطعة بريتانى (بفرنسا) ، اليابان ، ثم الشرق الأوسط) ..

وقد ترجمت كتبها الى اللغات : الفرنسية ، الالمانية ، الهولندية ، الاسبانية ، الايطالية السكندنافية

❋ وهذه القصة الممتعة التى صورت فيها مأساة العدوان الصهيونى الغادر على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ، هى أحدث رواياتها ، وقد صدرت فى لندن منذ شهر واحد ، ولم تترجم بعد الى أية لغة ، سوى ترجمتها هذه الى العربية .

اهداء الكتاب

الى اللاجئين الفلسطينيين ومن اجلهم .

أولئك الذين قالوا لى فى كل الاقطار العربية التى استضافتهم :

ـ لماذا لا تكتبين قصتنا نحن ، قصة الخروج الآخر ... خروجنا نحن ؟ !

المؤلفة

« واعطيتكم ارضا لم تتعبوا عليها ومدنا
لم تبنوها وتسكنون بها ، ومن كروم وزيتون
لم تغرسوها تأكلون » .

يشوع : ٢٤ : ١٣

مقدمة المؤلفة

لا بد من ايضاح .

حتى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ كان ثمة بلد يسمى فلسطين ، هو الوطن العتيق للفلسطينيين القدامى ، وهو بلد عربى الصبغة بصورة واضحة . وحين صدر اعلان ((بلفور)) فى نوفمبر سنة ١٩١٧ مؤذنا بان الحكومة البريطانية تؤيد ((قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين)) كانت غالبية السكان هناك من العرب ، بنسبة تزيد على ٩٠٪ . وكان فى فلسطين فى ذلك الوقت نحو ٥٠٫٠٠٠ يهودى . اما المسلمون والمسيحيون فكان عددهم وقتئذ نحو ٦٧٠٫٠٠٠ . ولكن فى سنة ١٩١٥ كان السير « هربرت صمويل » اليهودى والصهيونى البارز قد نادى فى مذكرة بعنوان « مستقبل فلسطين » بهجرة ثلاثة أو اربعة ملايين من اليهود الى فلسطين تحت الحماية البريطانية . فوضحت من ذلك المطامع الصهيونية بصورة لا خفاء فيها ، وثبت أن ما يرمون اليه ليس انشاء موطن قومى وملاذ لضحايا الاضطهاد من اليهود فى مختلف البلدان ، بل الهدف الحقيقى هو اقامة دولة يهودية مستكملة الأركان !

ولما صدر اعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبا ، واجه واقعا أقل من ذلك بكثير ، فكان الحل البديهى فى نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية الى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية . وفى سنة ١٩١٩ اصدر الدكتور « وايزمان » الزعيم الصهيونى وقتئذ تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغى أن تغدو « يهودية مثلما تعتبر انجلترا انجليزية » .

وفى سنة ١٩٢٠ تجسم اعلان بلفور فى صورة الانتداب الانجليزى على فلسطين . وكان العرب حين قاتلوا فى صف الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك قد اعتقدوا أنهم انما يحاربون فى سبيل استقلالهم . فاذا بهم ينكبون بالانتداب الانجليزى والفرنسى بدلا من نيل استقلالهم . وبذلت محاولة للتحكم فى الهجرة اليهودية ، ولكن الهجرة غير المشروعة ظلت فى ازدياد عن طريق مكتب للجوازات المزورة فى برلين ، فازدادت عداوة العرب ، ووقع شغب وحدثت اضطرابات وفرضت أحكام عرفية واستمر الكفاح الوطنى للحصول على الاستقلال .

وعند نشوب الحرب العالمية الثانية لم يكن الوطن القومى لليهود قد تحقق فى صورة ذاتية ، ولكن تعداد اليهود كان قد قفز من ٥٠٫٠٠٠ الى ٦٠٠٫٠٠٠ ، وكانت حكومة الانتداب قد منحت اليهود سيطرة متزايدة على مقدرات البلد الاقتصادية . وكانت الصناعات الصهيونية تتمتع بحماية الحكومة ، فى حين كانت القرى العربية تدمر لتفسح المجال للمستعمرات الصهيونية . وصار لليهود مستشفياتهم ومدارسهم ومنظماتهم السياسية ، وتمتعوا بمعاملة متحيزة من حماتهم البريطانيين .

وكما كانت الحرب العالمية الأولى سببا فى اعاقة المطامع الصهيونية ، كذلك عاقت الحرب العالمية الثانية الآمال العربية

الوطنية ، وثبت ان الاضطهاد النازى لليهود فى المانيا كان سندا قويا للصهيونية .. فتألفت لجنة انجليزيه امريكيه — ثلاثه من بين اعضائها الستة من غلاه الصهيونية — زارت فلسطين فى سنة ١٩٤٦ وأوصت فى تقريرها بادخال مائة الف يهودى فورا الى فلسطين ، وقد استعجل الرئيس (الدمية) ترومان تنفيذ ذلك ، مع ترك الباب مفتوحا لمزيد من التهجير مستقبلا !

ولما لم يصل مؤتمر فلسطين المنعقد فى لندن فى سنتى ١٩٤٦، ١٩٤٧ الى اتفاق ، لأن ممثلى العرب فى ذلك المؤتمر طالبوا بقيام دولة عربية ديمقراطية مستقلة فى فلسطـــين ، احيلت « مسألة فلسطين » الى الأمم المتحدة ، وخصصت دورة غير عادية للفصل فيها . وتحت الضغط الصهيونى الذى تؤيده الولايات المتحدة ، أوصت اللجنة الخاصة التى الفتهـــا الأمم المتحدة لشئون فلسطين بتقسيم ذلك البلد .

وفى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قامت الجمعية العمومية بمنظمة الأمم المتحدة المنعقدة فى واشنطن باقرار تقسيم فلسطين ، باغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ وامتناع ١٠ عن التصويت . وكانت بريطانيا من الدول الممتنعة عن التصويت . ونجد فى مذكرة ترومان كلاما عن الضغط الصهيونى وعن « التكتيك » الذى استخدم للحصول على هذه الأغلبية الساحقة ، اذ كتب يقول :

« لم تكن ثمة حركات للضغط على الولايات المتحدة لم يسبق لهـــا مثيل من قبل فحسب ، بل ان البيت الأبيض ايضا كان هدفا لنيران متصلة من الضغط . فلست اعتقد ان البيت الأبيض تعرض لقدر من الضغط والدعاية كالذى تعرض له فى هذه المناسبة . وقد ازعجنى وضايقنى الحاح بضعة من زعمـــاء الصهيونية المتطرفين ، مدفوعين بعوامل سياسية ومستخدمين تهديدات سياسية . بل ان بعضهم قد وصل به الأمر الى ان اقترح علينا الضغط على الدول الكبرى كى تصوت فى صالحهم

عند انعقاد الجمعية العامة . »

وكذلك صرح « روبرت لوفيت » نائب وزير الخارجية بأنه لم يتعرض فى حياته اطلاقا لكل ذلك الضغط الذى وجه اليه اثناء المراحل النهائية للتصويت .

وخطة التقسيم التى اقرتها منظمة الأمم المتحدة اعطت ٦٠٪ من فلسطين ـــ بما فى ذلك اخصب المناطق ـــ لثلث السكان وهم اليهود . اما المليون فلسطينى وهم كل سكانها تقريبا فقد انتزعوا من مواطنهم وجردوا من املاكهم خلال الحرب التى نشبت بين العرب واليهود على اثر ذلك القرار . وكل ما تبقى من ارض فلسطين العربية على الضفة الغربية لنهر الأردن ضم الى شرق الأردن على الضفة الشرقية من ذلك النهر . وبذلك قامت المملكة الهاشمية الأردنية . والشريط الضيق المتاخم لساحل البحر الابيض والبالغ طوله ٢٥ ميلا وعرضه ٥ اميال ، (وهو كل ما تبقى من ولاية غزة ، احدى ولايات فلسطين الحرة) ، قامت مصر بادارته ، وقد منح الرئيس ناصر فى سنة ١٩٦٢ تلك المنطقة دستورا للحكم . ولا تزيد هذه المنطقة على ان تكون معسكرا فسيحا للاجئين .

ومن بين المليون من الفلسطينيين على وجه التقريب الذين فروا من بلادهم نتيجة للارهاب الاسرائيلى ـــ الذى من امثلته مذبحة (دير ياسين) فى ابريل سنة ١٩٤٨ ـــ او الذين طردوا من بيوتهم ـــ (الأمر الذى ينكره الصهيونيون رغم الأدلـــة الدامغة) ـــ من هؤلاء المليون يعيش اكثر من نصف مليون فى اسوا حال بتلك المعسكرات التى تمدها الأمم المتحدة بالمعونة منذ اواخر سنة ١٩٤٩ . امـــا الباقون فقد استوعبتهم بلاد مضيافة . ولكن هؤلاء وهؤلاء جميعا يطالبون باستعادة وطنهم لاعادة اسكانهم . وما من واحد منهم ، سواء فى المعسكرات او فى خارجها ، تلقى « بنسا » واحدا على سبيل التعويض.

عن بيوتهم واراضيهم واموالهم التى استولى عليها الاسرائيليون!

وفى كل عام تعيد الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة تأكيداتها لحقوق عرب فلسطين اللاجئين فى العودة الى بلادهم . او فى التعويض الكامل اذا لم يرغب احد منهم فى العودة الى حيث سيكون مواطنا من الدرجة الثانية فى دولة يهودية . ولكن هذه القرارات لا توضع قط موضع التنفيذ . بل ان مسز جولدا مايير وزيرة الخارجية الاسرائيلية اعلنت على النقيض من ذلك بصورة قاطعة ان « سياستنا لم تتغير . فنحن لن نقبل لاجئا واحـــدا ! »

ولقد قسمت بلاد اخرى ولكنها بقيت بعد التقسيم محتفظة بكيانها ولها وجودها ومسمياتها على الخرائط ويسكنها اهاليها. أما فلسطين فقد انقطع وجودها من حيث هى اسم ومن حيث هى بلد . وانقطع كذلك وجود الفلسطينيين من حيث هم امة.

انه عصر التشتت الفلسطينى .

الكتـــاب الأول

الخروج

— ١ —

كانت درجة الحرارة فى السهل الساحلى اكثر من مائة درجة فهرنهيت فى الظل — ذلك الظل الهزيل الذى تلقيــه اشجار الزيتون ، او ظل الصخور الأحمر . فلولا ضـــغط الإرهاب لما استطاع احد ان يسير فى تلك الحرارة فوق تلك الأرض . فالكتائب الاسرائيلية تطرد الناس بعيدا عن الطرق ليوغلوا فى البرية بين التلال الجرداء التى لا نهاية لهـــا .

والأرض رملية لا تطيق القدم العارية ان تمسهـــا . ارض قوامها الرمال والصخور والحصى الرمادى والحسك . انها ارض متموجة تنتهى الى تلال متتابعة لا تلبث ان تذوب فى سماء استنزفت الحرارة كل ما فيها من الألوان . فالمنظر فسيح يمتد الى ما لانهاية فى جميع الاتجاهات . وبرية الأردن الواسعة تغص الآن باناس معظمهم من النساء والأطفال كأنهم الجيش المشتت يتعثر فوق الصخور ويشق له طريقا بين الحصى ، يرتقى الروابى الرملية فى اعياء وقد استنزف جهده العرق ، يسقط ليقوم ويقوم ليسقط مرة اخرى . والنساء محتضنات اطفالهن يسحبن العجائز ، والعجـــائز يتهاوون على الأرض يعجزون عن النهوض . ولكن الجموع الزاحفة لا تكف مع

ذلك عن التقدم ، يستحث خطاها الخوف ، تحت وهج للشمس يعمى الأبصار . يتقدمون بين الصخور لأنهم ان لم يتقدموا قضى عليهم بالموت من ضربة الشمس او من العطش او من الاعيـــاء !

وهم يشعرون على الدوام بالخوف من تلك الطائرات المدنية السوداء الصغيرة التى تطير على انخفاض شديد بحيث يستطيع المرء ان يرى من فيها من الرجال ، تحوم فوق رؤوسهم كأنهـــا الطيور الجارحة ، على نحو ما حدث فى الليل .. فى تلك الليلة الأخيرة المروعة فى (اللد) .

لقد ظل « انطون منصور » يتذكر الى امد طويل صوت تلك الطائرات الغريب ، وانه لصوت يختلف عن صوت اى طائرة اخرى . ويذكر الخوف الذى اثارته ، وانه لخوف يختلف عن اى خوف عرفه فى سنوات عمره الاثنتى عشرة . ان شيئـــا فى رأسه بدا له انه ينفجر مع ذلك الصوت ، ثم تدفق الدم بلا انقطاع من انفه . وفى البداية توقفت أمه عن السير وحاولت ان توقف النزيف . ولكن بعد قليل لم تبق لديها بقية من الطاقة فالتفتت برأسها وتطلعت اليه ولم تستطع ان تتكلم . **فلم يكن احد ينظر الى احد او يكلم احدا او يصنع شيئا لأحد . لأنه لم يبق لدى احد منهم سوى الاصرار على الحياة ومقاومة الموت الذى تفرضه عليهم الحرارة الشديدة والاعياء والظمأ المهلك . فليس هناك مجال للتفكير ، بل المجال كله للخوف . ولا مجال للعاطفـــة ، بل المجال كله للتعاسة .**

وكان « انطون » يتلفت بين الحين والحين لينظر الى امـــه كى يتأكد انها لم تزل هناك . فمن السهل ان يفقـــد المرء اى احد فى ذلك الحشد من الزحام . وثمة اطفال يتخبطون بين الحصى وهم يصرخون لأنهم فقدوا ذويهم وما من احد يلقى باله اليهم . فاذا تعلقوا بأحد باكين منتحبين دفعهم بعيدا عنه .

حتى النساء كن ينظرن اليهم من غير شفقة . ورأى انطون وهو فى شبه دوار امرأة تلقى فجأة بالطفل الذى كانت تحمله الى بطن حفرة حيث استقر صارخا . ومضت المرأة فى طريقها قدما . فالجميع يسيرون الى الأمام والشمس تنهال عليهم بشواظها تريد ان تقتلهم ، والطائرات السوداء تحوم كالصقور تتربص الفرصة للانقضاض من السماء التى صهرتها الحرارة ، والأرض التى لا ترحم ولا تلين تعكس ما تتلقاه من حرارة الشمس وتصليهم به فى وحشية .

كان الجميع فى طريقهم الى المدينة الجبلية الصغيرة (رام الله) ، التى تبعد بضعة أميال عن القدس . ولكنهم وقد ابعدوا عن الطريق وطوح بهم الى جوف البرية لم يعودوا يبصرون طريقهم ، وكان أقلية من صغار السن هم الذين يدركون الاتجاه الصحيح ، اما البقية فكانوا يسيرون صوب الشرق خبط عشواء . فكل ما يعنيهم أن (اللد) ينبغى أن تكون من خلفهم . (اللد) التى رددت شوارعها هذا الصباح أصداء مكبرات الصوت التى اذاع بها الاسرائيليون المنتصرون اوامرهم الى السكان :

— اخرجوا ! اذهبوا الى الملك عبد الله !

ومع انطون كان يسير غلام اعمى اكبر منه سنا بقليل هو ابن خادم ضيعة ابيه . كانا يمشيان ويد انطون اليمنى قابضة على يد (أمين) اليسرى . ويداهما معا مرفوعتان الى كتف انطون بحيث يظل الغلام الأعمى ملتصقا به . وقلما كانا يتحدثان . ولا كان احد منهما يشكو او يتذمر .

اما «بطرس منصور» — والد انطون — فكان يسير مع اخيه فريد ، وكلاهما من ذوى الوزن الثقيل ، لم يألفا السير اكثر من بضع خطوات الى سيارتيهما ، فلقد كانا من اهل الثراء ، وكانت حياتهما على الدوام سهلة هينة ، من الناحية المادية

على الأقل . ومن ورائهما سارت زوجتاهما : «ماريان» زوجة بطرس الانجليزية ، و « ماجدة » زوجة فريد ، وابنتها الكبرى نادية . والى جوارهن كان طفلا نادية الصغيران يتعثران ويبكيان ويشكوان بلا انقطاع من التعب والعطش . وكانت شفاههما قد ابيضت كأنما عليها طبقة من الملح . فكانت ماريان وسلفتها تتناوبان حملهما على فترات قصيرة وهما تترنحان وتتعثران فوق الأرض الصلدة . **أما نادية فكانت تمشى خافضة الرأس غير مكترثة بعذابهما ، منطوية على جحيمها الخاص .** ولكم تمنت لو كانت مسلمة كى يتسنى لها أن تخفى وجهها خلف نقاب .

منذ بضعة ايام احدقت الكتائب اليهودية بالرجال من جميع الأعمار واعتقلوهم فى مسجدى المدينة ، وكان زوجها «نصرى» من بينهم ، وكذلك أبوها واعمامها واخوالها وابناء العم والخال واخوتها . وبالأمس اطلق سراح اولئك الرجال ولكن نصرى لم يكن بين من أطلق سراحهم ، لأن جميع من هم فى سن التجنيد قد ارسلوا الى معسكر للاعتقال . هذا بالنسبة لمن كانوا فى المسجد الكبير . أما الثلاثمائة رجل الذين كانوا معتقلين فى المسجد الصغير فلم يفرج عن أى واحد منهم اذ حدث منهم شغب صغير اخمد بنيران المدافع الرشاشة . وتقرر عدم الافراج عن أحد منهم اطلاقا .

وفى البداية كان من رأى جميع الرجال المقيمين فى دار منصور التوجه الى المسجد الصغير لأنه اقرب الى الدار ، وبذلك يتحاشون اختراق المدينة والتحرش بالجنود الاسرائيليين من الجنسين . وكان منظر النساء المجندات غريبا وهن يحملن مدافع شتين وقد ارتدين سراويل قصيرة تكشف عن أفخاذهن البضة العارية . ولكن منصور عارض فكرة الذهاب الى الجامع الصغير قائلا ان الافضل الذهاب الى الجامع الكبير والبقاء

هناك قرب الأبواب ، لأن اشاعة كانت قد سرت بين النـــاس مؤداها أن ثلاث سيارات مسلحة تابعة للفيلق العربى ظهرت على مشارف المدينة ، ومن المؤكد ان هذه السيارات ستتلوها قوات مسلحة من ذلك الفيلق . وسيكون الجامع الكبير أول مكان يحررونه . ولمـــا كان بطرس راس الأسرة فقد اصغى الجميع لكلامه باحترام وذهبوا عن بكرة أبيهم فى صحبته للى الجـــامع الكبير .

وقبل عودة الرجال حضر جنـــديان اسرائيليان الى « دارة الخير » — وهو اسم دار منصور — فى طلب المـــاء . ومن وراء قضبان نافذة فى الطابق الأول استرقت النظر اليهما نانية وخادمة تدعى « رندا » تقوم برعاية شئون الطفلين ، ومعهما بضع نساء أخريات ، فانتابهن فزع شديد ، بيد ان نادية وجدت فى نفسها الشجاعة كى تصيح بالجنديين :

— ماذا تريدان ؟

ونظر الجنـــديان الشابان الى فوق وضحكا . ثم أجـــاب احدهما بلغـــة عربية ركيكة :

— لا تخفن . نحن من « الهاجاناه » ولسنا من «شتيرن» . لا نريد شـــيئا سوى المـــاء . الحر شديد ونحن ظمآنان . تعطفن علينـــا !

وقال شيئا للجندى الآخر الذى ضحك ثم انزل الاثنان مدفعى (شتين) عن كتفيهما واسنداهما الى جذع شجرة جزورينا فى مواجهة مدخل الدار ، ثم التفت الجندى الذى كان قد طلب المـــاء صوب النافذة ، وقال :

— ها انتن ترين . لسنا مسلحين !

وكان شابا وسيما ذا ابتسامة صافية كابتسامة الأطفال . ولم ترد نادية على ابتسامتـــه بابتسامة ، ولكنهـــا قالت : « سنرسل اليكما بمـــاء » .. وامرت خادمتها « رندا » بأن

تحمل اليهما ابريقا من الماء المثلوج ، فقالت ماريان للخادمة فجـأة :

ــ خذى المـــاء فى ابريق من الأباريق البللورية الفاخرة . وخذى ايضا كوبين من البللور . يجب ان نريهما اننا شعب متحضر ! لو كان بطرس هنا لكانت هذه مشيئته . فهما على كل حال ضيفانا .

فاحتجت نادية قائلة :

ــ ولكنهما من الأعـــداء !

ــ الا أنهما استضافا نفسيهما فى دارنا . ثم هما شخصان تبدو عليهما أمارات المودة .

وذهبت رندا فأحضرت المـــاء المثلوج فى ابريق من البللور ووضعت الى جواره كأسين من البللور فوق صينية من الفضة، ونزلت حافية القدمين فوق السلم الرخامى العريض ثم اجتازت بهو المدخل المرصوف بالفسيفساء الى الباب الأمامى . وعندما فتحت الباب كان الجنديان جالسين على سياج شرفة المدخل المنخفض ، فأشارت لهما الى الصينيـــة التى وضعتها على منضدة داخل الباب مباشرة ، فوجه اليهـــا الجندى الذى كان قد طلب المـــاء كلمات الشكر باللغة العربية . أما الآخر فتقدم الى الأمام وقال لهـــا بلغة انجليزية « خنفاء » :

ــ هالو أيتها الحسناء ! اتتكلمين الانجليزية ؟

وكانت رندا فى الواقع تتكلم شـــيئا من الانجليزية ، التى تعلمتها وهى فى خدمة آل منصور ، فهزت راسها . وقال لها الآخر ، عن زميله :

ــ انه لبنانى أمريكى ولا يعرف العربية كثيرا .

ثم صب كأسا من المـــاء وتجرعها وصب كأســـا أخرى . اما زميله فشرب نصف كأس من المـــاء ثم طوح بالكأس الى الأرض فتطايرت شظايا البللور فى كل اتجاه وراح يضحك فى

عصبية وهو يقول :
ـ اننا نصنع ذلك فى حفلات الزفاف اليهودية . فهو عمل رمزى !

ولم تفهم رندا ما قال ، ولكنها أجفلت متراجعة الى الوراء ، وقد افزعتها لهجته وهيئته ، مستاءة لتحطيم الكأس الثمينة . فمد يديه وقبض على معصمها وجذبها اليه قائلا :
ـ هيا يا حسناء . هيا بنا نحتفل بالزفاف !

فصرخت الفتـــاة وناضلته بعنف ، الا انه كانت ثمة حجرة للاستقبال يفضى اليهــا باب فى البهو فجذبها الى داخل تلك الحجرة واغلق دونهما الأبواب . وضحك الجندى الآخر وصب لنفسه مزيدا من المــاء .

واتت صرخات رندا بنادية وماريان والنساء الأخريات الى رأس السلم .. بينما صاحت ماريان الانجليزية فى حدة :
ـ ما الخبر ؟ ما الذى يحدث ؟ أين الخادمة ؟

فضحك الجنــدى ثم قال :
ـ انها بسبيلها الى فقد بكارتها كما يبدو من صوتها !

وكانت ماريان قــد اندفعت تنزل السلالم فى غضب أعمى ، وتبعتها نادية . وكان الجندى الآخر فى الانتظار عند نهـاية السلالم فأطبقت ذراعاه حول نادية بمجرد نزولها . وضحك ضحكة النصر اذ وجدها تناضل وتصرخ وترفس ، وقد تسمرت ذراعاها الى جانبيها ، وكانت قبضته فى منتهى الشدة ، فرفعها مدى الخطوات القليـلة عبر البهو الى الحجرة ، والتفت من فوق ظهره عندما وضع يده على مقبض الباب وقال لمــاريان :
ـ كل شىء على ما يرام يا اماه . فى وسعك ان تنصرفى !

وبعد ذلك صفق الباب فى وجه ماريان .. وادير مفتاح فى قفله .. وارتفعت صرخات نادية وصيحاتهــا فطغت على نحيبهــا !

* * *

كانت رنـدا تسير بتثـاقل ومشـقة خلف نادية والمراة الانجليزية . وكانت تمشى معها خادمات أخر ممن يعملن فى دار منصور وضيعته ، وأناس متباينون ممن اووا الى تلك الضيعة فى الأيام والليالى القلائل الأخيرة — ولقد بلغ عدد من لاذوا فى النهاية بذلك البيت الكبير العريق المسمى (دارة الخير) الى أن اعتقل الرجال ، قرابة مائة شخص ..

وكانت الفتاة تعانى من الصدمة وينتابها الدوار وهى سائرة أشبه بحيوان مصعوق ، غارقة فى تعاستها الى درجة لا يمكن ان تشعر معها حتى بالحر او العطش ، وقـد استحوذ عليها الرعب الى درجة تعجز معها عن الشعور حتى بالخوف .

وكانت المراة الانجليزية فريسة مثلها للرعب . فباعتبارها سيدة الدار كان فى وسعها أن تلغى امر نادية الى رندا بانزال المـاء الى هذين الجنديين اليهوديين . كان فى وسعها أن تمنع ذلك وأن تبقى الدار مغلقة الأبواب فى وجهيهما .. اجل ، كانا حريين فى هذه الحالة ولا شك أن ينسفا قفل الباب بالرصاص ويقتحما الدار . ولكن فى تلك الحالة على الأقل ، حتى لو تم اغتصاب نادية ورندا ، لم تكن لتلحقها شخصيا اية مسئولية أدبية مما تشعر بوطأتها الآن على كاهلها . ولقد عاد بطرس بعدئذ من الجامع من دون «نصرى» وقد حطمته أنباء الذبحة الوحشية التى وقعت فى الجامع الصغير ، ولم تكن زوجتـه قد أخبرته بعد بما حدث لنادية وللخادمة . وفريد ايضا لم يكن بلغه النبأ المزلزل !

على أن بال « ماريان » مشغول الآن الى اقصى حد بشأن زوجها بطرس . اذ كيف يستطيع رجل فى مثل سنه وقد جاوز الستين ، لم يألف السير حتى على الطرق الممهدة ، مصاب بعلة

فى القلب ، أن يظل حيا بعد ساعات من التعثر المستمر فوق هــذه الأرض الوعرة القاسية ، فى هــذا الحر المحرق ، ومن غير ماء ؟

كان يمشى على غير هدى ، ويضرب فى طريقه خبط عشواء مثلما يفعل المسنون حوله من الرجال والنساء ، فيضع قدما أمام اخرى من غير تفكير ، وبطريقة آلية ، لا لشىء الا لأنه لا مناص له من ذلك ، والا فليس امامه سوى السقوط على الأرض بين أكداس الحصى الرمادى اللون ونبــات الحسك الشائك ، حيث يقضى نحبه .. مثلما قضى كثيرون غيره نحبهم عندما عجزوا عن الاستمرار فى المناضلة ، فخروا على الأرض لاهثين فاغرى الأفواه فى ذلك الظل المحمى تحت الصخور ، او فى خميلة عارضة من خمائل الزيتون المتناثرة بين الأحجار ، وهم يئنون :

ــ ماء ! أعطونا ماء !

وكان الظمأ الكبير قد بدأ ينتاب بطرس قبل ان يطردوا جميعا الى البرية . ولم يكن معهم من مقتنيات الدنيا الا الثياب التى يرتدونها ، بعد أن جردوا من ساعات معاصمهم واقلام حبرهم ، بل ومن خواتم الزواج . لقــد بــدأ ظمأه فى المسجد . وكان بالمسجد ماء فى الميضأة حيث يتوضأ المؤمنون من صهريج قبل أن يؤدوا الصلاة ، ولكن الحراس الاسرائيليين تبولوا فى ذلك الصهريج وهم يقهقهون ويهيبون بالفلسطينيين قائلين :

ــ هيا تعالوا واشربوا ! وستجدون مذاقه طيبا !

ولمــا رجع الى البيت وجد به ثلاثة جنود ، رجلين وامرأة ، واقفين بجــانب سيارته عنــد راس الممر الطويل المغروس بأشجار النخيل والجزورينا المفضى الى داره . وكانت المرأة شابة وسيمة ذات عينين قويتى النظرة ، فيها اعتداد شديد بالنفس يبلغ حــد السلاطة ، فغرست فى ظهره مدفع ستين

وسألته بلهجة المـــانية واضحه جدا فى نطقها الانجليزى :
ـــ أتتكلم الانجليزية ؟
فلما قال لها نعم طلبت منه مفاتيح السيارة ، فسلمها اليها ، وركب الجنود الثلاثة سيارته ، واطلت عليه المرأة المجندة من النافذة المجاورة لمقعد السائق لتقول له :
ـــ من الخير لك ولأسرتك أن تغادروا الدار بسرعة ، والا فلن تساوى حياتكم جميعا فلسا واحدا !
وضحك رفيقاها . وعنـــدئذ استطردت مزهوة بوقاحتها :
ـــ حتى ولا ثمن الرصاصة !
ثم بصقت عليـــه .. وانطلق الثلاثة بالسيارة .
اما بطرس فوقف عند رأس سلم مدخل بيته يرقب السيارة الكبيرة البيضاء وهى تنهب ممر أشجار الجزورينا ، وهى وقفة طالمـــا وقفها باعتباره رب البيت المضياف يودع ضيوفه . ثم دخل البيت فى تثاقل واعياء .. وبدأ الاستعداد للجلاء .
وكان المفروض أن يتسنى الحصول فى المدينة على سيارات أجـــرة تنقلهم الى (رام اللـــه) . وحتى ان لم ينجحوا فى الحصول على أكثر من سيارة واحدة فقط فقـــد كان فى وسع بعضهم ان يستقلها الى رام اللـــه ليعود منها بما يكفى لنقلهم جميعـــا .
ولكن عندما وصلوا الى المدينة لم يجدوا بهـــا أى ادوات من ادوات النقل ، من أى نوع .. فالسلطات العسكرية الاسرائيلية قد استولت عليها جميعا ، والعربات المزودة بمكبرات الصوت تذرع الشوارع آمرة الناس بمغادرة المدينـــة فى مدى نصف ساعة ! .. **ولذا كانت الشوارع غاصـــة بخليط متزاحم من الناس ، وكانت الكتـــائب فى كل مكان ، وقـــد أسكر الجنود النصر ، فهم على استعداد لاطلاق النار لأوهى الأسباب ، أو لغير سبب على الاطلاق !**

وكان ثمة عدد من الفتيان والفتيات فى أزياء عسكرية يتجولون هنا وهنـــاك حاملين فى كل يد من أيديهم دلوا مملوءا بساعات المعصم واقلام الحبر وسائر أنواع الحلى والمجوهرات ... وها هو جندى يقف عمـــدا امام جماعة من النساء المحجبات اللائذات بباب أحد الحوانيت ويفك ازرار بنطلونه ويشرع فى التبول تحت انظارهن مبـــاشرة . ولمـــا أبصره زملاء له من الجنود يصنع ذلك الصنيع القبيح أخـــذوا يقومون باشارات بذيئة يوجهونها الى النساء المحجبات المحتشمات !

وكان بطرس وهو واقف على ناصية أحـــد الشوارع مع زوجته ماريان وابنه انطون ، وأعضاء آخرين من اهل بيته ، قد رأى ذلك الحادث الشائن فتقلصت يده اليمنى على المقبض الفضى لعصاه التى يحملها على الدوام وقال :

ـــ انهم يأتون بكل ما من شأنه أن يذلنا !

ولكن ماريان وضعت يدها على ذراعه وقالت له :

ـــ انهم لا يعرفون خيرا من هـــذا . هيا بنا ! فلعلنا نظفر بشىء نركبه ونحن فى الطريق .

ولكن لم تكن ثمة مركبة ولا دابة ولا طريق .

لا شىء سوى البرية ، وحرارة النهار التى أخذ يشتد اوارها .

— ٢ —

ولم يدرك الفلسطينيون على وجه التحقيق المدى الذى صمم مغتصبو أرضهم على الوصول اليـه فى اذلالهم ، الا بعد ان وجدوا انفسهم فى البرية . فهناك جرد هـذا الشعب الأبى الكريم من كل خصائص الانسانية . وثمة ظروف لا يحتفظ المرء فيها الا بشىء واحد هو تصميمه على البقاء . وفى تلك الظروف تتخلى الأمهات عن أطفالهن لتلتهمهم بنات آوى ، لأنهن عجزن عن حملهم خطوة أخرى ! .. فى هـذه الظروف عينها يترك الشبان ذويهم المسنين ليموتوا ، ويقدم الرجال والنساء على احتساء بولهم وبول أطفالهم . انه المـاء ! انه شىء يرطبون به افواههم الجـافة وشفاههم المشققة التى انتشرت على حوافيها اطارات من الملح بيضاء ، مع ارتقاء الشمس فى كبد السماء .

وذات مرة ، عنـدما جلس انطون وامين ليستريحا قليلا فى الظل الهزيل الذى تلقيـه خميلة من أشجار الزيتون انتظارا للحاق بقيـة افراد الأسرة بهما ، قال الغلام الأعمى « أمين » لرفيقـه :

— توجد صهاريج رومانيـة فى هـذه البقاع . وفى بعض الأحيان توجد بهـا بقية من المـاء . فاذا جئت الى مجموعة من الصخور فعليك أن تنقب بينها . فحينما كنت متمتعا بنور عينى كان من عادتى ان اذهب مع ابى الى البرية لنرعى قطعان المـاعز ، وكنا نجد مثل تلك الآبار فيما بين (اللد) و (نعلين) . وتوجد أيضا اشجار الخروب . وقرون الخروب حلوة لذيذة

الطعم ! الا تحبهـا ؟ ! .. الا صبرا يا سيدى ، فحين نصل الى الوادى سيكون المسير اسهل بكثير علينا لأننا نستطيع ان نسير فى الوادى على امتداده الى أن نصل الى القرية . كيف حالك الآن يا سيدى ؟

ــ قدماى تؤلمـانني بشكل فظيع . ولست أدرى هل فى وسعى ان استمر فى المسير وأنا احمل سترة حلتى ؟

ــ لمـاذا لا تلقى بها عن كاهلك ؟ لمـاذا لا تنبذها ؟

ــ انها افضل حلة عندى . وان أنا القيت بها لن اجد شيئا ارتديه عندما اصل الى (رام اللـه) . والجو فى رام اللـه بارد فى الشتاء جـدا كما تعلم .

ــ ان ابناء عمومتك هناك سيمدونك بكل ما ينقصك . ثم منـذا الذى يدرى هـل سنكون هناك فى الشتاء أم لا ؟ ان الجيش العراقى سينضم الى الفيلق العربى لتحرير فلسطين وسيلقى باليهود الى البحر ! ان شاء اللـه !

فأمن انطون على كلامه قائلا بلهجة آليـة :

ــ ان شاء اللـه .

وكان حشد من الناس يستريح معهما تحت ظـلال أشجار الزيتون ، مستلقين أو منبطحين على الأرض الصخرية ، او جالسين وظهورهم الى جذوع الأشجار ، محدقين فى شرود الى الأفق الرتيب الرحب من الأرض الحمراء والحصى الرمـادى والشوك الأبيض .. وحـدود التلال الصخرية الجرداء التى تتميز بهـا فلسطين يقف عندها البصر ليجدها طبقات فوق طبقات ينتهى اليها السهل المترامى المتموج ، كأنه بحر تجمدت أمواجــه !

وكان ثمة عدد من الأطفال الباقين على قيد الحياة ، وامرأة عجوز لا تكف عن الأنين فى طلب المـاء ، وجماعة من النساء جالسات القرفصاء محجبات الوجوه لا يتكلمن ، ولكن أيديهن

الخشنة تنم على حقيقتهن بوضوح فهن ريفيات .. وكانت هناك ايضا امرأة شابة جالسة وعلى صدرها طفلها الذى مات، تحملق فيه بنظرة خالية من كل تعبير ، وطرحتها البيضاء مسدلة على نصف وجهها .

ما من أحد فى الحقيقة كان يلقى باله الى سواه . فكل مشغول بنفسه . وعلى مدى الأفق زرافات من الخلق . ألوف من الناس على مدى النظر . كل واحد منهم يتحرك ببطء وجهد فى اتجاه واحد صوب الشرق . ووجوههم الى الأردن .

وأخيرا وصل والدا انطون وسائر افراد آل منصور الى تلك المجموعة من أشجار الزيتون ، وارتموا فى الظل الحار . ونظر الصبى بقلق الى امه . وكانت امه اصغر من ابيه بعشرين سنة وأقوى منه بنية بكثير ، ولكن قلقه كله كان بشأنها . فلديه احساس بأن أباه على رغم سنه وعلة قلبه انسان لا يلحقه الفناء . فبطرس آل منصور من أسرة فلسطينية مرموقة . وابنه يؤمن بأنه رجل عظيم عن جدارة واستحقاق . وعظماء الرجال لا يسقطون على الأرض ولا يموتون . انهم قد يهانون ويذلون ، وتغتصب أملاكهم على يد الأعداء ، وقد يطردون الى البرية ، ولكنهم اذا ماتوا بسبب ذلك فمعناه انهم تقبلوا الهزيمة . وأنفتهم وكبرياؤهم لا يسمحان لهؤلاء العظماء من الرجال بتقبل الهزيمة !

كان هذا التصور لأبيه العربى يريح اعصاب انطون . اما امه الانجليزية فهو يشعر انه لا ينتظر منها ان تكون حائزة لهذا العنفوان الجسدى وتلك الأريحية المعنوية . ثم انها كانت فى حال بالغة السوء عندما غادروا البيت . ولذلك صلة ما بجنود (الهاجاناه) الذين وضعوا ايديهم على ابنة عمه ثانية والخادمة رندا .

انه يجهل تفاصيل المسالة ومحور الموضوع . ولكنه يعلم

انه كان ثمة صراخ كثير وهياج شديد ، وأن كل من فى البيت كانوا يبكون وينتحبون . وعندما غادر الجنديان البيت كان عليهما أن يقاتلا النساء اللواتى تعلقن بهما وخمشنهما بأظافرهن . وفزع أنطون خشية ان يعمد الجنديان الى شهر مسدسيهما والشروع فى اطلاق النار . وبدا فى لحظة من اللحظات انهما فاعلان ذلك لا محالة !

لقد كان الأمر كله مروعا مزعجا . وعندما سمح للجنديين بالفرار انهارت أمه ، وكانت حالتها فى منتهى الفظاعة . كذلك كانت حالة نادية فظيعة . أما رندا فلم يكن لها هم سوى البكاء .

وشكت أمه من صداع شنيع اصابها بعد انصراف الجنديين . وعلى الرغم من هذا الصداع شرعت فى اليوم التالى فى السير الى (رام الله) ، فوق ارض لا يحلم بشر فيما عدا الرعاة بأن يطأها بقدميه . وبعد فترة من السير جعلت تمشى بمشقة وهى صامتة ، شأنها فى ذلك شأن معظمهم ، ولم تقبل نحوه عندما رأته يصاب بنوبة اخرى من نزيف الأنف .

غير انه لم يحتق عليها بسبب ذلك . فلم يكن فى يدها أن تصنع له شيئا . بل لم يكن هناك ما يمكن أن يصنعه اى انسان لأى انسان . فكل واحد مشغول بنفسه . وهذا هو الهوان الذى فرضه اليهود عليهم عندما طردوهم الى الطريق ليناضلوا ويتعذبوا كالبهائم فى تلك البرية .

وقال فى نفسه : انهم يريدون أن يفرضوا علينا العذاب . يريدون أن يذلونا . وفى وسعهم ان يفعلوا ذلك بنا ولكن ليس فى وسعهم ان يفنونا . وظلت هذه الفكرة الأبية تسند روحه المعنوية مدة ، ولكن بعد ذلك حلقت فوقهم الطائرات السوداء الصغيرة ، وهبطت الى ارتفاع منخفض ، فلم يعد ثمة شىء سوى الفزع والرعب والخوف المميت من الموت .

ومع تقدم النهار صار جليا أن كثيرين من هؤلاء الناس لقوا حتفهم على أفظع صورة . وكلهم من المسنين والأطفال الصغار ومن لا حول لهم ولا طول . وكانت أمه تبدو فى حالة فظيعة ، كأنما هى ايضا معرضة للفناء .. وهاهى امه قد ارتمت بجواره الآن ، ولأول مرة منذ غادروا البيت منحته ابتسامة يسيرة . وحتى فى الليالى الأخيرة الفظيعه عندما قذفت المدينة بقنابل المدافع والطائرات — حينما اطبقت عليها الكتائب اليهوديه — كانت تتمكن دائما من الافترار عن ابتسامة عارضة كى تبقى روحهم المعنوية عاليـــة .

لقد كان الحال عصيبا جدا ، ولكنهم لم يواجهوا ذلك الخوف الشخصى المميت من الموت ، ذلك الخوف الذى حل بهم مع أنباء المذبحة فى الجامع الصغير ومع التعرض للهلاك فى البرية حين أخـــذت تلك الطائرات السوداء اللعينـــة تطير على ارتفاع منخفض بصوتها الغريب المختلف عن كل صوت آخر .

وقالت ماريان :

— لا بد أن نكون الآن فى منتصف المسافة الى (نعلين) . وقد سمعت بعضهم يقولون انهم يستطيعون أن يروا الوادى بالفعل . اننا عندئذ نستطيع على الأقل أن نعرف اين نحن . فالسير على غير هدى هو الذى ينهك قوانا . ونحن لم نفعل شـــيئا سوى السير صوب هدف غامض فى مكان لا نعرف أين هو !

وكانت قصيرة القامة ، نحيفة ، داكنة الشعر ، ذات ملامح حسنة وعينين زرقاوين زرقة عجيبة ، ورثها انطون عنها . وكان من الممكن أن يظنها الناس عربية — وكثيرا ما ظنوها — فلم يكن فيها شىء انجليزى مميز ، بل ولا أوربى مميز .وكانت فى الأحوال العادية تبدو أصغر سنا من اعوامها التى ناهزت الأربعين . اما الآن فهى تبدو عجوزا الى درجة تكاد تجعلهـــا

امرأة اخرى ، وتحت عينيها ظلال سوداء من اثر الاعياء العقلى والبدنى . وشفتاها مشققتان ينزف منهما الدم . وثوبها الرقيق المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذى كان ناضرا قشيبا عند بداية المسير ، غدا خرقة كثيرة الأوضار مبللة بالعرق .. كان مظهرها اشبه بمظهر امرأة غجرية قضت ليلتها نائمة فى حفرة ، وهى التى كانت فى العادة نموذجا للأناقة والهندام !

وناديه التى جلست بجوارها ، بدت أيضا زرية الثياب ، ومحياها الشاحب الجميل شبيها بوجه فتاة تسير فى نومها . فهى تحملق فى الفضاء ولا تتكلم !

اما بطرس واخوه فريد فجلسا على مسافة قليلة فوق صخرة صغيرة ملساء ، وقد اعتمد بطرس على عصاه ذات المقبض الفضى ، وراسه الجميل منحرف الى الوراء قليلا وهو ينقب بعينيه فى الأرض الممتدة حتى حافة الأفق عن الوادى الذى يوصل الى جنوبى قرية نعلين حيث ينبغى ان يقضوا الليلة . وحيث يروون ظمأهم ان لم يجدوا شيئا يأكلونه .

لقد ازداد وزنه فى السنوات الأخيرة . بيد انه لم يزل ، فى الثانية والستين من عمره ، رجلا وسيما مهيب النظر ، وفى محياه ما ينم على الفكاهة وعلى الحزن معا ، مع هيبة عظيمة. أما شقيقه فريد — الأصغر منه بعشر سنوات تقريبا — فيشبهه ، وان كان اقل منه وسامة ومهابة . فيه شىء من الفكاهة ولكن بدون ذلك الأسى الغامض الذى يعتبر عنصرا هاما فى اضفاء ذلك السحر الخاص وتلك الحساسية على الشقيق الأكبر . وكانت ماريان تميل الى شقيق زوجها وتشعر نحوه بالاعزاز ، ولكنها لم تكن حرية أن تتزوج شخصا آخر على الاطلاق سوى بطرس .

وكانت «ماجدة» زوجة فريد امرأة وسيمة تميل الى البدانة ، **وقد جلست على العشب بجوار نادية تحاول ان ترفه عن**

الطفلين اللذين راحا ينتحبان من شدة الظمأ والاعياء . وكان أكبر الطفلين فتـــاة صغيرة فى الرابعة من عمرها رقدت على الأرض الوعرة وأنشأت تبكى فى تعاسة ملحة .

ونظرت ماجدة بيأس صوب سلفتها وقالت لها :

ــ لست أدرى كيف سيمكننا ان نصل بالطفلين الى هناك .

فرفعت ماريان عنها قائلة :

ــ لم يبق أمامنا الا ساعتان .

وكانت تعلم أن المسافة قـــد تمتد الى ثلاث ساعات على الأقل . ولكن لفظ ساعتين كان يبدو أقل بكثير من لفظ ثلاث ساعات . وحين تنقضى الساعتان ويكون ثلثا الطريق قد قطعا فمن الممكن عنـــدئذ أن يجد الانسان القوة على قطع المسافة الباقية . ثم ان حرارة النهار ستكون قـــد قلت أيضا ، وذلك من شأنه ان يساعد كثيرا على تخفيف الحالة .

وقال أنطون فى امل :

ــ لعلنـــا نعثر فى طريقنـــا على صهريج من الصهاريج الرومانية . فأمين يقول ان بعض هذه الصهاريج موجود فى هذه الأنحاء ، وقد يكون فيها ماء .

وتســـاءلت ماريان فى لهجـــة يائســـة كيف يمكن لهم أن يستخرجوا المـــاء من باطن تلك الصهاريج العميقة حتى ان وجدوا صهريجا منها غير جاف . فالمـــاء الموجود بها لا بـــد أن يكون على بعد سحيق ... بيد ان ما فى صوت الغلام من اللهفة ــ وانهـــا للهفة شابة يافعة للغـــاية ــ جعل قلبهـــا لا يطاوعها على تثبيط همته ، فقالت :

ــ علينا اذن أن نفتح عيوننا جيدا لنتسقط مواضعها .

وكان من السهل على المرء أن يرتد آدمى المشـــاعر وهو جالس هناك تحت أشجار الزيتون ، بعيدا عن عملية الافناء ، وسحق الروح المعنوية ، وانهاك القوى فى ذلك الارتحـــال

« .. لست أدرى كيف سيمكننا ان نصل .. »

الاجبـــارى ! .. ان الظمأ المستعر لم يزل على حاله ، ولكن وطأته غدت أقل فظاعة بعد ان كف الجسد عن التصبب عرقا وهو يبذل المجهود فى السير المهلك ، واستراحت الأقدام من الاحتكاك الفظيع الذى أصابها بالتهابات وفقافيق جعلت من كل خطوة عذابا مقيما لا يمكن احتماله ، ومع هذا فلا بد من احتماله ، لأن ذلك هو المهرب الوحيد من الاستلقاء على الأرض والموت بضربة الشمس والعطش !

وكانت ثمـــة راحة أيضا من الفزع ، اذ انقضت عليهم الآن فترة من الزمن لم يروا فيها جنديا اسرائيليا ولا طائرة غادرة من طائراتهم . ولم يعد أحد يطاردهم ليوغلوا فى البرية كما تطارد كلاب الصيد فرائسها . ولكنهم كانوا قـــد ابعدوا بما فيـــه الكفاية عن طريقهم بحيث صارت تفصلهم عنـــه اميال عديدة ، وليس أمامهم الا الاستمرار فى خوض البرية .

ان مجرى الوادى الصخرى سيكون عذابا من نوع جديد لهم عندما يصلون اليه ، فتلهب حجارته الأقدام المتورمة والدامية ، فليس ذلك الوادى الا مجرى نهر أصابه الجفاف . ولكن له مزية لا يستهان بهـــا ، فهو طريق واضحة المعالم لا يضل من يسير فيهـــا ، وبـــذلك يتخلصون من الضرب على غير هـــدى . انهم عندئذ سيعرفون على الأقل انهم بعد ساعة أو ساعتين من المشى لا بد أن يصلوا الى قرية (نعلين) ، وهى القرية التى لم تزل فى أيدى العرب .

كان كثيرون يأتون ويذهبون ، وبعضهم يستريح فى العراء فى ظل الصخور والحصى الأملس الضخم ، وانه لظل هزيل . فالحركة دائبـــة لا تنقطع ، والسهل المتماوج مزدحم بالناس كزحام شوارع المدن المأهولة فى أيام المواسم . وانه لحشد من الناس متعدد الألوان حقا ، يبلغ تعداده عشرات الألوف من الأنفس فى خليط عجيب ، ففيهم الرجال والصبيان ممن يرتدون

القمصان البيضاء والبنطلونات ، وفيهم من يرتدون الزى العربى التقليدى والعقال المعروف . وفيهم نساء وفتيات فى زى أوربى حديث الطراز ، ومنهن من ترتدى زيا أسود اشبه بزى الراهبات ، ومنهن من تلبسن الزى الفلسطينى التقليدى الموصوف فى التوراة ، وهو زى طويل ضاف مثقل بالوشى والزخارف ، وعلى ظهورهن تتدلى الطرح البيض التى تغطى رؤوسهن . والمسنات منهن يرتدين الزى الفضفاض الأسود أو الرمادى وقد عصبن رؤوسهن بالمناديل . اناس من كل لون وصنف ، فيهم القرويون وسكان المدن . فيهم الفقراء واهل اليسار ، فيهم المسلمون والمسيحيون . وما أكثر الأطفال فيهم . ففى كل موضع أطفال يحملهم اهلوهم ، او يجرون اقدامهم ممسكين بذيول امهاتهم . وكلهم صغار ، سود الشعر ، سود العيون ، وهؤلاء هم الجيل الصاعد من الفلسطينيين . جيل يشب بلا وطن ، وبلا ديار ، وبلا مستقبل ، **وقد كتب على كثيرين منهم ان يشبوا فى مسغبة المعسكرات وتعاستها ، بل ان كثيرين من هؤلاء الصغار الأبرياء كتب عليهم أن يموتوا هاهنا فى البرية !**

وكان بعض هؤلاء الناس المتباينى التكوين لهم اقارب فى (رام الله) — كما هو حال آل منصور — وهؤلاء هم المحظوظون ، وهم قلة قليلة . واقلية منهم ايضا من لديهم اموال وممتلكات فى ذلك الجزء من فلسطين الذى أصبح الآن اسرائيل . اما الأغلبية الساحقة فلا يملكون الا الثياب التى يرتدونها وايمانهم بالله الذى لا يغفل ولا ينام . والجميع قد خلفوا وراءهم الأراضى التى كانت عائلاتهم تمتلكها وتزرعها منذ قرون لا تحصى . فهم جميعا — رجالا ونساء — أناس كادحون ، يتجه كل كفاحهم الآن لمقاومة الفناء تحت هذه الشمس المحرقة فى هذا السهل الذى يجتازونه بأقدام متورمة

داخل أحذية ابلتها الصخور والأشواك !

ان هذه الأرض الموحشة لا يجسر البدو أنفسهم على السير فيها معرضين لضربة الشمس والهلاك عطشا واعياء . ومع هذا يتحرك سوادهم الأعظم متعثرين فى كل خطوة يخطونها فينهضون فى صمت ويواصلون التقــدم فى عناء كأنهم تماثيل آلية صماء .. لأنهم يعلمون أن البديل الوحيد للتقدم الى الأمام هو الموت المحقق . وارادة الحياة تلازمهم الى آخر نفس من أنفاسهم المكروبة اللاهثــة .

— ٣ —

وجال فى ذهن المرأة الانجليزية هـــذا الخاطر :
ــ لو اننى لم اتزوج هذا الرجل الفلسطينى منذ أربعـــة عشر عاما لمـــا كنت الان هاهنا ، فى هذه المحنة !
ولكن الشعلة الصغيرة التى اندلعت من هذه الفكرة لم تلبث ان اضطربت ثم خمدت انفاسها تماما امام الفكرة المقابلة لها ، فقالت تحدث نفسها :
ــ لو لم أتزوجه لعشت فى انجلترا طيلة تلك المدة ، ولكان من الجائز جـــدا أن القى مصرعى فى احدى الغارات الجوية التى شنها الألمـــان !
ونظرت صوب زوجها ، فاذا هو جالس فوق صخرة ملساء متجها بجسمه الى الأمام ، وكلتـــا يديه فوق مقبض عصاه الفضى ، وقميصه الأبيض المبلل بالعرق لاصق بجسده ، وتحت عينيه جيوب ، فبـــدا فى تلك الجلسة مسنا مريضا . ومع هذا كله لم تزل عليـــه سيما ذلك السمت المهيب ، ومخايل ذلك السلطان الذى جعل الناس ينادونه دائما بقولهم « يا بك » .
وقالت فى نفسها انه قاسى كثيرا جـــدا . فكيف يمكن أن يعيش ؟ .. فان لم يكتب له أن يعيش فكيف استطيع انا ان اعيش ؟ ان قوتنا رهن بأيامنا وأحوالنا . كان ابى يقول ان تلك الحكمة رثة ابتذلها الاستعمال ، ولكنها صحيحة صادقة . **فاللهم اجعلها تصدق ايضـــا ! .. اعطنا القوة كى نستطيع مواصلة السير .. مسافة أخرى قصيرة .. ومدة أخرى اطول مما استطعنا .. ولو تلك الساعات القليلة التى سيستغرقها هـــذا السير المهلك !** اعط بطرس القوة يارب ! بطرس على

الخصوص يارب ! اما أنا وانطون فسيكون فى استطاعتنا ان نتدبر احوالنا .. أما ان لم يستطع بطرس ان يقاوم ويثبت لهذه المحنة ، فلن يكون فى بقائنا نحن جدوى يارب .. !

أما بطرس فلم يوجه كلاما الى زوجته او ابنه . بل ولا حتى لأخيه ، أو لأى امرىء آخر ، وهم جالسون تحت ظلال اشجار الزيتون وسط البرية . بل انه لم يحول رأسه لينظر اليهم . ولم يكن هذا عن عدم اكتراث منه بعذابهم أو مدى قدرتهم على مقاومة الفناء المحدق بهم ، بل لأن المأساة الجماعية التى كانت دائرة من حوله ، والتى لم تكن مأساته هو ومأساة أفراد اسرته الا جزءا صغيرا جدا منها ، **كانت نكبة انسانية ضخمة ، وكارثة هائلة صبت على شعب برىء .. هائلة جدا الى الحد الذى جعل رثاءه لما يصيبه ويصيب آله الاقربين يتوارى بين طياتها الجهنمية !**

ان تشريد الألوف المؤلفة من البشر رجالا ونساء وأطفالا ، والالقاء بهم الى جوف برية التيه ، لم يكن مذبحة أهون شأنا من تلك المذبحة الأخرى التى تمت بنيران المدافع الرشاشة وأسنة الحراب ضد النساء والأطفال فى قرية (دير ياسين) فى اليوم العاشر من ابريل ، ولا هى أهون من حصد ارواح ثلاثمائة رجل فى الجامع الصغير فى (اللد) منذ ثلاثة أيام .. فهى مذبحة للعجائز والأطفال الرضع الذين تحملهم أمهاتهم فوق صدورهم ، وللصغار الذين لم يتقنوا بعد الكلام والذين لم تثبت بعد فى الخطو على الأرض اقدامهم الصغيرة .. انها مذبحة الأبرياء !

كان من اليسير عليه أن يستعين بقوة ارادة حديدية للسيطرة على نفسه كى يتحمل ذلك العذاب البدنى . والحق ان عذابه الجسدى كان من الشدة بحيث كان فى كل لحظة على شفاها الانهيار . الا انه كان يأبى بعناد وصلابة ان يموت كما

تنفق الدابة فى هذه البرية . من هذه الكبرياء العنيدة استطاع ان يستمد رصيدا من القوة يعينه فى آخر مرة على الاستمرار فى المسير على نحو ما .

أما عذابه الداخلى ، عذابه المعنوى ، فهذا هو العذاب الذى لم يكن لديه أدنى رصيد من القوة يستعين به على مواجهته . فالفظائع التى كتب عليـــه أن ينبرى لمواجهتها فى الساعات الأربع والعشرين الأخيرة كانت أكثر مما يطيق . كانت ثمة تلك الفظائع التى عاناها فى المسجد الكبير ، وذلك الظمأ الذى لم يستطع أن ينقع منه غلته لا فى الليل ولا فى النهـــار ، وبذاءة اولئك الجنود وهم ينجسون الصهريج ثم يدعونهم ساخرين هازئين للشرب من مائه ، ويحولون بينهم وبين دورات المياه . فلما انجابت سحابة النهار وقلت وطأة الحر لم يجـــد الرجال المعتقلون بدا من قضاء ضروراتهم الجسدية لصق جدران الفناء الملحق بالمسجد وفى الأركان ، تحت انظـــار بعضهم البعض ، فصارت الرائحة الكريهة شيئا خانقا للأنفاس . يضاف الى ذلك ما اســـتولى عليهم طـــول الوقت من الخوف والفـــزع والتوجس : فمن يدرى ماذا يمكن أن يحدث لهم فى اى لحظة من اللحظـــات على حين غرة ؟ **ومن منهم يدرى ما الذى يمكن أن يحدث ــ او يمكن ان يكون قـــد حدث فعـــلا ــ لأسرهم أثناء غيابهم ؟ وما معنى هذه الانفجارات المتقطعة التى تنبىء عن اطلاق المدافع الرشاشة ، وان أصواتها لتترامى اليهم من جوف المدينـــة .. ؟ !**

وفى احدى المرات طالت هذه الانفجارات فى خيط متصل .. ولم يعرفوا جلية الأمر عندما اطلق سراحهم فى صباح اليوم التالى ، فعرفوا عندئذ أن هذه الطلقات كانت ايذانا بالمذبحة الرهيبـــة فى الجامع الآخر ، ذلك الجـــامع الذى كان فريـــد والآخرون يريدون بالأمس أن يذهبوا اليه ، والحوا فى ذلك .

ولقد اوشكوا ان يذهبوا الى هناك فعلا .

يا للصدفة المذهلة ! ويا للرعب المصمى ! .. ثم بعد ذلك صدر اليهم الأمر بالرحيل « والا فلن تساوى حياتكم فلسا واحدا ! » . انه لن ينسى ما عاش سحنة تلك المرأة المجندة وهى تطل عليه من نافذة مقعد القيادة فى السيارة — سيارته هو ! — لتبصق وتنفث ذلك الغل المسموم فيه . لقد عاش عمره كله يحب النساء ويكرمهن ويجلهن ، ويرى فيهن المثل الكامل للرقة والدماثة والحنان . فهن فى نظره مخلوقات تفيض عطفا ، فهن الزوجات وهن الأمهات . ولكن ها هى امرأة فى خاتمة المطاف تبصق عليه .. ولم يحدث له مثل ذلك من قبل ، حتى ولا من المرأة التى تركته .. وبعد ذلك بدأ هذا الارتحال القاسى فى البرية فى حر الشمس اللافح ، وناهيك بشمس يوليو الرهيبة الضارية فى ذلك السهل الساحلى ، وتلك الطائرات الصغيرة السوداء تنقض عليهم وتطير على ارتفاع منخفض جدا ، لتذود الناس بالارهاب والفزع فتبعدهم عن الطريق ليوغلوا فى البرية ، ثم تطاردهم هناك ليزدادوا فى البرية ايغالا حتى يصلوا الى الجبال .

ذعر وفزع . والغاء للمقومات البشرية الغاء متعمدا يفرض على أولئك البسطاء الأبرياء فرضا . وكأنما لم يكن كافيا لأولئك الأشرار أن يسلبوهم وطنهم وبيوتهم وارضهم وكل ممتلكاتهم المادية ، فراحوا يسلبونهم أيضا كرامتهم الانسانية . بل وما اكثر من سلبوا منهم أرواحهم ذاتها !

وكان بطرس متنبها الى المرأة التى كانت جالسة عن كثب منه تحت اشجار الزيتون وعلى صدرها طفلها الذى مات عطشا ، مثلما فطن من قبل — اثناء المسير — الى تلك المرأة الأخرى التى أطلقت صرخة ضارية وهى تلقى بفلذة كبدها حيا الى قاع حفرة فى تلك البرية المتأججة بحر الهجير ، لأنها لم

تعـــد قادرة على حمله خطوة أخرى ، ولم تعـــد قادرة على الاستمرار فى الحياه على المستوى البشرى بعد أن ذهب بعقلها عذاب الظمأ والاعياء ! .. وكان متنبها أيضا الى المسنين من الجنسين الذين نفدت قوتهم فتهاووا على الأرض ، فتركهم بنوهم وذووهم ليموتوا بعـــد أن يطلقوا القـــلة الواهية من أنفاسهم الأخيرة حيث ســـقطوا ، ومرت بهم الجموع الذاهلة زاحفة نحو هدفها المجهول ، وداسوهم بأقدامهم مثلما كانت عجلات الرومان المتوحشين تدهم المنهزمين فى ألعاب السيرك على عهد الأباطرة .

اجل ، كان بطرس متنبها للناس من حوله فى جمود وعـــدم مبالاة بالذين يقدمون منهم — رجالا ونساء — على ضم راحات أيديهم ليجمعوا فيهـــا بولهم كى يشربوه شرب البهيـــم ، بل ويجمعون ايضا فى راحاتهم بول سواهم ، يقاتلونهم عليـــه ليظفروا لأنفسهم بقطرة من ذلك السائل الثمين الذى أصبح على دنسه مرادفا للحياة !

وكان متنبها اشد التنبه واعمقه لزوجته وهى تظلع فى مشيتها بألم واضح فى صندلها الممزق من حجارة البرية ، ومتنبها ايضا لما كان مرتسما بجلاء من امارات التعاسة على محياها . ولكن ما من شىء يستطيعه لها رغم كل ما يكنه لها من الحب والرعاية والاعزاز . وكان هذا الاحســـاس بالعجز عنصرا من اقسى عناصر عذابه الداخلى ..

وكان متنبها كذلك لسير ابنه الشاق المتثاقل وقد اطبق يده على يد الغلام الأعمى ، وخيل اليه ان تلك اللمحة الخيرة هى الشىء الوحيد الصالح الطيب فى كل هذا الجحيم الذى يتلظى بألسنة سعير من الحر ، والعذاب ، والظمأ ، وفقدان الاحساس بالغير ، لأن كل امرىء كان مشغولا بذات نفسه عن كل من عداه ، منصرفا للنضال فى سبيل البقاء فى هـــذه الحياة .

ان ابنه انطون يستحق وحده على الأقل ان يبقى حيا مهما جرى الهلاك على غيره ممن حوله !

وارهقه القلق على ابنه وقد بلغ من التفكير فى امره هذا المبلغ ، واستمد من ذلك زادا من القوة فنهض ، واستأنفوا مسيرهم . وفى هذه المرة اتت ماريان ومشت بجانبه . وقالت له وهى تحاول بث الهمة فى نفسه :

ــ سنصل بعد قليل الى الوادى ان شاء الله .

واستقرت نظرته عليها برهة ، وقال لها بالانجليزية :

ــ سأتمكن من المقاومة الى ان نصل . لا تقلقى على . كيف حالك أنت ؟

ــ انا بخير .

وبعد بضع دقائق تخلفت عنه لتحمل احد طفلى نادية . ولكنها بعد ذلك تعثرت كمن اصابها العمى من شدة الاجهاد ، لأن حمل الطفل كان اقوى من احتمالها ، فكادت تصاب بالاغماء ، لولا أن شخصا ما اخذ منها الطفل وهى مغمضة العينين .

وكان هذا الشخص فريد .. الذى قال لها يشجعها :

ــ قد يوجد صهريج من صهاريج الرومان تحت هذه المجموعة من الصخور التى ترينها أمامنا هناك .

ــ من الخير لنا الا نتعلق بالآمال الكاذبة .

فلم يعقب على كلامها ، بل حمل الطفل الباكى على كتفيه وغذ السير ، بينما مشت ماريان مع النسوة الاخريات .. وقالت ماجدة :

ــ اذا لم نجد ماء عندما نصل الى هذه الصخور فانى ميتة لا محالة ! لم يعد فى وسعى ان اواصل المسير وانا ظمأى . آه ! بحق السماء !

ورفعت احدى يديها ولطمت الطفل الآخر المتعلق بها على صفحة وجهه ثم دفعته عنها بعيداً فى غلظة ، فسلط الطفل

على الأرض باكيا . وصاحت ماجدة بضراوة :

ــ لم يعد في استطاعتى الاستمرار فى حمله !

ثم انفجرت تبكى بكاء هستيريا وهى تقول :

ــ انا انتهيت ! لا استطيع المسير !

فحملت ماريان الطفل الباكى وحاولت ان تسرى عنه ، ثم قالت لماجدة :

ــ سنصل الى المــاء بعد قليل . لقد انتهى اسوأ جانب من الطريق الآن . تشجعى . تشجعى !

وحملت الطفل على ظهرهـا ومشى الجميع قدما .. مشى الحشد الهائل المتدافع ببطء ومشقة ، ووجوههم جميعا صوب الشرق ..

وعندما وصلت جماعة آل منصور الى الصخور كان جمع كبير جدا من الناس قد ازدحموا حولها من قبلهم . وشق انطون والغلام الأعمى طريقهما بين المتزاحمين وراحا يناوران ويداوران باصرار الى أن نفذا الى المقدمة من تلك الصفوف المتراصة . وكانت الصخور فوق نشز من الأرض مرتفع بعض الشىء وفيما بينها بئر كان الرومان قد احتفروهـا . وهى بئر غائرة اذا نظرت فى جوفها ألفيت لمعات المــاء فى القاع . وكان الناس قد عقدوا مناديلهم وجزازات من ثيابهم بعضها ببعض وادلوا بها فى جوف البئر ، وكانوا بعد ذلك يخرجونها وقد تلوثت بالطين الا انه طين بليل . فكانت العــائلات تتقاسم قطع القماش الندية فيما بينها وتمتصه . والطلب على هذه المناديل الموحلة شــديد جدا ..

وكانت النســاء يستخدمن الطرح التى يغطين بها رءوسهن ، فتشاور الصبيان فيما بينهما وانتهى رأيهما الى انهما حتى فى حالة تعاونهما معا لن يستطيعا صنع حبل يصل طوله الى مستوى الماء البعيد الغور . ولكن اذا اقدمت جميع نســاء

جماعتهما على تمزيق جزازات من ثيابهن فسيكون فى وسعهما ربط هذه الجزازات بعضها ببعض ليصنعا منها حبلا يفى طوله بالغرض المنشود !

وعندما عادا الى بقية الجماعة كانت رندا تحمل الطفل ، أما ماريان فكانت لم تزل مشغولة بماجدة التى لم تفارقها حالتها الهستيرية . وقال انطون :

ــ فى البئر ماء .. ماء مختلط بالطين الى درجة كبيرة جدا . والنـــاس يدلون بحبال من مناديلهم وجزازات ثيابهم فتخرج سوداء من الطين ولكنها ندية بالماء . ويقبل الناس على مصها.

فصرخت ماجدة :

ــ ومن ذا الذى يريد ان يمص الطين ؟ انى افضل على هذا الف مرة ان اشرب ماء تبولى !

وكانت ماريان قد وصلت من الاعياء والهبوط الى مدى لا مزيد عليه ، فأحست فجأة انها لم تعد تطيق اكثر مما اطاقت ، واذا بها تلطم ماجدة على صفحة وجهها ، فترنحت وسقطت على الأرض ، ثم جلست تبكى بهدوء وقد ثقلت عليها تعاستها ، غير انها برئت من الهستيريا . وارتمت ماريان بجوارها وراحت تمزق هدب ثوبها . ولما فرغت منه شرعت تعمل التمزيق فى هدب ثوب نادية ، وانطون يعاونها فى ذلك .

ولبث الغلام الأعمى معهن ، فى حين مضى انطون الى الصخور ومعه ذلك الحبل المصنوع من جزازات الثيـــاب . واستغرق غيابه بعض الوقت ، ولما عاد الفى اباه وعمه قد لحقا بالجماعة، وقسم الحبل قسمين، فحظيت النساء بقسم منه رحن يمتصصن ماءه ، وحظى الرجال بالقسم الآخر . وجعل الجميع من فرط

سرورهم بترطيب حلوقهم وشفاهم الجافة بذلك البلل المبارك لا يفطنون الى طعم الطين الممجوج .

ولم يكن قرب الصخور ظل على الاطلاق ، فلم يمكثوا فى ذلك الموضع طويلا ، وسرعان ما اقتربوا من التلال القاحلة الصحراوية ثم دخلوا خورا عريضا قريب الغور .. وكان هذا هو الوادى المنشود ، وقد بلغوه فى النهاية .. غير مصدقين !

— ٤ —

وبدا الوادى جحيما من العــذاب لا يقل عن جحيم البرية نفسها ، والصخور فيه تملأ القاع ، حتى ان بعض الناس فضلوا السير على الجانبين شاقين طريقهم بين الحجارة وكتــل الصفة . ولكن هذا لا ينتقص من مزية الوادى باعتباره طريقا واضحة المعالم ، فهو من هذه الناحية ليس اقل شأنا من خطوط السكك الحديدية التى يتبعها الناس فى الفيافى كى لا يضلوا .. وسرعان ما التأم شمل الجموع الحاشده شيئا فشيئا فى ذلك الوادى، وتفرقوا جماعات تسير تباعا كأنهم موكب مظاهرة هائل يمتد مسافة بعيدة لا يكاد يدرك آخرها الطرف .

وفى هذا الموسم كانت قد بدأت ثمار التين الشوكى فى الظهور، وتفتحت ازهار فى مجموعات من نبــات الدفل قرمزية اللون خففت من رتابة التربة الحمراء والحصى الرمادى الذى يكسو البرية . ثم فجأة تراءت للناس اشجار صغيرة متناثرة ، لونها بين الرمادى والأخضر ، هى اشجار الخروب الصغيرة الضامرة . ولكن قرونها الطويلة البنية اللون التى كانت تتدلى من اغصانها اثلجت الصدور التى كاد يقضى على اصحابها الجوع والظمأ .

واشتدت قبضة يد انطون على يد الغلام الأعمى . وصاح :

— اشجار الخروب . هيا بنــا !

— اين هى ؟ فوق الوادى ؟

— اجل . وقريبة منه جدا . وهاهم الناس يتقاطرون صوبها متزاحمين كأنهم جيوش النمل !

— اذهب انت ودعنى . سيكون ذلك اسهل عليك من غيرى . سأنتظرك هنــا .

وجلس امين على الأرض القرفصاء تأهبا للانتظار . اما انطون فحين وجد نفسه قد تخفف من جر ثقل الغلام الأعمى ، صعد جانب الوادى وأسرع يعدو تلك الياردات القلائل صوب اقرب شجرة خروب. وكان بضعة رجال وغلمان قد تسلقوها بالفعل . ولكنه تعلق بأقرب غصن به قرون مدلاة وقطع عددا منها . ولكن شابا كان جاثما فوق غصن اعلى منه ركله بقدمه وانتهره غاضبا وسبه ، طالبا اليه ان يبحث لنفسه عن شجرة اخرى .. غير ان انطون لم يبال بالركل وظل متشبثا بغنيمته وراح يجمع مزيدا من قرون الخروب الثمينة ويحشو بها جيوب بنطلونه وداخل قميصه المبلل بالعرق . وعندئذ صوب الشاب الجاثم من فوقه ركلة شديدة الى وجهه بكل وحشية فأرغمه على النزول .

وكان الظمأ قد قلل احساس الناس بالجوع .. ولكن الأيام الأخيرة التى تخللها الضرب بالقنابل كانت ايام مجاعة لم يظفر فيها معظم الناس بما يتبلغون به .. والذين حظوا بفنجان صغير من القهوة التركية وبضع زيتونات فى ساعة مبكرة من هذا الصباح يعتبرون بلا شك من القلة المحظوظة !

وكان انطون جائعا جدا ، وادرك ان امين جائع ايضا . ثم من يدرى هل سيجد كل هؤلاء شيئا يأكلونه عندما يصلون فى آخر المطاف الى (نعلين) أم لا ؟ .. وحين عاد الى بطن الوادى الفى امين فى انتظاره حيث كان قد تركه ، ولكن ذويه ومن يلوذون بهم كانوا قد سبقوهما الآن بمسافة طويلة وغابوا عن النظر . وأخذ انطون يعطى امين القرن بعد القرن من قرون الخروب وهما يشقان طريقهما قدما ويمضغان الفصوص الصلبة ، الحلوة المذاق ، التى تشبه فى طعمها وقوامها التمر الجاف،ويحسان لذلك بحرارة تسرى فى جسديهما اليافعين . ولم يلبث انطون بعد قليل ان كف عن الأكل كى

يبقى ما معه لبقية افراد الجماعة عندما يلحقان بهم . واحس الأعمى ان صاحبه امتنع عن مضغ الخروب فادرك ما دار بنفسه ولم يطلب من صاحبه مزيدا .

وكانت الشمس قد جنحت الآن الى الغروب . ومع انهما كانا يتصببان عرقا وهما يتعثران على طول السكة الصخرية ، الا ان الحر لم يعد يعنف بهما بمثل الشدة الوحشية السابقة . وكان الأطفال من حولهما مستمرين فى البكاء والنحيب بصورة تثير الحسرة والاشفاق . أما المسنون فما زالوا يتوقفون كلما ساروا بضع ياردات ليستجمعوا انفاسهم اللاهثة . ولكن أحدا منهم لم يعد يتهالك فيخر على الأرض كما حدث فى وقدة الهجير .. فمن خارت قواهم سقطوا فى البرية وانتهى أمرهم منذ ساعات . أما الذين لم تزل تحملهم اقدامهم فى بطن الوادى أو على جانبيه فكل الدلائل تنبىء عن وصولهم بعد قليل الى (رام الله) !

* * *

و (نعلين) قرية صغيرة جدا مقامة على مدرجات جانب التل، فوق الوادى المتصل بوادى (اللد) ، ويحف بالقرية الطريق العام . اما جانب الوادى من خارجها ففيه نبع صخرى يستقى منه أهل القرية ويسقون دوابهم وماشيتهم . وعن كثب منه بضعة من اشجار التين . اما حيث تنحدر الأرض الى مستوى الوادى تحت مدرجات التل فثمة مصاطب عريضة زرعت فيها خمائل من اشجار الزيتون .

.. وعلى هذه المحلة الصغيرة تدفق مائة الف تقريبا من الجياع العطاش المنهكين الذين اصابهم مس من الخبال لفرط ما قاسوه من مشقات الحر والظمأ ، وقد غص بهم الشارع الأوحد فى القرية فانقلب اشبه بنهر تسرى فيه موجة عريضة زاحفة متصاعدة كموجات المد ، قوامها اجساد بشرية يقطر

منها العرق . وفى نهاية ذلك الشارع — فى اعالى المدينة — وقفت تلك الحشود كأنها الجدار الصلب المتراص البنيان حول الينبوع الصخرى ، بحيث لم يجد المتأخرون موضعا لأقدامهم او فسحة من الأمل فى الوصول الى ذلك الهدف المنعش .

وقال انطون :

— قد تمضى ساعات قبل ان نقترب من هــذا الينبوع . فهيا بنا يا امين ندور حول نطاق القرية كى نصل الى طرفها الآخر ، عسى ان نجد هناك قلبا رحيما نطرق بابه فيقدم الينا كوب ماء بارد ولقمة نتبلغ بهــا .

وراحا يشقان طريقهما بين الحوارى والأزقة الضيقة ، ثم بين الأسيجة النباتية وصفوف نبات التين الشوكى. وصادفتهما فى الطريق جماعة صغيرة من الكلاب الهزيلة الضالة والقطط التى تتسقط فضلات الطعام من الطرقات . وفيما عدا هذا لم يجدا علامة من علامات الحياة . فقد نمى الى علم اهالى القرية نبأ سقوط (اللد) ففروا هاربين على طول الطريق الى (رام الله) .

وكانت ثمة حوانيت قليلة مفتوحة . ولكن اصحابها تركوها مفتوحة قبل هجرتهم لأنهم لم يجدوا مبررا لاغلاقها بعــد ان حملوا معهم كل ما كان فيها من شتى صنوف السلع .

وفى وسط هذا التيه من الأزقة والمنعطفات وصل الغلامان الى مخبز صغير معتم لا يكاد يزيد حجمه على حجم كهف من كهوف الجبال. وكانت رائحة انضاج الخبز تتصاعد من داخله. فهل ترى بقى الخباز بمفرده وتخلف عن الهجرة من تلك القرية المقفرة ؟

واطل انطون برأسه يخترق بنظراته العتمة التى بالداخل ، فرأى وهج التنور الأحمر ، وقد وضعت فوق سطح التنور من الخارج كومة صغيرة من ارغفة مبططة مستــديرة من نوع

الخبز الذى يأكله الفلاحون . ورفع انطون عقيرته بالنداء ، وانتظر ان يسمع ردا ، ولكنه لم يسمع شيئا ، فهل رحل الخباز الى غير رجعة ام انه بارح مخبزه بصفة مؤقتة ؟

أيا كان الجواب فان انطون لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه طويلا وقد ألفى امامه الخبز الطازج الساخن ، فتناول منه واكل واعطى صاحبه فأكل ايضا . وبعد ان شبعا غادرا المخبز ، وقال انطون لصاحبه الأعمى وهما يخرجان الى الزقاق الضيق :

— المهم الآن أن نعود ونعثر على الآخرين .

وفى طريق هبوطهما كانا يتحركان ببطء فوق الحصباء الخشنة ، رعاية لحالة أمين ، فالتقيا بجماعة صغيرة من الناس اقبلت نحوهما ثم تجاوزتهما . وكان أفرادها يحملون حزما ولفائف مما ينم على جلائهم عن القرية . **وانتاب انطون شعور اليم مفاجىء بالاثم اذ خطر له ان يكون صاحب المخبز احد هؤلاء الرجال .. وان يكون الخبز الذى التهم منه بضعة أرغفة كان معدا لزاد هؤلاء الناس فى سفرهم . وامتدت يده تتحسس الأرغفة القليلة التى دسها فى قميصه ليقدمها لأفراد أسرته** . ومع اعتقاده بأن ظنه صحيح فى الغالب الا ان ذلك لم يدفعه للتفكير فى رد الأرغفة . وكان امين قد خبأ عددا آخر منها فى قميصه مع شىء من قرون الخروب . وفزع انطون عندما رأى احد هؤلاء الرجال يقف ويتحدث اليه ويسأله من أى البلاد هما . فقال له انطون : « من (اللد) . لقد اتيت انا وصاحبى الى هنا لعلنا نجد احدا يتعطف علينا فيعطينا شيئا من الماء نروى به ظمأنا . ولكننا لم نجد أحدا ! »

فقال له الرجل : « معظم الأهالى رحلوا عن القرية هذا الصباح عندما وصلت اليهم الأنباء . ولكن اسرتى قررت المجازفة بالبقاء حتى المساء على ان نسير الى (رام الله)

فى انليل لأن الطرق كانت مزدحمة بألوف المهاجرين بالنهار » .
وغمغم امين قائلا : « ان شاء اللــه » . واستطرد الرجل يقول بمرح : « سنعود جميعا بعد بضعة أيام . عندما يتحرك الجيش العراقى لنجدتنا » .
ومرة اخرى قال الغلامان : « ان شاء اللــه » .
واسرع الرجل بعد ذلك كى يلحق بمرافقيه الذين لم ينتظروه .
والتفت الى الغلامين قائلا : « مع السلامة » .
فقال الغلامان : « مع السلامة » .
وشعرا بالارتياح لانصراف الرجل ، وقد زاد اعتقادهما بأنه هو الشخص الذى سرقا ما كان قــد أعده من الأرغفة لزاد أسرته ! .. وقال امين وهما يتعثران هابطين الأزقة المنحدرة : « حتى ان حرر الجيش العراقى فلسطين فلن نعود بعد بضعة أيام كما يقول هــذا الرجل . بل سيستغرق الأمر وقتا اطول من ذلك . ثم لعلنا فى النهاية لا نعود اطلاقا ! »
ولم يعلق أنطون على كلام امين . فقد كان اليهود منظمين تنظيما فائقا على حــد ما سمعه من حديث أبيه عنهم . اما العرب فلم يكونوا منظمين على الاطلاق .
ان كل ما يفكر فيــه الآن ــ أو بعبارة ادق كل ما يسمعه الآن ان يفكر فيه ــ هو العثور على والديه ، ثم الوصول بعد ذلك الى النبع . ثم ان يــده التى كانت قابضة مدى ساعات طويلة على يد امين ، تؤلمه الآن ، وهو يشعر انها لن تنبسط عن آخرها كما كانت من قبل .
وعندما عاد الغلامان الى الشارع الكبير ، وجدا ان الجمع الحاشد لم يزل يشدد الضغط حول النبع ، ولكن مؤخرة ذلك الجمع كانت قد تخلخلت بعض الشىء لأن الكثيرين أدركوا عقم محــاولة وصول الجميع فى وقت واحــد الى مصدر المــاء ، فتفرقوا وجلسوا او اضطجعوا تحت أشجار الزيتون او على

افاريز الشوارع مسندين ظهورهم الى جدران البيوت على الجانبين ، قانعين بالانتظار ، شاكرين الله على الأقل انهم لم يعودوا مضطرين للضرب على غير هدى فى هجير البرية المستعر ، بأقدامهم المتورمة بين الحصى والشوك . فهم الآن فى الأردن . فى ارض عربية . فى ذلك الجزء من الأردن الذى كان يوما ما يسمى فلسطين ، شأنه فى ذلك تماما شأن الأرض التى الى الغرب فيما بين ساحل البحر وصفوف التلال القاحلة .

جلس الناس يحملقون فى التلال . وكانت الشمس الغاربة قد صبغت صفحة الأفق من فوقهم باللون القرمزى . ومن وراء الأصيل راحوا يحملقون فى ظلام المستقبل الذى لم يتشكل بعد . وكان نفر منهم يبكون من الاعياء والقنوط . وفريق آخر كبير العدد جلس يحدق فى جمود ، هو بداية الجمود المعهود فى اللاجئين على نطاق واسع ، حيث لا يعرفون لأنفسهم مصيرا !

وراح انطون والغلام الأعمى يشقان طريقهما نحو المقدمة بوصة بوصة . وبعد جهد جهيد وصلا فى نهاية الأمر الى الماء ، فراحا يغترفان منه فى راحتيهما ويضربان به وجهيهما ويمتصانه امتصاصا ليرطبا حلقيهما الجافين ، باصوات عالية كأصوات البهائم عندما تشرب .. والناس من ورائهما ومن حولهما يدفعونهما طول الوقت ويجذبونهما الى الوراء .

وكانت الظلمة قد بدأت تخيم عندما غادرا النبع . وشرع انطون يشعر بالقلق على مصير والديه ، وعثر على مكان لأمين تحت أشجار الزيتون تركه فيه ثم انطلق يبحث متنقلا من شجرة الى شجرة ، متعثرا بين الحين والحين بالأجساد المستلقية على الأرض ، متلقيا اللعنات من أصحابها . واخذ يدقق النظر فى كل جماعة من الناس . ومنهم من كان يحسب

« انطون » متسولا فينتهره كما لو كان كلبا ضالا !

واستولى عليه فجأة فزع شديد من ان والديه ربما لم يصلا بعد الى (نعلين) . ومن يدرى ؟ لعل أباه قد خارت قواه ، وامه الآن جالسة بجواره فى مكان ما من الوادى . أو لعل الأسرة كلها لم تزل متخبطة فى البرية . ما كان ينبغى له أن يجرى بهذا الطيش نحو اشجار الخروب . وان شجرة الخروب لشجرة لعينة منذ القدم ، اذ يقال ان الأرواح النجسة تطوف حولها وتسكن قرونها . ولذعته فى جلد صدره الدافىء تلك القرون الصلبة الحادة وتلك الأرغفة المستديرة المسروقة.

وشرع الفتى المسكين ينتحب وقد نفدت حيلته ، وهو يتخبط على طول خمائل الزيتون ، شاقا طريقه فى العتمه بين الأجساد المقعية والمستلقية ، متنقلا من جماعة الى جماعة ، وقد بدأت شجاعته تتخلى عنه مع ازدياد شدة الاعياء وطوفان القلق والجزع .

وعندما قبضت على كتفه فجأة يد قوية ، صرخ فى ذعر وقد اعتقد ان شخصا شريرا سيلقى به على الأرض وهو يصب عليه اللعنة والسباب ! ... واذا به يفاجأ على الأثر بصوت مألوف يصيح به :

— الى أين تظن انك ذاهب هكذا ؟ لقد لبثنا ساعات طويلة نبحث عنك فى كل مكان !

.. وفى خضم موجة طاغية من الارتياح والسرور رفع عينيه ليملأهما من وجه عمه فريد . ثم هتف وهو يلهث :

— أوه !

وتعلق بيد عمه ، ولم يستطع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة ، لأن انفه بدأ ينزف دما مرة اخرى .

* * *

وكان الليل دافئا هادئا ساكن الريح ، لا تسمع فيه الا أصوات الجنادب التى لا تنقطع . واصوات ذلك العدد الكبير من الناس الذين يغطون فى نومهم الثقيل غطيطا مسموعا لأن الاعياء غلبهم على امرهم . وبين كل مسافة واخرى كنت تسمع نفرا قليلا من الساهرين يتحدثون بأصوات خفيضة . اما الأطفال فما أكثر ما ارتفع بكاؤهم فى جوف تلك الليلة .

وفى بعض الأحيان كان يسمع من العراء فى خارج القريه ومن جوف البريه عواء فظيع قصير يرسله ابن آوى . فتجيبه الكلاب من كل صوب بعواصف هادرة من النباح .

أما النائمون فكان منهم من استغرقوا فى الكرى وكأنهم لن يهبوا من سباتهم . ومنهم من راحوا يتقلبون كأنهم ينامون على جمر الغضى . ومن حول هؤلاء وهؤلاء أناس اسلمهم الارهاق الى الأرق ، لأن عبء الهم أثقل على نفوسهم من تعب السير الشاق ، فهم يحدقون فى أجساد النائمين عن كثب منهم فوق مدارج جانب التل ، متطلعين فى صبر نافد الى بزوغ الفجر من الأفق الشرقى .

ونامت « ماريان » . رقدت مستلقية على ظهرها فوق الأرض الصخرية وقد أنهك التعب قواها تمام الانهاك . ونامت «ماجدة» فى استغراق الى جوارها وقد تكور الطفلان الى جانبيها . أما ناديه فرقدت ساهرة تبكى وتتوجع وتتوجس . واستراح بطرس مستندا بظهره الى شجرة عتيقة عجراء وقد استولى عليه شعور بأنه لن يعرف للنوم مذاقا بعد الآن . وجلس انطون بجواره وهو يخشى أن يستلقى على الأرض حتى لاينتابه النزيف الأنفى مرة اخرى . وكان فريد قد حاول أن يظل يقظا كى يؤنس وحشة اخيه ، ولكن النوم غلبه فى النهاية على امره فاستغرق فى النعاس وهو جالس .

وحملق بطرس فى الخطوط الخارجية القاتمة للتلال البعيدة ،

وقال بصوت مرتفع وان لم يوجه حديثه الى احد على وجه التخصيص :

ــ لم يستطيعوا أن يقتلونا . لم يقتلوا منا الا الطاعنين فى السن فقط والصغار جدا . لقد اخرجونا الى البريه لنموت كالكلاب ولكننا لم نمت . اننا لم نزل هنا . معظمنا على الأقل ! ولكننا أصبحنا شعبا بلا وطن !

فقال انطون : « لعل الجيش العراقى سيسارع الى تحرير وطننا فيتسنى لنا عندئذ أن نعود اليه » .

ونظر بطرس الى التألق الشاحب الذى بدا فى محيا ولده الجالس بجواره ، ثم قال برقة : «ربما . ان شاء الله» .. ثم استطرد بعد برهة : « استلق يا بنى وحاول ان تنام فان علينا ان نشرع فى السير مرة اخرى بمجرد بزوغ النهار» .

فاستلقى انطون بجوار ابيه ، فسحق جسده شيئا من نبات الزعتر البرى كان على الأرض التى يرقد فوقها ، ففاح منه عطر . وأحس كأنه لم يزل قابضا بيده على يد امين ، وكأنه يحس بضغط يدى امين المتشابكتين ، يكاد يحس به فوق عظام كتفه !

وقال بالانجليزية فى لهجة تفيض سعادة :

ــ انتصرنا !

.. وبعد ان اطلق زفرة استرخاء صغيرة ، استغرق فى النوم .

❋ ❋ ❋

وكان اليوم التالى اقل فظاعة من اليوم الأول ، مع ان اليوم كان حارا .. ذلك ان اللاجئين لم يسيروا فى يومهم هذا فى السهل المنخفض ، ثم انهم يتقدمون فوق طريق ممهدة .. **أجل انها طريق مترية كثيرة الريح ولا نهاية لها ، الا انها طريق على كل حال . وقد جنبت الاقدام المتورمة المهراة**

عذاب شق طريق لهـا بين الأحجار والصخور . يضاف الى هـذا تخففهم الآن من الخوف وقـد صاروا فى أرض يسيطر عليها العرب . أما كم من الوقت ستبقى هذه الأرض فى أيدى العرب فهى مسألة تخمين ، ولكن ليست فى الجو طـائرات يهودية ولا على الأرض ما يدل على اقتراب كتائب يهودية . وكان مفهوما أن الفيلق العربى موجود فى (رام اللـه) .

وكان الناس قد بدأوا يتوجهون الى النبع الصخرى قبل ان ينبلج النهار . وما ان اشرقت الشمس فوق الأفق حتى كان الزحام حول النبع كثيفا . وقرر الكثيرون ومنهم آل منصور ان من المستحسن عدم تضييع الوقت فى محاولة الوصول الى المـاء ، بل الأفضل ان يشرعوا فى قطع المسافة قبل ان تشتد حرارة النهـار .

وسرعان ما تضخم الجمع الحاشد فوق الطريق حتى صار موكبا هائلا .. وبعـد مسيرة نحو ساعة ونصف شوهدت سيارتان مقبلتين من جهـة (رام اللـه) ، فتفرس بطرس بنظرة حادة وقد ضيق ما بين اجفانه ، ثم قال لزوجته ماريان التى تسير الى جواره :

— قد تكون احداهما لنا . فلا بد أن « خليل » بلغته انباء (اللـد) فى الليلة المـاضية .. فان كان البنزين متوفرا لديه فلا بد ان يكون قد ارسل سيارته لتاتى بنـا .

وتراجع النـاس على جانبى الطـريق عنـدما اقتربت السيارتان ، وكانت احداهما « بويك » سوداء كبيرة والأخرى « شيفروليه » كستنائية اللون . واخذت السيارتان تشقان طريقهما ببطء بين الجموع . ومضى بعض الوقت قبل أن تصلا الى جماعة آل منصور .. وعندئذ صاح بطرس :

— أحمد ! سائق خليل !

وكان فريد قـد عرفه ايضا فى اللحظة نفسها فصاح مثل

اخيه بسرور بالغ .. ووقف السائق ، وتكدست ماريان وماجدة ونادية فى المقعد الخلفى ، وجلس بطرس وفريد فى المقعد الأمامى بجوار السائق ، بينما تعلق انطون بالمؤخرة .. وصاحت ماريان تأمر السائق : « بسرعة ! والا فان الغوغاء سيحاولون الركوب معنا ! » .

وصاح انطون محتجا : « لا مكان لأمين ؟! »

وكان لم يزل قابضا على يد الغلام الأعمى فوق كتفه .

وقالت ماجدة بحزم : « أمين يجب ان ينضم الى بقية الخدم .. فاننا ان أخذناه معنا فلا بد ان نأخذهم جميعا ! »

فقال لها انطون : « ولكننا لا نعرف اين الآخرون » .

وكانت ماجدة قد تكلمت بالعربيه ، فقال امين بسرعة : « لا بأس . ان كل انسان هنا وجهته (رام الله) . وسيقبل اى واحد منهم ان يمشى معى » .

وحاول ان يخلص يده من يد انطون .. غير ان انطون زاد بها تشبثا وصاح فى اصرار : « ان أنت مشيت فكذلك سأمشى أنا ! » .

وصاحت به ماريان فى ضراوة وقد فطنت الى الوجوه التى اخذت بالفعل تتجمع عند نوافذ السيارة : « اركب ! تستطيع ان تحشر نفسك بيننا . ويستطيع امين ان يجلس على أرض السيارة تحت اقدامنا » .

وركب الغلامان ، وصفق الباب ، واستأنف السائق السير الى الأمام باحثا عن مكان يسمح له بالدوران . وكان عدد من الناس قد اخذوا يلوحون بقبضات ايديهم فى اثر السيارة « البويك » . اما السيارة « الشيفروليه » فمشت خلفها وهى فارغة لأن الذين ارسلت لتأتى بهم كانوا فيما يبدو على مسافة ميل او اكثر فى مؤخرة الموكب الذى لا ينتهى .

ووجه بطرس الى السائق هذا السؤال :

— كيف الحال فى (رام اللـــه) ؟
فأجابه السائق قائلا :
— حال فظيع ! فقد وصل اليها ألوف من اللاجئين فى الليلة الماضية ولم يكن فى المدينه ما يكفى لاطعامهم • وقد وزع عليهم الخبز من مخازن الفيلق العربى هـــذا الصباح • جلوب باشا هو الذى امر بذلك فيما يقولون •
فسأله بطرس : « أهو موجود هناك ؟ »
فأجاب السائق : « لا • انه فى القدس • ولكنهم اتصلوا به تليفونيا هناك • وكان النـــاس يرجمون العساكر بالحجارة بالأمس عندما جاءتنا انبـــاء استيلاء اليهود على (اللـــد) و (الرملة) » •
وكانت نبرة صوت السائق تدل على الرضى بمـــا فعلـه النـــاس بالعساكر • ولكن بطرس لم يعلق • فالمرارة كانت شديده الى درجه لا يتصورها العقل • لأن كل انسان كان يعتقد أن السيارات المسلحة الثلاث التى ناوشت طليعـــة الكتائب الاسرائيلية على مشارف مدينة (اللـــد) كانت طلائع القوة الزاحفة لتخليص المدينه من اليهود • ولكن هذه الآمال لم تتمخض عن شىء ، ولم يظهر من كتـــائب الفيلق العربى طابور واحد ، فاقتصرت المناوشات على مشارف المدينة • أما قوات اليهود فكانت متفوقة فى العدة والعدد • فماذا تجدى ثلاث سيارات مسلحة فى دفع غائلتهم ؟
كان بطرس يعتقد انه عندما يكتب تاريخ الحرب العربيـــة الاسرائيلية سيذكر فيها أن جنود الفيلق العربى كان من الممكن ان يقاتلوا ببسالة ضد قوات معادية تفوقهم عـــددا وعدة • واذا رجم الأهالى المدنيون المستنكرون العســـاكر العـــرب بالحجارة وحصبوهم بالحصى • فقد فعل المدنيون هذا وهم لا يعرفون شيئا بالبـــداهة عن المشكلات الحربية • وأحس

بطرس غصة شديدة لأن جرحا جديدا قاسيا قد أصاب الروح الفلسطينية التى اثخنتها الجراح من قبل ٠

ولما تسنى للسيارتين أن تدورا لتعودا صوب (رام الله) افسحت الحشود الطريق لهما على مضض واستياء ٠

وقالت ماريان لنفسها فى أسى يائس :

ـ انهم يشعروننا بالاثم لتمتعنا بهذا الامتياز عليهم ٠ ولكن هكذا كانت حالنا دائما ، وقد قضت اسرتنا عمرها كله محظوظة منعمة ٠

وشعرت بارتياح شديد عندما التقوا فى الطريق ببضع سيارات اخرى قادمة من (رام الله) ٠ وان كان اسطول كامل من السيارات لا يمكن ان يفى الا بنقل حفنة من عشرات الألوف من اولئك المنهكين المتورمى الاقدام ، الجائعين العطاش ، المتصببين عرقا والمنزوفين جهدا ودموعا ، ممن كان عليهم ان يواصلوا السير بمشقة وبطء فوق طريق تسفيها الرياح بعاصفة من الغبار الكثيف ، وهم يقتربون من نهاية سيرهم المنكود الى (رام الله) ٠

— ٥ —

ومن قبل وصول كتلة المهـاجرين الرئيسية من (اللـد) و (الرملة) كانت مدينة (رام اللــه) الجبليه الصغيرة مسرحا لمنظر عجيب ، لألوف المشردين الذين لا ديار لهم وهم يتدفقون فى شارعها الرئيسى الضيق باحثين عن الطعام والماوى .

وتحت كل شجرة زيتون فوق مدارج التل كنت ترى أسرة قد عسكرت هناك . وفى كل حديقة وعلى طول كل جدار أو سياج فى شوارع الحى السكنى التى تظللها اشجار الصنوبر كنت ترى خياما بدائية مصنوعه من الخيش القــديم وخرق الثياب المهلهلة لتأوى تحتهـا رجالا ونساء وأطفالا فتمنحهم احساسا وهميا بالملاذ .

وكان الهلال الأحمر المصرى قد نظم بالتعاون مع الشرطة والجيش توزيع الطعام والبطاطين والخيام . بيــد أن ذلك ((الخروج)) الكثيف الواسع النطاق لم يكن متوقعا من قبل وبهذه السرعة ، ولذا لم تكن الاستعدادات قد اتخذت لمواجهة مثل ذلك الطوفان . اذ كان الاعتقاد السائد على نحو ما أن (اللــد) ليس من المعقول أن تسقط فى ايدى اليهود . ولذا كانت الموئل الذى لجأ اليه الناس من المناطق المحيطة بهـا يلتمسون الأمان من عدوان اليهود وبطشهم . وكان بها حرس قومى قوى . وكل رجل من سكانها قادر على حمـل السلاح كانت لديه بندقية . وفى الوقت الذى كانت فيه ضجة المعارك تتصاعد قعقعتها من كل مكان حولها كانت (اللــد) نفسها آمنة وادعة ، والناس فيهـا يؤمنون بأن النجدات العربيـة سوف تصل عما قريب فترد الاسرائيليين على أعقـابهم الى

البحر . بل وتلقى بهم فى لجته فينتهى أمرهم الى غير رجعة . ولكن وا أسفاه . بدلا من الالقاء بالاسرائيليين الدخلاء الى قاع اليم كان الفلسطينيون هم الذين سيقوا سوق الأنعام صوب الشرق والقى بعشرات الألوف منهم فى لجـة البرية الرملية الصخرية ، لجـة العطش الذى لا ترويه قطرة ماء واحـدة !

وكانت (رام اللـه) هى التى تلقت الصدمة الأولى لهذه الكارثة الانسانية الكبرى ، فترنحت تحت وقع تلك الصدمة ، بيد انهـا ثابت الى رشدها سريعا وشرعت فى تنظيم جهودها لملاقاة هـذا الرزء الداهم . واقبلت سيارات النقل التابعة للجيش من عمـان التى تقع على مسافة بعيدة فوق التـلال القـاحلة فى الضفة الأخرى من وادى الأردن الكبير ، اقبلت محملة بأكياس الدقيق . وكانت مكبرات الصوت فى الشوارع تقوم بتوجيه الناس الى مراكز التوزيع . وسرعان ما تحولت مدرسة الأصدقاء الأمريكيين للبنين ببنيانها الكبير الى مستشفى مؤقت وعيادة لعلاج المرضى والجرحى الذين تمخض عنهم هذا « الخروج » الفظيع ، ولرعاية الأطفـال الكثيرين الذين جاء أمهاتهم المخاض قبل الأوان فى تلك المسيرة الرهيبة ، فتعرضت حياة أولئك الأمهـات المنهكات لحمى النفاس بمضاعفاتهـا الوبيلة جميعـا !

وهاجم الناس خمائل الزيتون والبساتين والكروم للحصول على أخشاب يشعلون بها نيرانهم . ومن الطبيعى ان اصحابها تأذوا الا انهم استنجدوا بكرم الضيافة العربى المأثور ليتجلدوا ويقولوا للنـاس باسمين :

ــ تفضلوا . الدار داركم !

اذ كيف يمكن لأحد أن يرد هؤلاء الجياع المحرومين المشردين خائبين ؟ ان أمم العـالم قـد اصدرت قرارا جائرا باعطـاء

وطنهم لليهود ، وها هم اليهود قد وضعوا اياديهم عنوه على ديارهم وأراضيهم . فليكن الله فى عون تشردهم وجوعهم . وكل من بيده شىء فى (رام الله) كان يبيحه اياهم قائلا :

ـ تفضلوا !

* * *

وأخذت السيارة الكبيرة البويك السوداء تشق طريقها فى الشارع الرئيسى المكتظ بالناس فى المنطقة السكنية الراقية حيث تلقى أشجار الصنوبر ظلالها . وتحت كل شجرة منها معسكر مرتجل لايواء حفنة من اللاجئين بصورة او بأخرى . وكان « خليل داود » قد بعث بهذه السيارة يقودها سائقه الخاص فى ساعة مبكرة من هذا الصباح على أمل ان يعثر السائق على أصهاره وهم شقيقا زوجته بطرس وفريد منصور وزوجتيهما وسائر افراد اسرتيهما فى المرحلة الأخيرة من تلك المسيرة الطامية .

وعندما وقفت السيارة أمام بوابات فيلا داود القائمة بمنجاة من الطريق العامة فى نهاية حديقة مترامية حافلة بالأشجار المزهرة وبساتين الفاكهة ، أخذ الناس المتناثرون تحت مظلات من الخيش القديم مثبتة فى قضبان سياج الحديقة ينظرون اليهم بغيظ وحرد . كانت نظراتهم تقول بأجلى بيان :

ـ هؤلاء حقا هم المحظوظون ، لأنهم قطعوا جزءا على الأقل من مسيرة الخروج بالسيارة ، ولهم هاهنا بيت وأسرة يلجأون اليهما ...

وخليل داود رجل وسيم طويل ذو بشرة شقراء ، ارستقراطى المظهر ، يتحرى الرسميات فى سلوكه حتى ان من لا يعرفونه عن كثب كانوا يعتقدون انه فاتر بارد الطبع ، فى حين انه كان فى الواقع رجلا على جانب كبير من كرم الخلق والسخاء والرقة الفطرية .

وهو من كبار ملاك الأراضى وذو ثروة طائلة . وزوجته « منى » لها محاسن آل منصور وسحرهم . وفيها شىء من سرعة الغضب التى يتصف بها شقيقها الأكبر بطرس . ولما كان خليل مسلما فقد استاء رؤساء الأسرتين فى البداية أعمق الاستياء لعقد ذلك الزواج ، فيما عدا بطرس الذى كان فى تلك الفترة زوجا مهجورا ، لأن زوجته الأولى التى كان متزوجا منها فى ذلك الوقت كانت قد فرت مع رجل اصغر منه سنا .. وفيما عدا فريد الذى كان ملحدا متمردا مع انه متزوج من امرأة متدينة يصل تدينها الى درجة الايمان بالخرافات والخزعبلات ، على طريقة ايمان العجائز .. وقد طرب خليل داود عندما رأى بطرس وقد قارب الخمسين من عمره يصيب شيوخ الأسرة بصدمة عنيفة أخرى عندما تزوج من امرأة انجليزية اصغر منه بعشرين سنة الا انها تعتبر من وجهة نظر اولئك الشيوخ المتزمتين عجوزا ، ثم هى فوق هذا وذاك اجنبية .

وكان انطون يشعر بشىء من الخوف من آل داود ، أى من زوج عمته خليل ذى المظهر المتعالى ، ومن عمته « منى » بابتسامتها ودماثتها التى تشوبها فجأة ثورات غضب ، ومن البنات الأربع بنات عمته ، وكانت صغراهن تقاربه فى السن ، اما كبراهن ففتاة كبيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، لها نظارة ذات اطار ، ويوحى مظهرها ولهجتها بأنها تعرف كل شىء فى الدنيا ولا تطيق ان تشغل نفسها بأى انسان ليس فى مستواها العلمى !

وكانت زوجة بطرس الانجليزية ماريان تميل الى زوج أخت زوجها — خليل — ولكنها ترى « منى » متعبة ، وترى بناتها غير جذابات بصورة واضحة ، رغم ما يتمتع به والدهن من

جمال الشكل الملحوظ. ومن الممكن ان يظنهن الناس انجليزيات — فيما تعتقد — بسبب لون بشرتهن الأشقر ، وأسلوبهن غير المبالى ، وعدم لباقتهن فى التصرف امام الناس !

أما بطرس فكان يحب اخته « منى » ويغفر لها ما ينتابها من هياج وغضب ، لأنه يعرف فيها النسخة الأنثوية من ذاته. ولم يكلف نفسه عناء محاولة فهم خليل ، الا انه كان يتحرى احترامه ، لثرائه الطائل وارستقراطيته ، فهو من المؤمنين بما للعائلات العريقة من مكانة مرعية . ولا سيما ان هذا الثرى الارستقراطى زوج اخته .

وأقبلت « منى » تجرى بأسلوبها المندفع لترحب بهم ، ومن ورائها اقبل خليل فى اناته وتصلب قامته وهيبته وجلاله ، الا أن ذلك لم يمنعه من تقبيل صهريه فوق الخدين ، ومن تقبيل يدى المرأتين ، ومن تربيت خدى انطون باعزاز تربيتا هينا . وتعالت من الجانبين صيحات الترحيب والتأهيل والتأسى والاستفسارات ، ثم سار الجميع فى موكب صغير تحت « برجولا » تعرش فوقها أعواد نبات « الجهنمية » صوب الفيلا البيضاء المكللة بالنباتات المتسلقة الخضراء ذات الأوراق التى تشبه أوراق الكرم .

وارتقوا جميعا الدرجات الرخامية البيضاء الى شرفة واسعة تناثرت فوقها المناضد والمقاعد فى تنسيق بديع ، والقى آل منصور بأجسادهم على تلك المقاعد ، وجىء اليهم بالمشروبات المثلجة . وأخذت احدى الخادمات طفلى نادية لتمضى بهما الى مكان آخر ، وأرادت ان تأخذ معها امين ايضا ، ولكن انطون اصر على بقائه معهم ، وقال فى تبرير ذلك الاصرار :

— انه صديقى .

فسألته عمته منى : « وأين اسرته ؟ »

فبادرت ماريان قائلة بسرعة :

« .. واقبلت « منى » تجرى باسلوبها المندفع لترحب بهم .. »

ــ سيصلون فيما بعد . وهم يعلمون أين نحن . فهم فى خدمتنا . دعيه مع انطون الآن ، فقد سارا معا متلازمين طول الطريق .

وعندئذ وضع خليل داود يده على ذراع الغلام الأعمى وقال له بحنان واضح :

ــ مرحبا بك . أنت هنا فى دارك .

فقالت ماريان :

ــ نحن جميعا فى حاجة الى الاستحمام .

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة فجأة وبلا سبب .

* * *

ولم ينم نوما عميقا من بين جميع نزلاء بيت داود فى تلك الليلة سوى بطرس وحده الذى أنهكت قواه تلك المسيرة الشاقة وسهره طول الليل فى العراء فى الليلة الماضية على مدارج التل فى مشارف قرية (نعلين) . وبلغ من عمق نومه أن غطيطه العميق الرنان نفذ الى سمع ماريان التى رقدت مؤرقة العينين فى الحجرة المتصلة بحجرته ، فزاد ذلك من توتر أعصابها .

اما نادية فرقدت مع طفليها فى حجرة اخرى ، وراحت تتساءل طول الليل متى عساهم يفرجون عن « نصرى » الذى احتجزه الاسرائيليون ، ومتى عساه يصل الى (رام الله) . **وهل تراه فى ثورة العار والغضب حريا ان يقتلها عندما يعلم ما وقع لها ، أم ان الأحرى بها ان تقتل نفسها قبل عودته حتى لا تواجهه بمذلتها ؟ !**

وكانت هذه الأفكار تنتابها طول الليل وتتخللها ومضات من الرجاء تتخيل فيها أن عودة نصرى قد تأخرت الى ان يقدم لها مرور الزمن الدليل الحاسم على انها لا تحمل فى أحشائها ثمرة ذلك الفعل الفظيع الذى وقعت جريرته عليها ، وأن

نصرى لا حاجة به الى أن يعلم شيئا عن تلك المصيبة برمتها .

بيد ان الخوف كان يلقى ظلاله القاتمة دائما على تلك الومضات من الرجاء . وقد حاولت أمها وحاولت ماريان ان ترفها عنها قائلتين انه اذا تبين انها حامل فان نصرى وأباها حريان ان يذهبا معا الى طبيب فلسطينى فيخبراه بما حدث ويطلبان اليه أن يجهضها . وما من طبيب فلسطينى يسعه فى هذه الحالة ان يرفض هذا الطلب الانسانى والوطنى فى هذه الظروف .

ولما أغلقت عينيها تراءت لها مرة اخرى صورة وجه ذلك اللبنانى الأمريكى اليهودى الشاب وهو يضحك مزهوا بانتصاره الوضيع عليها ، فجعلت تقلب رأسها فوق الوسادة من هذا الجانب الى ذاك الجانب وهى تئن من عذاب نفسى مستعر .

وفى الحجرة الملاصقة لحجرتها رقد والداها . وهما أيضا لم يغمض لهما جفن طول الليل . لأن ماجدة أفضت بالنبأ الفاجع الى فريد بعد أن أويا الى حجرتهما .

وقالت ماجدة تستحث زوجها على السكوت عما أصاب ابنتهما :

— ان لم يصل نصرى الى هنا فى وقت قريب جدا فقد يتضح لنادية أن كل شىء على ما يرام . وفى هذه الحالة لا حاجة بنصرى الى ان يعرف شيئا عن هذا الموضوع اطلاقا . فلماذا نسبب له عذابا لا ضرورة له ولا مبرر فى هذه الحالة ؟ وبعد عشرة ايام تقريبا ستكون نادية قد عرفت كل شىء .

فقال فريد بوجوم :

— يحسن اذن أن تصلى لله بحرارة كى لا يعود نصرى قبل ان تكون نادية متأهبة لاستقباله وقد ثبت أن كل شىء على ما يرام . ولكن اذا عاد قبل أن نعرف على وجه اليقين

أهى حامل ام لا فمن الخير فى هـذه الحـالة ان يقوم خليل بابلاغ الأمر اليـه !

فقالت له ماجـدة بشىء من الدهشة : « ولمـاذا خليل بالذات ؟ لمـاذا لا يقوم باخبـاره بطرس باعتبـاره رأس الأسرة ؟ » .

فأجابها قائلا : « ان بطرس سيجد هـذا الموقف مزعجا له ازعاجا يتجـاوز طاقة احتمـاله . أما خليل فهـادىء بارد الأعصاب ، على الصورة التى تنبغى لمحام أو طبيب يعـالج الأمور معالجة موضوعيه . فمن الخير أن يتلقى نصرى الخبر منـه .. » .

ورقدا على ظهريهما فى الفراش الواسع ، وقد مد كل منهما ذراعيه بمحاذاة جنبيه مسترخيين ، لاراحة اقدامهما المتورمة وقـد وجدا فراشا يرقدان عليه بدلا من جانب التل الصخرى الذى أرقهما فى الليلة السابقة . فالاستلقاء على الظهر صار فى حـد ذاته نعمة . وكانت النعمة حرية أن تكتمل لولا ذلك القلق الموجع الذى تثيره نادية . نعم لولا هذا القلق لاستطاعا أن يستغرقا فى النوم بكل سهولة بعـد طول العناء . ولكن التفكير القاتم أبقى عيونهما مفتوحة تحملق فى الظلام . وكان فريد يغفو بين حين وآخر ، بصورة متقطعة ، أما ماجدة فكانت كلما هومت للنوم انتبهت مذعورة وهى تخال انها سمعت نادية تنتحب فى الحجرة المجاورة .

وفى مؤخرة البيت ، فى حجرة تطـل من الطابق الأول على حديقة بهـا نافورة واشجار برتقال صغيرة ، استلقى خليل فى الفراش وقد عقد يديه تحت رأسه ووجهه صوب ضياء القمر فى الخارج . وكانت اشجار الياسمين تحدق بفروعها اللدنة بالنافذة وتفعم هواء الليل الدافىء الساكن بعبيرها الفواح ، وأصوات زيزان الحصاد ـ تلك الحشرات الصغيرة الشفافة ـ

تنساب فى الظلام آتية من بعيد .

وكانت منى جالسة بجواره متكئه على عدد من الوسائد وهى تدخن سيجارة ، ووجهها أيضا صوب النافذة وضياء القمر . وكانا قد تناقشا بالفعل فى كارثة نادية مع بقية الأسرة ثم فيما بينهما ، فلم يبق مجال لمزيد من الكلام فى هذا الخصوص . لأنه اذا تمخض الموضوع عن أسوأ احتمالاته فلدى خليل صديق حميم من الأطباء الفلسطينيين ، وهو واثق انه سيضع حدا لذلك الحمل السفاح . وخليل ايضا سيتحدث الى نصرى عندما يصل بعد اطلاق سراحه ، ومن المؤكد انه لن يشعر الا بالرثاء لحال زوجته المسكينة .

لقد زلزل كيانهما وانزعجا غاية الانزعاج لذلك الحادث الوخيم ، ولكن ثمة مسألة أولى بالنظر والبحث عن حل لها . فالسؤال الآن هو : هل من المنتظر أن يهجم اليهود على (لطرون) بعد أن احتلوا اللد والرملة ؟

ولطرون تقع عند تقاطع طريقين أحدهما يفضى الى رام الله ، والآخر يفضى الى القدس . ويقال أن قوات من الفيلق العربى لم تزل فى لطرون . ولكن بدأ يتضح للناس ان قوات العرب تواجه فى كل مكان قوات من العدو تفوقها عددا بكثير .

وسقوط لطرون معناه أن الطريق صارت مفتوحة الى رام الله . ورام الله قد صارت الآن مكتظه الى اقصى حد باللاجئين . فهل سيقع خروج آخر ، وجهته فى هذه المرة مدينة (أريحا) التى تقع على انخفاض ١٢٠٠ قدما تحت مستوى البحر ، والحر فيها لا يتصوره العقل فى شهر يوليه ؟

هل سيكتب عليهم جميعا — آل داود وآل منصور — أن يبادروا بالخروج من البلد الآن ، منتهزين فرصة خلو الطريق فى الوقت الحاضر ؟

ان بطرس يمتلك بيتا هناك يتسع لهم جميعا . وكانت منى في حالة عصبيه سيئة بعد الحكايات المؤلمة التى سمعتها عن الهجرة من اللد ، ثم أن القلق ساورها بخصوص بناتها الأربع . وكان من رأى بطرس انهم ينبغى ان يبادروا الآن بالمسير الى اريحا . ففى عزمه ان يتوجه الى هناك مع ماريان وانطون فى الغد اذا وجد أن الجميع قد ظفروا بكفايتهم من الراحة .

واشار خليل اشارة تدل على نفاد الصبر وقال :

— بطرس متقدم فى السن . وقد نالت من أعصابه تلك التجارب التى مر بها . أن اللد والرملة سقطتا فى يد اليهود لأن احداً لم يحاول الدفاع عنهما . أما منطقه لطرون ففيها قوة كبيرة من الفيلق العربى . وسيكون أمامنا متسع من الوقت للنزول الى أريحا فى حالة سقوط لطرون . وان كنت لا اعتقد انها ستسقط .

واشاح برأسه . وكان ضوء القمر يسقط مباشرة على وسائدهما ، فاستطاعت « منى » أن تراه يبتسم ابتسامته اليسيرة المستهينة ، ثم قال لها :

— لماذا كل هذا القلق ؟ انك تؤكدين انك تؤمنين بالله ، فلماذا لا تثقين به وتكلين الأمر اليه ؟ ان الله رحيم بالعباد لطيف بهم . أليس كذلك ؟

ومد اليها يده واردف قائلا :

— لماذا لا ننام قليلا ؟

فأطفأت سيجارتها ورقدت بجواره ، ثم عابثته ببضع كلمات ووضعت رأسها على كتفه واحاطت جسده بذراعها ، فلم يتكلم ولم يتحرك ... وسرعان ما استغرقه النعاس .

وكانت منى تحسد زوجها خليل على ما يتمتع به من هدوء فى عقله وجسده . وقالت لنفسها :

ــ نحن آل منصور عصبيون لا يقر لنا قرار . ونعتز بأننا مسيحيون كأنما ذلك حجة ناهضة على مزية خاصة فينا ، مع ان المسألة كلها لا تعدو ان تكون صـــدفة ناتجة عن الولادة لأبوين مسيحيين . فالأمران فى النهاية سيان . وكلنا عرب ، والدين للديان .

ولكن خليل ليس شديد الايمان بالدين . ويؤثر ان يكون ضميره الشخصى هو مرشده والرقيب عليه . ولكنه بحكم تربيته وعاداته عربى مسلم .

واخذ الكرى يداعب اجفان «منى» بعد التفكير قليلا فى تلك الخواطر ، وفى العداوة التى ينقم بهـــا اليهود على المسلمين والنصارى على السواء ما داموا عربا .. ولمــا استيقظت فى الصباح وجدت خليل قد نهض منذ بزوغ النهار كالعادة وغادر الحجرة ، فضغطت على الجرس فأتتها الخادم بالقهوة التركية . وقبل ان تفرغ من تناولها الفت ماريان واقفة بجوار فراشها يبدو عليها الانتعاش وهدوء الأعصاب بصورة مذهلة . وكان ثوبها قد غسل اثناء الليل . وقالت لها ماريان ان بطرس مصر على الهبوط الى اريحا . وانه قد اتصل بالفعل تليفونيا ببيته هناك . وان خليل قد امر السائق احمد ان يقوم بتوصيلهم .

— ٦ —

كان الذهاب من بلد يرتفع فوق مستوى سطح البحر بمقدار الفين من الأقدام الى (اريحا) التى تنخفض عن مستوى سطح البحر بمقدار ۱۲۰۰ قدما ، فى حرارة اواسط شهر يوليو ، عملا اعترض عليه الجميع — فيما عدا ماريان — ووصفوه بالجنون ، اذ لماذا يهبط اناس مالكون لقواهم العقلية السليمة من جو التلال العالية المنعش الى جوف ذلك الجحيم الصحراوى ؟

وراحت ماريان ترد على هذه الحجة باصرار قائلة ان نشدان راحة البال ليس عملا جنونيا ، ولا سبيل الى راحة بال بطرس فى (رام الله) التى تقع على الطريق الرئيسية المباشرة من (لطرون) المهددة باحتلال اليهود لها ، هذا فضلا عن اكتظاظ شوارعها باللاجئين . وزادت ماريان على ذلك ان بطرس قد عانى من العذاب ما فيه الكفاية . وايدت قولها هذا بالدموع التى جالت فى عينيها من فرط ما منيت به شخصيا من الاعياء العصبى والجسدى . فلئن كانت (اريحا) بجوها القائظ هى ما يصبو اليه كى تطمئن نفسه ، فمن الواجب ان يذهب الى هناك ، ومن الواجب ايضا ان تذهب الى هناك معه زوجته وابنه .

بيد انها كانت تعلم ان ذلك ليس كل ما فى الأمر . اجل ان حالة الانهاك التى يعانى منها حقيقة واقعة . وحقيقة واقعة أيضا انه لا يشعر بالأمان فى (رام الله) ، وانه يجفل اشد الاجفال من مجرد احتمال تعرضه لمحنة اخرى على يد الاسرائيليين ..

وحقيقة واقعـــة ثالثة ان جو (رام الله) بكل من تغص بهم من خليط اللاجئين ، بتعاستهم وضياعهم ، كل ذلك ثقيل الوطأة على اعصابه.. ولكن ما هو اهم من تلك الدوافع كلها رغبته بل حاجته الماسة الى الهرب من لقاء الناس .

لقد امضوا الأسابيع الأخيرة فى بيتهم باللد وهم يعيشون ليل نهار محوطين بأناس مروعين جزعين قلقين ، ما بين اقارب واصدقاء وغرباء عنهم تماما جاءوا كلهم يلتمسون المأوى فى البيت الكبير ، فعاشوا جميعا فى جو الخوف ، ملتصقين بعضهم ببعض ، يسيطر عليهم توتر مستمر .

وكأن الاسرائيليون يطبقون على المدينة فى فترة الأيام الأخيرة، ولا يفارق اذهان آل منصور الفزع الرهيب مما حدث فى (دير ياسين) منذ بضعة اشهر فقط ، حينما اعد اليهود مذبحة شائنة شملت القرية كلها على ابشع صورة ممكنة. وظلت هذه الصورة تلح على مخيلة الناس ، فما حدث على بعد بضعة اميال من القدس ، من الممكن ان يحدث فى مدينة (اللد) العزلاء ! ..

ولقد اوشك العبء العصبى لتلك الأيام الأخيرة فى (اللد) ان يتجاوز طاقة الاحتمال البشرى ، والناس موزعون بين الخوف من المذابح وبين القصف المستمر بالقنابل وبين اصوات الطلقات النارية ..

حدث كل هذا والناس فى بيتهم متلاصقون ، فلا مجال لاختلاء المرء بنفسه كى يبكى او يصلى او ينفس عن عواطفه ببثهـا لمن يحب . وهــذا الحرمان من الخلوة اشد وطأة على بعض الناس مما هو على بعضهم الآخر . وبطرس ممن كانت هــذه الحالة بالنسبة لهم عذابا لا يحتمل .

ومع ان مجموع الناس فى دار خليــل اقل من اثنى عشر شخصا ، وكلهم من خاصة اهل الأسرة الأقربين ، الا ان بطرس كان يحس مع ذلك ان عددهم اكثر مما ينبغى . وان التوتر

اشد مما يطيقه . فلم يسبق قط ان كان الاتصال بينه وبين زوج اخته حميما او مستمرا على هذا النحو ، والفتيات الأربع — بنات اخته — كن يزعجن اعصابه بكثرة ضحكهن المجلجل. اجل . كل انسان وكل شىء كان يزعج اعصاب بطرس ، فيما عدا زوجته وابنه . وكان يريد — بل انه بعبارة ادق كان بحاجة الى — ان ينفرد بهما. وكل ما تسببه حرارة (اريحا) من التنغيص لن يكون شيئا مذكورا فى نظره : **فأريحا بلد يأمن فيه على نفسه وذويه . وهى ليست غاصة بضحايا الارهاب اليهودى الغاصب من اللاجئين المشردين . وفى اريحا سوف يكون فى مقدوره ان ينعم بالهدوء والوحدة مع الشخصين الأوحدين اللذين يشعر حقا انهما يعنيانه من كل قلبه .**

كانت ماريان مدركة لهذا كله ، لأن هذا الحل كان يوافق حالتها العصبية المرهفة . وانها لتعلم ان الحر فى اريحا لا بد ان يكون قاسيا جدا ، ولكنهم فى الوقت نفسه سيشعرون بالأمن والطمأنينة ، وستسترخى اعصاب بطرس ، وسينعمون ببركة العزله .

اما انطون فانه شعر بارتياح عندما علم انهم سوف لا يبقون فى (رام الله) . فهو ايضا لم يشعر بالأمان هناك . فهو لم يكن على سجيته قط مع اقاربه من آل داود . ثم ان بيتهم فى اريحا يعتبر بمثابة دار ثانية لهم ، وفى وسع امين ووالديه ان يهبطوا معهم الى اريحا ليكونوا بمثابة خدم لهم ، وبذلك يظل هو وامين متلازمين . وسوف لا تبدأ الدراسة بالنسبة لكليهما قبل اواخر سبتمبر . وحتى ذلك الحين من يدرى ماذا سيحدث ؟ ربما يكونون قد عادوا الى موطنهم فى (اللد) ، هم وبقية هؤلاء الناس جميعا ..

واستقر رأى بطرس على سلوك طريق الوادى الى اريحا ، وهى طريق من الدرجة الثانية ، وعرة ، ضيقة ، صخرية فى

بعض مواضعها . يضاف الى هذا انها كثيرة المنعطفات ، ولذا تستغرق مدة اطول . الا ان الطريق الرئيسية الجيدة تخترق قلب مدينة القدس ، وثمة معارك ناشبة فى المدينة القديمة . واليهود يستخدمون فى تلك المعارك قذائف المورتار الثقيلة . ومن ثم لم يكن من الممكن لأى شىء فى الدنيا أن يغرى بطرس باختراق القدس ، وان كان فريد – الذى قرر البقاء فى رام الله – يجادله فى ذلك قائلا ان وجود الفيلق العربى هناك سيكفل لهم حمايه اعظم مما يمكن ان توفره لهم تلك الرحلة فى صميم الريف . وكان الطريق الى اريحا لم يزل مفتوحا ، اما هناك فى الوادى فمن الجائز ان يحدث لهم اى شىء !

ورد عليه بطرس قائلا ان اى شىء يمكن ان يحدث فى اى مكان . هذا صحيح ، ولكن الأخبار تتواتر بأن القنابل تصب على مدينة القدس بلا انقطاع ، وان اليهود متربصون فى كنيسة «نوتردام» ومعهم المدافع الرشاشة يطلقونها على الناس من نوافذ الكنيسة . وانها لمصيبة ان يفلتوا من الخروج الكبير المهلك فى اللد كى تصرعهم المدافع الرشاشة او شظايا القنابل فى القدس . اما فى الوادى فليس من المنتظر ان يلتقوا بأى انسان سوى اللاجئين من البدو .

وتنبأ لهم خليل بأنهم سيعودون بعد اسبوعين او ثلاثة الى رام الله فى طريقهم آيبين الى بيتهم فى اللد ، وقال بلا مبالاة :

– لأننا سنكون قد القينا باليهود الى البحر .

فافتر فم بطرس عن ابتسامته الهينة التى يمتزج فيها الأسى بالحزن ، واجابه قائلا :

– اراك تتحدث كما لو كانت لدينا جيوش قوية تحت تصرفنا؟ مع انه لم يكن لدينا من القوات مانبعث به لحماية اللد والرملة!

فقال له خليل : « لم يكن لدى الفيلق العربى عدد كاف من القوات ، ولكن العراقيين لم يدخلوا هذه المنطقة بعد . »

فأجابه بطرس : « اتمنى على اللـــه أن يصلوا فى الوقت المناسب . »

وغضبت منى ، لأن بطرس كان فيمـــا يبدو حريصا على مخالفة خليل فى الرأى على الدوام ، وقالت بحدة :

ـــ ان هذه الروح الانهزامية لن تساعد على حل الأمور !

فأجابها أخوها باسما :

ـــ من الخير دائمـــا أن يكون المرء واقعيـــا فى نظره الى الأمور ..

وصاحت ماريان وهى تحاول يائسة أن تكون على الحياد ، كما ينبغى لضيفة مهذبة :

ـــ ومن أين لأى واحد منا ان يدرى ؟ العسكريون وحدهم هم الذى يعلمون مكان القوات ، ومدى استطاعتها !

لقد كان من المجدى حقا لراحة اعصابهم أن يرحلوا بعيدا عن بيت آل داود ، وعن (رام اللـــه) الغاصة بالخلق عن آخرها .

❊ ❊ ❊

وبعـــد الخروج من البلدة درجت الطريق على طول الحافة العليا لخور عميق يقع بين التلال العالية ، فصار فى وسعهما أن ينعما بشىء من استرخاء الأعصاب .

وكانت التـــلال والوادى من تحتها مكسوة بالخضرة ، وفى الوادى مواضع متناثرة من الحقول المزروعة . والأغنام ترعى نباتات يانعة يطلقون عليها البرسيم الحجازى .. وهنا وهناك مربعات أنيقة بها بساتين التفاح والبرتقال ، تجرى بينهـــا جداول المـــاء النمير . وكان الوادى كأنه يشدو طربا بمـــا فيـــه من خضرة خصبة ، ولكن هـــذا الشدو انتهى بانتهـــاء الوادى .

واخذ الطريق بعد ذلك يتلوى هابطا الى ان انداحت الأرض كلها من حوله وغدت صحراء مترامية تحف بهــا تلال جرداء منخفضة بنية اللون ، حيث لا ماء ولا زراعة . وبعد أن مروا بمعسكر صغير منعزل من معسكرات البــدو كان كأن خيامه المنخفضة مصنوعة من شعر المــاعز الأسود تحتضن الرمل ، لم تعد ثمة علامة واحدة من علامات الحياة .

وأحس انطون قرقعة فى صماخ اذنه بسبب الانحدار الشديد الذى هبطوه ، فسأل : ((**هــل وصلنــا الى مستوى سطح البحر ؟))**

فقال له أبوه : ((**لا . ان الطريق الى اريحا لم تزل طويلة يابنى))**

وشعر بطرس ايضــا بالضغط الناجم عن الهبوط ، ولكن روحه المعنوية كانت فى صعود . وانزل زجاج نافذة السيارة شوطا آخر ، لأن الحرارة كانت قد غدت الآن شديدة الوطأة . وراح يحملق من النافذة فى البرية القائظــة ذات اللون البنى المصفر ، ثم التفت الى ماريان باسما وقال لها فى سعادة :

ـ لا أثر هنــا للنــاس ..

فردت على ابتسامته بابتسامة مثلها ، ووضعت يدها برهة فوق يده المتشبثة بمقبض عصاه الفضى وقالت :

ـ لقد اصبنا بالمجىء الى هنــا .

فقال لهــا : ((لن يكون الجو هنا أشد حرارة من الجو فى (اللــد))) .

فأجابته مستدركة : ((كل ما هناك ان الهواء سيكون أقل ، لعدم وجود نسيم البحر)) .

وعنــدئذ لاذ كلاهما بالصمت ، وشغلا بالتفكير فى الشريط الساحلى الطويل الممتد على البحر الأبيض المتوسط من عكا الى يافا ، وهو الساحل الفلسطينى الذى يبدأ منــه السهل

انكبير بكل ما فيه من بساتين البرتقال حتى التلال التى تتوج هامتها القدس .

أما الآن فلم يعد ثمة فلسطين . وهـذا الساحل اضحى ساحل قطر جديد اقتطع من الوطن القديم . وهـذا القطر الجديد اطلقوا عليه اسم « اسرائيل » . فلا ذهاب بعد اليوم الى الشاطىء فى حر الصيف ان كنت فلسطينيا . فليس أمام الفلسطينيين الا الملح الأجاج فى البحيرة المعروفة باسم « البحر الميت » ، وهو بركة تخلفت عن انحسار البحر عن تلك الأرض منذ زمن سحيق جدا .

وتراءى البحر الميت على البعد وقد استنزفت الحرارة الشديدة كل ما كان له من اللون، مثلما استنزفت لون السماء.. تراءى عبر مشهد من الأرض « سيريالى » يحفل بأشكال غريبة منحوتة فى الرمل المتماسك المتصلب .. وانه لمشهد من مشاهد الأحلام ! ها هو هذا البحر الميت جاثما هناك ، ساكنا ، كأنه البحيرة المتالقة ، بين جبال (موآب) الداكنة السمرة وبين طيات التلال من الجانب الآخر .

ورنا بطرس الى البحر الميت فى ارتياح ، لأن ظهوره دليل على انهم قد صاروا غير بعيد من أريحا . واريحا هى المكان الذى يتلهف على الوصول اليه . أما ماريان فرنت الى ذلك البحر باعزاز ، لانه مقترن فى ذهنها بالمرحلة الرومانسية القصيرة من حياتها ، وانها لذكرى اثيرة لديها جدا . واما انطون فنظر الى ذلك البحر الميت بسرور ، وهو يفكر فى اقامة المعسكرات على شاطئه مع أمين ، ونزولهما للطفو فوق مياهه الساجية فى الليالى القمراء . ثم انحنى فوق ظهر المقعد ليخبر الغلام الأعمى أين هم الآن ، وصاح بعد ذلك فى حبور : « سنحظى باوقات هنيئة مرحة ! فالبحر الميت على الأقل ملك لنا لا ينازعنا فيه احد ! »

فقال له أبوه مصححا معلوماته : « بل هذا الجانب منه فقط ، والشاطىء الشرقى على امتداده ايضا » .

فزمجر والد أمين وقال : « ومن ذا الذى تهفو نفسه الى هذا البحر الراكد العفن ؟ كان خيرا لنا لوبقينا فى (رام الله) » .

فقالت له ماريان من غير أن تلتفت الى الوراء : « هذا دابك دائما يا يوسف ، لا تكف عن الزمجرة . ما من احد أرغمك على المجىء معنا الى اريحا ! »

ولم تكن ماريان تحب ذلك الرجل اطلاقا ، وكانت تتساءل دائما لماذا يطيقه بطرس ! ؟

وبوقار شديد اجابها يوسف : « انا فى خدمه سيدى ! »

وابتسم بطرس ابتسامة واهنة ، ولكنه لزم الصمت . فهو يبيح ليوسف ان يتذمر ويشكو ، لأنه خادم كفء ، وكل منهما يفهم الآخر . وهو يعلم أن الأمر لو كان بيد ماريان لطردت يوسف منذ وقت طويل ، ولكن ماريان لا تقدر الطهو الجيد كما يقدره زوجها ، ويوسف فضلا عن مهارته فى قيادة السيارات فهو طاه بارع جدا . فلا بد أن يكون سلوك مثل ذلك الخادم الثمين منكرا للغاية كى يقدم على طرده ، ويوسف انسان لم يحدث منه اطلاقا ذنب يعاب عليه يتجاوز الزمجرة والتذمر ..

وجذبت زوجة يوسف الطرحة التى تغطى بها راسها وللمتها حول وجهها لتنأى بنفسها عن هذا التلاحى . وكانت هى ايضا تؤثر البقاء فى (رام الله) ، فاريحا هذه خالية من الحياة . انها ميتة مثل هذا البحر الميت . وكانت حرية ان تبقى هناك فى بيت آل داود مع والديها واطفالها الآخرين الى ان يحين اوان عودتهم جميعا الى (اللد) . ولكن مثلما يدين زوجها بالولاء للسيد ، كذلك هى تدين بالولاء لزوجها .

وكان أمين اصغر اولادها الثمانية . ولها عدة احفاد . وكان

فراقها لأحفادها هؤلاء أشـــد على نفسها من فراق بنيهـا انفسهم . وامين أحب ابنائهـا اليها بسبب عاهته ، ولأنه ايضا مختلف عن الآخرين على نحو غريب ، فهو احد منهم ذكاء بكثير ، ولذا اهتم به السيد اهتماما خاصا وقرر أن يتلقى تعليما وافيا فى معهد مخصص للعميان . ثم أن بينه وبين ابن السيد آصرة اخوة .

ومن امامهم بدأت كتلة التلال فى الظهور ، وقد احاطتهـا الحرارة بهالة على البعد ، ومن فوقها أبراج كنائس القدس وكأنها اكليل يتوج هامتها . وفى المقدمة تراءى «جبل التجربة» بقمته المسطحة وسط ارض تنمو بها اشجار السرو العالية . وفى منتصف الطريق الى قمته تراءى دير الروم الأرثوذكس .

وقالت ماريان بينها وبين نفسها : « ان الرهبان فى هـذا الدير لا بـد انهم يشعرون الآن بالانتعـاش فى حجـراتهم المنحوتة فى الصخر .. وأما الآذريون (الأقحوان الأصفـر) الذى ينمو بين الأطلال فوق القمة فلا بد انه الآن ذو لون ذهبى محروق من شدة لفح الشمس » .

وكانت قد صعدت هذا الجبل ذات مرة مع بطرس . فقد عقد قرانهما فى القدس ، ثم ذهبا الى أريحا بناء على رغبتهـا لتمضية شهر العسل ، لأنهـا أرادت ان تمضى اول اسابيع حياتها الزوجية تحت سقف ذلك البيت الذى اطلق عليه اسم « دار السلام » . ففى زيارة سابقة لذلك البيت فى صحبـة أبيها وقع نظر بطرس عليها لأول مرة ، فابصر فيها ما كانت عازمة باصرار على ان يتبينـه لديها من انها المرأة التى تحبه وتريد ان تتزوجه . وانها الزوجة التى يستطيع ان يبنى بها بعد ان قضى سنوات من التيه العاطفى منذ هجرته «سرية» زوجته الاولى .. ثم هى فوق هذا وذاك ابنة صديقه الانجليزى الحميم « روبرت ملبى » .

ولم تكن امها سعيدة بذلك الزواج ، لا لأن بطرس منصور رجل فلسطينى ، بل لأنه أكبر من ماريان سنا بعشرين عاما ، ولأنه مطلق . ولكن ماريان كانت مستعده وهى فى سن الثلاثين أن تتزوج اباها ، ذلك انها كانت تحب بطرس منصور لما فيه من صفات تحبها فى ابيهـا . وكان روبرت ملبى فى ذلك الحين ــ قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ــ ناظر مدرسة للعميان من جميع الأديان فى (يافا) . وكانت تشرف على هذه المدرسة جمعيه رعاية العميان فى فلسطين ، ومركز هـذه الجمعية الرئيسى فى لندن . وكان بطرس ــ بوصفه من أصحاب الأملاك البارزين فى المنطقـة ــ عضوا فى مجلس الادارة ، وكان يبدى اهتماما دائبـا بادارة هـذه المدرسة وتمويلها ، فنشأت بين الرجلين ــ بعد فترة من الميل المتبادل والاحترام ــ صداقه وطيـدة .

وخيل لمـاريان أن الرجلين على الرغم من الاختلاف الكلى بين نشأتيهما يتشابهان فى أمور كثيره ، اهمها الاتزان النسبى ورقى الشخصية . وكانت ماريان تعمل فى تلك المدرسة مدة خمس سنوات قبل زواجهـا ، فشعرت بجاذبية نحو بطرس منصور كان مبعثها فى البداية انه صديق ابيها وشبيه به من وجوه كثيرة ، ولأنها كانت تقـدر اتزانه . أما فورات غضبه فكان يغتفرها لديها ما فى طبعه من دفء وسحر ، وفطنتها الى ما يعانيه من وحشة الوحدة ، ذلك انه مسيحى من اتبـاع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وعليه ان ينتظر سبع سنين كى يحصل على الطلاق. وكانت هذه الفترة قد انقضت وحصل على الطلاق فعلا قبل التقائهما بوقت قليل . ثم انه لم يرزق من زواجه الأول باطفال ، فزاد ذلك من وحدته . وقد بدأت العاطفة عند ماريان نوعا من الشفقة عليه وعلى وحدته . ثم لم تلبث فيما بعد أن سرت لتلك الوحدة لأنها اخلت الطريق

امامها كى تستولى عليه بكليته !

وقد تم زواجهما فى سنة ١٩٣٤ ، وعاشا فى بداية حياتهما الزوجيه فى مزرعته بيافا بين حدائق البرتقال ، ثم بعد ذلك انتقلا الى (اللـــد) . وقـــد ولد ابنهما انطون الذى أسمياه على اسم جده لأبيه فى السنة التالية .

وكان بطرس وطنيـــا متحمسا ونصيرا مكافحا للقوى التى تعمل على حصول فلسطين على استقلاله . وكان صديقه روبرت ملبى يعطف على آرائه هذه أشد العطف ، الى حد ان رؤســـاء ((ملبى)) فى مقر الجمعية بلنـــدن كانوا يعتبرونه متحمسا فى السياسة أكثر مما ينبغى .

وبعـــد تبادل المراسلات بين لندن ويافا قررت الجمعيـــة استدعاء((ملبى)) .وقد زاد عناده الذى لايلين من حرجهم وضيقهم به . ولم يحنق عليهم لذاك الاجراء بل عذرهم فيه ، ولكنه فى الوقت نفســه لم يكن مستطيعا أن يصنع غير ما صنع ، وهذا هو شعوره الحقيقى نحو المسألة الفلسطينية .

وكانت ماريان تعلم أيضا على نحو ما ان اباها قـــد سر بمغادرة فلسطين — رغم حبه العميق لهـــا — ذلك ان اكثر من صديق واحد من اصدقائه العرب شنقوا بسبب نشاطهم السياسى ، (وفاقا للسياسة البريطانية فى فلسطين يومئذ) ، مما جعل الموقف فى نظره لا يطاق . وكانت عودته الى انجلترا فى سنة ١٩٣٨ .

وبقيت ماريان بعد ذلك مع زوجها وطفلها فى اللـــد . ولم تتأثر تأثرا ماديا كبيرا بالحرب العالمية عند اندلاعها ، ولكنها كانت شديدة القلق والتوجس بسبب وجود قاعدة حربيـــة

انجليزية غير بعيـدة من اللد فى (صرفند) . فكانت طائرات الأعداء تحلق فوقهـا ، فتنطلق صفارات الانذار بالغـارات الجوية ويهرع الناس الى المخابىء العامة . ولكن آل منصور وخدمهم كانوا يمكثون فى بيتهم معتصمين بلون من الايمـان بالقـدر .

وفى الصيف كانوا يتوجهون الى رام اللـه فيقيمون فى بيت يستأجرونه لذلك الغرض . اما فى الشـتاء فكانوا يذهبـون احيانا الى اريحا . وذهب أنطون الى مدرسة فى اللد . وكان المفروض دائما انه عندما يحين الأوان سيذهب الى مدرسـة الأصدقاء الأمريكية فى رام الله ، وهى مشهورة لدى الجميع بأنها خير مدرسة فى فلسطين . ولكن عندما جاء ذلك الأوان كان العـام هو ١٩٤٨ .

وربيع سنة ١٩٤٨ هو ربيع النكبة . وتلت ذلك فى شهر مايو الحـار معركة القدس !

* * *

وكانت بلدة اريحا الصغيرة خالية من العلامات الدالة على الحرب . فالشارع الرئيسى الضيق الكثير المنحنيـات تظلله اشجار صغيرة يجلس تحتهـا الرجال على كراسى منخفضة فوق الرصيف ، امام مقاه مفتوحة الأبواب على مصاريعها ، واجهزة الراديو يلعلع صوتها من واجهات الدكاكين المفتوحة . والحمير المحملة فوق طاقتهـا تسير فى تكاسل كالمعتـاد . وعلى أبواب بعض الحوانيت يقف المسنون من الرجال وفى ايديهم مسابحهم الطويلة يحركونهـا وهم يتمتمون . والنساء يتخطرن حاملات فوق رؤوسهن جرار الماء ، وصغار الأطفال متعلقون بأذيالهن .

ومضت السيارة البويك السوداء ببطء فى الشارع الرئيسى لتشق لها طريقا بين الناس والحمير وعربات اليد الصغيرة وعربات الجر والكلاب الضالة ، الى أن وصلت حيث يتشعب الطريق الى حارات ضيقة تمر بين مجموعات من اشجار النخيل ونبات الجهنمية الذى يكسو أسوار الحدائق .

وانعطف الطريق عند احد أركان « جبل التجربة » ثم وقفت السيارة عند بوابة من الحديد المنقوش ، وبرز رجل رث الثياب من جوف خص تكاد تخنقه أوراق الموز الكبيرة ، فحيى وفتح البوابة .. ومرقت السيارة فى ممر ممهد تزدحم على جانبيه أشجار النخيل والسرو والجزورينا ، صوب بيت مربع ذى نوافذ بيضاء له شرفة عريضة فى طابقه الأول من الجهة المطلة على الجبل . وكانت ثمة غوطة برتقال على أحد جانبى الممر ، اما الجانب الاخر فحافل بأشجار الورد والأزاهير .

وصعدوا سلالم قليلة الارتفاع الى شرفة ذات اعمدة ، بها باب من الزجاج يفضى الى داخل البيت . وكان رجل داكن البشرة حافى القدمين يرتدى حلة متكسرة من التيل الأبيض ينسق منضدة على تلك الشرفة ، فلما ابصر السيارة اعتدل فى وقفته وثبت فى مكانه كأنه جندى فى حالة انتباه .. فلما برز سيده من السيارة رفع يده بالتحية ، فحياه بطرس وناداه باسمه ، فابتسم وأخذ يرحب بقدوم الأسرة وهو متهلل الأسارير ..

وبعد قليل سأل سيده عن الأحوال فى البلد — فقد تراءت الى اسماعهم حكايات رهيبة — ثم أعد مقاعد مصنوعة من القش لجلوسهم .. وبعد بضع دقائق جاء بأشربة حلوة وثلج وزجاجة ويسكى فوضعها فوق المنضدة بجوارهم .

ها هم آل منصور قد باتوا أخيرا فى دارهم .

وكان الجو حارا جدا ، واسرع يوسف فأتى بمروحة وضعها فوق منضدة اخرى بالقرب من الموضع الذى جلسوا فيه ، فهبت عليهم منها أنفاس هواء ساخن . ولكن الهواء المتحرك اسهل فى التنفس من الهواء الساكن الذى يكاد يزهق الأنفاس. ووضعوا كلهم اقدامهم المتورمة والمهرأة فوق مواطىء خشبية ، وتركوا الاسترخاء المريح يسرى فى أطرافهم واوصالهم .

وكان انطون مشوقا الى اكتشاف الغابة الصغيرة المتروكة على الفطرة فى الحديقة — وهذا دأبه دائما بمجرد وصوله الى هنا — بيد ان قدميه كانتا تسببان له الما شديدا ، فاستلقى فى مقعده المصنوع من القش وهو يتساءل فى قلق متى سيكون فى مقدوره أن يذهب سائرا على قدميه الى البحر الميت .

وبعد قليل خطر له أن يستعير دراجة من دراجات الخدم ولكن واجهته مشكلة « أمين » . ولم يكن الشوط بعيدا غاية البعد اذا ما سلك المرء طريقا مختصرا عبر الصحراء ، الا ان على المرء فى هذا الأوان من السنة أن يحذر من الثعابين والعقارب ذات اللدغات المسمومة . وكانت هذه الفكرة فى حد ذاتها كافية لاضفاء التشويق الكافى على مشروع الرحلة .

وسأل انطون أباه وقد استولت عليه اللهفة فجأة :

— **هل نعود الى رام الله عندما يصبح ذلك ماونا ؟**

فقال له أبوه :

— ستذهب الى المدرسة هناك فى الخريف اذا غدا كل شىء على ما يرام . اما أمك وانا فسنمكث هنا .

ولم يشأ ان يضيف الى ذلك قوله :

— **الى ان تتسنى لنا العودة الى (اللد) !**

ولكن .. اين جيش التحرير الكبير الذى سيرد اليهود على اعقابهم ويلقى بهم فى لجة اليم ؟ .. ان ما مر به من المحنة جعله لا يؤمن بوجوده فى الوقت الحاضر على الأقل !

وفجاة أيضا عاد انطون يسأل اباه :

— هل فى مقدورنا انا وامين ان نذهب فنقيم معسكرا عندما تتحسن حالة اقدامنا ؟

فأجاب ابوه قائلا :

— ينبغى أن ننتظر الى ان نتبين ماذا يحدث فى (لطرون) وفى القدس . فان استولى اليهود على القدس فلن يفهم شىء عن التدفق صوب الجنوب . علينا اولا ان ننتظر ما ستتمخض عنه الأيام القلائل المقبلة .

— ٧ —

طال غياب « نصرى دجانى » — زوج نادية — الى مدى لم يكن يتوقعه أحد .. الى ان اطلق سراحه من معسكر الاعتقال مع غيره من الرجال الذين فى سن الخدمة العسكرية بمنطقة اللد والرملة فى وقت واحد تقريبا ، هو أواخر شهر اكتوبر . وفى خلال الأشهر الثلاثة التى انقضت بين الاحاطة بتلك المنطقة وبين اطلاق سراح نصرى ، حدثت أمور كثيرة جدا بعد مسيرة الخروج الكبرى من اللد :

فما ان انقضت ستة أيام على سقوط اللد حتى أوقف الزحف اليهودى عبر السهل الساحلى الى (لطرون) . وقد تمكن من ايقاف هذا الزحف جنود فصيلة واحدة هى الفصيلة التاسعة من الجيش العربى ، مستخدمين مدفعا واحدا لا غير ، ركبوه فوق سقف مبنى الشرطة .

وكان اليهود قد أعدوا العدة لزحفهم ، ففضلا عن العدد الضخم الذى كتلوه من المشاة على أتم اهبة للهجوم ، كانت هناك خمس سيارات مدرعة ، ومع ذلك قضى المدفع العربى الاوحد على المدرعات الخمس ، ولم تستطع قوات المشاة أن تتقدم خطوة واحدة ..

وفى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم المشهود بدأ التطبيق الرسمى للهدنة التى قررها مجلس الأمن ، وهى تلك الهدنة التى عرفت باسم « هدنة اطلاق النار ! ! » سخرية بتلك الانفجارات التى لم تكف عن الصدور بعد اعلان الهدنة

وتطبيقها من جانب القوات الإسرائيلية التي تستخدم المدافع الرشاشه ، ومن جانب المتسللين الاسرائيليين — أفرادا وداوريات وقناصة يتربصون الفرص الغدر — حتى فقدت هذه الهدنة حرمتها وانقلب معناها فحق عليها أن ينقلب اسمها ايضا . وتوجه الكونت برنادوت الى القدس للتباحث فى الوسائل الكفيلة بتحقيق الفاعلية المطلوبة للهدنة . وفى ذلك الوقت كان الجيش المصرى يدافع عن قطاع غزة . أما الجيش العراقى فكان فى شمال الأردن .

وما أن حان شهر اغسطس حتى كان اربعون الفا من اللاجئين قد ضربوا خيامهم تحت اشراف شرطة شرق الأردن على جوانب التلال المحيطة بأريحا بجوار مجرى ماء .

وفى شهر سبتمبر اغتيل الكونت برنادوت فى القدس بيد الارهابيين اليهود من عصابة (شتيرن) .

وفى أكتوبر كان الاسرائيليون قد حصلوا على اسطول جوى جديد كل الجدة هرب اليهم من تشيكوسلوفاكيا ، فاستخدموا هذه الطائرات الجديدة القوية فى ضرب القواعد العسكرية المصرية فى منطقة غزة بالقنابل . واخترقت قواتهم البرية الخطوط المصرية فاستولت على (حليقات) من جهة الغرب وعلى (بئر سبع) من جهة الجنوب ، وعلى (بيت حانون) الى الجنوب من حليقات . وحوصرت فى (الفالوجا) حامية مصرية يبلغ تعدادها نحو ٢٥٠٠ رجل .

وكان الذى يتولى قيادة احدى فرق المشاة فى ذلك القطاع — قطاع غزة — الذى تعرض للاشتباك مع اليهود ، ضابط مصرى شاب اسمه جمال عبد الناصر .

وفى ٢٢ أكتوبر ، وهو اليوم التالى لسقوط (بئر سبع) ، وقف اطلاق النار رسميا . وفى تلك الاثناء كانت الكتائب الاسرائيلية تتحرك هابطة من (عرقوب) جنوبى (لطرون)

متجهة صوب (حبرون) جنوبى أريحا . وكذلك وجه الفيلق العربى بعض قواته جنوبا ، وتم انقاذ حبرون على يد الفيلق العربى الذى استطاعت داورية استطلاع مكونة من سبع سيارات مسلحة من قواته ايقاع طابور اسرائيلى مكون من ثلاثين سيارة مسلحة فى كمين نصبته له .

وعلى اثر ذلك اقام الفيلق العربى مراكز دفاعية اسفل قرية (الظهيرية) جنوبى حبرون بقايل ، على الطريق الى بئر سبع .

وفى ٣١ اكتوبر اذاع مراقبو هيئة الأمم المتحدة ان الاسرائيليين قاموا بمذبحة قتلوا فيها ثلاثين امرأة وطفلا من العرب فى قرية غربى حبرون اسمها (الدوايمة) .

* * *

وكانت نادية هى التى ابلغت نصرى فى النهاية نبأ اعتداء ذلك الجندى الاسرائيلى عليها ، وكانت حاملا فى شهرها الثالث وصحتها معتلة جدا .. بل انها كانت ايضا على شفا الانهيار نتيجة للتوتر العصبى الطويل .

وقبل ذلك كان أبوها قد صحبها الى طبيب فحصها وقرر انها حامل ، بيد انه رفض ان يضع حدا لذلك الحمل بغير موافقة الزوج ، اذ ليس من المحقق حتما — على حد تعبيره — أن الحمل حدث لها من ذلك اليهودى . وعبثا حاولت ان تبين له استحالة أن يرغب نصرى فى استمرار ذلك الحمل الى ان تضع طفلا قد لا يكون من صلبه . فمجرد الشك هنا كاف للكراهة والرفض . ولكن الطبيب اصر بعناد على انه يجب أن يستوثق من الأمر ، من نصرى نفسه !

وصاحت نادية بضراوة :

— ولكن من يدرى متى سيفقود ؟

وتوسل اليـه فريد :

ـــ نحن لا نجرؤ على الانتظار الى أن يعود . لأن الأوان المناسب ربما يكون قد فات للاقدام على أى عمل عندئذ !

بيد ان الطبيب لم يتزعزع عن رأيه . وبعد مزيد من التفهيم والرجاء ، قال اخيرا :

ـــ لم يزل فى الوقت متسع . واذا لم يعـد زوجها فى مدى شهر ، أعدكما بأن انظر فى الأمر مرة اخرى .

وبعد شهر الا قليلا ، عاد نصرى !

وكان ذلك الطبيب نفسه قد خلص الخادمة « رندا » من حملها ، كما خلص من الحمل فتاتين لاجئتين فلسطينيتين جاء بهما ابواهما . وكانت احداهما قد افتضت بكارتها واغتصبت امام عينى أبيها ! .. **ولم يكن هذا الطبيب هو الطبيب الفلسطينى الأوحد الذى تحدى القانون على هذه الصورة فى تلك الفترة ، مستريح الضمير ، ليمحو بعض آثار الفظاعات الاسرائيليـة المفزعة .**

وكانت نادية طيلة ذلك الوقت تعانى من الغثيان باستمرار ، وتتلهف على عودة زوجهـا ، وان اشـفقت جزعـا من تلك العودة ! ... ثم فجأة ، وبغير انذار سابق ، عاد نصرى . عاد قذرا اشعث ، رث الثياب ، منهك القوى لأنه مشى معظم الطريق من اللـد الى رام اللـه . وكان شاحب اللون هزيلا بسبب ما فقده من وزنه ـــ وكان لا يقل عن عشرين رطلا ـــ وكانت أعصابه غاية فى التوتر .

ونصرى دجانى شاب كانت الحياة خفيفـة العبء عليه جـدا ، الى أن حدثت كارثة تقسيم وطنه . فابوه ثرى كريم متساهل ، وله زوجة جميلة شابة وطفـلان ، وهو متعلق بثلاثتهم تعلقا شديدا ، وعاش معهم عيشة طيبة راضية هينة فى قصر الأسرة بيافا . ولـمـا بدأ القتـال فى تلك المنطقـة

فى شـــهر مايو هرب بأسرته من يافا الى دار أصهاره آل منصور فى اللــد .
وكانت هذه الهجرة نهاية شبابه اللاهى غير المكترث . ومع ذلك كان الشاب الذى اعتقله الجنود الاسرائيليون فى منتصف يوليه يتمتع بشيىء من الخفـــة والمرح فى سلوكه ومظهره . أما نصرى دجانى الذى دخل رام اللـــه اشعث اغبر اعرج فى نهاية اكتوبر ، فكان يبدو اكبر سنا من حقيقته بكثير ، وحول فمه خطوط لم يكن له بها عهد من قبل .
ولكن هذا كله لا يمنع من اعتبار نصرى أحـــد المحظوظين من حيث انه كان يعرف اين يبحث عن اسرته بعد اجلاء اهالى غزة عنها ، اذ كان المفهوم دائما انهم سيتوجهون الى بيت داود فى رام اللــــه اذا اضطروا لمغادرة (اللـــد) .
ولم يكن يعذبه فى الحقيقة الا عدم معرفته كم منهم لم تقتله محنة الخروج من اللـــد الى البرية ، وما الذى حدث لزوجته وطفليه ووالديه وسائر أفراد اسرته . فظل طوال الطريق يهذى بتخيل ما قد يجده فى انتظاره من أنباء الفواجع عندما يصل الى رام اللـــه . وكلما وقع نظره على حشود اللاجئين المعسكرين فى كل مكان شعر بالدم يغلى فى عروقه لمـــا هم عليه من التعاسة والضياع .
أما الشارع الذى تظللـــه اشجار السرو ، وهو الذى كان يطلق عليـــه البعض أحيـــانا اسم شارع العشاق — لمـــا تلقيه ظلال تلك الأشجار من الظلمة على اركانه فى المساء — فهو الآن قد صار بحق شارع اللاجئين ، وكانت موجات من التعاسة البشرية تفيض عنه فترتطم ببوابات بيت داود ، بل وتتسرب الى حديقتـــه ذاتها .
وعندما انعطف نصرى الى الشارع ، تحت رعاية الخادمة رندا ، استطاع أن يبصر طفليـــه يلعبان قرب البيت ، فأطلق

صيحة ، واقبل الطفلان يجريان ويطلقان صيحات الدهشة والسرور . أما الفتاة الخادمة فأجفلت وولت الأدبار صاعدة السلم ، واجتازت البهو مارقة كالسهم الى داخل الدار .

وبعد لحظة عادت مع نادية ، يتبعهما والدا ناديه . وفطن نصرى الى وجود ماجده وفريد ، ولكن عينه لم تبصر حقا سوى زوجته وقد ارتدت ثوبا أبيض له حزام احمر ، وهى تجرى هابطة السلالم صوبه .

***

وبعد موجة المعانقة والترحيب والاستفسارات والاطمئنان على ابويه اللذين عرف الآن انهما يقيمان فى دارهما بالقدس ، توجه نصرى اولا الى الحمام حيث اغتسل وبدل ثيابه . وكان الحمام قد أعد له على عجل ، وامده خليل بالثياب ، بينما انتحت حماته ماجدة جانبا بابنتها نادية ، فى اضطراب شديد — أثناء وجوده داخل الحمام — وقالت لها :

— عندما يخرج من الحمام سيكون عليك أن تذهبى اليه فى حجرة النوم . فماذا أنت مزمعة ان تفعلى ؟ ماذا ستقولين له ؟

فأجابتها نادية :

— **الحقيقة طبعا . فأنا لا أشعر الآن ، وقد عاد ، بأدنى خوف ، لأنه عانى بنفسه تجربة قاسية على يد اليهود ، ولذا سيفهم الموقف . وأنا واثقة انه سيذهب معى الى الطبيب .**

فقالت لها أمها فى قلق :

— وكيف يمكنه ان يقطع برأى ؟ قد يداخله عندئذ الخوف من ان يكون ذلك الجنين من صلبه ! ؟

فردت عليها نادية بثقة :

— انه لن يترك شيئا للمصادفة . لن يجرؤ على ذلك .

فهزت امها رأسها بارتياب وقالت :

— ليس فى وسعك أن تجزمى بذلك . فللرجال طبائع غريبة . وقد يثيره النبأ فينقلب عليك . ماذا ستفعلين اذن ؟

فقالت نادية بمرارة :

— سأنتظر ! أليس هذا ما فرض علينا نحن الفلسطينيين ان نجيده ؟

وتنهدت ماجدة ، ثم نهضت قائلة لها :

— كان الله معك . سأصلى من أجلك .

وكان هذا الحديث قد دار خارج البيت فى الشرفة . ونهضت نادية بدورها وتبعت والدتها الى داخل البيت ، فتوجهت ماجدة صوب المطبخ ، بينما صعدت نادية الى الطابق الأول .

ولم يلبث أن خرج نصرى من الحمام مرتديا عباءة حريرية من عباءات خليل ، فبدا فى عينى زوجته — بعد أن حلق لحيته — اقل شحوبا وهزالا . ومرة اخرى أحست بمبلغ وسامته ، فازداد خفقان قلبها وتوجسها .

وقال لها نصرى يطمئنها باسما :

— ها قد أصبحت انسانا جديدا .

ودلفا الى حجرة النوم معا ، وأدار نصرى المفتاح فى الباب ، ثم اخذها بين ذراعيه وقال لها ببساطة :

— ما أطول واشد ما اشتقت اليك ! لن تصدقى مهما قلت لك ! وعندما ابصرتك تهبطين السلم وتجرين على ارض ممر الحديقة المفروشة بالحصباء الملونة لتستقبلينى ، شعرت انك أحلى واشهى من اى وقت مضى !

وتبادلا قبلات عميقة ، وسمعت قلبه يدق دقا عنيفا . ولما بلغت القبلة الحارة ختامها المحرق شرع يجذبها برفق صوب

للفراش ، ولكنها ابتعدت وقد اكفهر لونها اكفهرارا شديدا ، وقالت له بصوت اجش :

— نصرى ! عندى ما أقوله لك . وانه لرهيب !

وفى هذه المرة كان الخفقان العنيف صادرا عن قلبها هى .. وحملق فيهـا منتظرا . ولمـا لم تتكلم ، سألها وقد اعتراه الخوف فجـأة :

— ما الخبر ؟

فقالت فى الم شديد :

— عندما اعتقل جميع الرجال فى ذلك اليوم المشئوم ، جاء جنديان يهوديان الى البيت وطلبا ماء ليشربا . وقالا انهما من (الهاجاناه) . ونزلت اليهما « رندا » بالمـاء ، فجرها احدهما قسرا ..

وتوقفت عن الكلام . وراح ذهنها ينقب عن الألفاظ المناسبة للتعبير عن بقيـة المأساة . ووقفا برهة ينظر كل منهما الى الآخر بعمق وفزع ، ثم أشاحت نادية بنظرها عنه كى تجـد فى نفسها القدرة على مواصلة الكلام :

— جرها قسرا الى داخـل حجرة . وسمعناها تصرخ ، فأسرعت أنا وماريان نهبط السلالم لنجدتهـا . وعندئذ .. عندئذ قبض الجندى الآخر على عنوة !

ونظرت اليه مرة اخرى ، فى يأس .. وبعد قليـل قالت بصوت مرتجف حاد :

— لقد قاومت وناضلت ، ولكنـه كان شابا وكان قوى البنيـة جـدا ...

وفجأة استطردت من غير مناسبة او اتصال بما قالت آنفا :

— انه لبنـانى امريكى .

واستمر يحملق فيهـا من غير أن يتكلم . وفجأة انفجرت براكينها ، وصرخت فيه قائلة :

— لا تنظر الى هكذا ! لم يكن الذنب ذنبى ! الا تصدقنى ؟ انا الآن حامل فى الشهر الثالث ، ويكاد الجنون يطبق على من فرط القلق والانزعاج ! يجب علينا أن نفعل شيئا لمواجهة هذه النكبة . وثمة طبيب مستعد اذا وافقت انت .. اذا ذهبت معى اليه أن ...

وترنحت ثم هوت على الفراش وهى تبكى بكاء هستيريا .

وظل نصرى واقفا يحدق فيها . وفجأة شعر ببرودة شديدة تسرى فى أوصاله — مع ان اليوم كان حارا — فارتجف وجمع عباءة خايل حول جسمه فحرره ذلك التصرف من سباته ، واتجه نحو السرير وجلس عليه بجوارها ، ولكنه لم يلمسها .

وبعد برهة صمت قال لها :

— لقد كان من رأيى دائما انه ما من امرأة يمكن ان يغتصبها رجل بغير ارادتها . فكيف يمكن لرجل أن ينال وطره من امرأة ان هى ثابرت على الرفس والمقاومة ؟ انا شخصيا لم افلح فى ذلك ، فلماذا يستطيعه هذا اليهودى ؟

فرفعت رأسها عن الفراش وحملقت فيه مشدوهة وقالت له :

— الا تصدقنى ؟ ايخطر ببالك اننى من الممكن ان اسلم نفسى لعدوى يهودى على هذا النحو بمحض ارادتى ؟ لقد كانت ((دنيا)) فى تلك الحجرة ذاتها فى ذلك الوقت . وفى وسعك ان تسألها . دق الجرس ! ارسل فى طلبها !

ولما وجدته لا يحرك ساكنا حاولت ان تتحامل على نفسها وتغادر الفراش كى تصل الى زر الجرس بجوار الباب . ولكنه امسك بمعصمها وقال لها :

— لا ! انا اصدقك .. طبعا انا مصدق ما قلت ! ولكنه شىء رهيب جدا ! زوجتى انا يعتدى على عرضها رجل .. ورجل من حثالة اليهود ! ؟ يا الهى !

ودفن وجهه فى راحتيه ، ثم نظر اليها فى اشفاق وقال :

— فى تلك الليلة الأخيرة قبل أن يأخذونى .. كان ما تعلمين بيننا . فمن الجائز أن يكون هذا الحمل منى .

فهتفت فى حنق :

— ولكننا لا نستطيع أن نعلم . ولا يمكننا ان نقطع برأى على وجـــه اليقين . يجب أن نذهب الى الطبيب يارجـــل ! وبسرعة ! أنا الآن فى الشهر الثالث !

ومدت يدها فلمست وجهه الشاحب وقالت :

— نصرى ! شـــد ما اشتقت اليك ! شـــد ما اشتقت الى اجتماع شملنا من جديد ..

فتناول يدها تلك وضغطها على صفحة خده وقال :

— أنا ايضا كنت شديد الشوق اليك . ولعل شوقى اليك كان اشد من شوقك أنت الى .

وقبل باطن يدها ، ثم فجأة نهض وقد ثارت مراجله :

— الم يكف اليهود ما صنعوه بنا ، وقد اغتصبوا وطننـــا وديارنا واراضينا ؟ هل كان لا بـــد لهم ان يغتصبوا نساءنا ايضـــا ؟ !

واتجه عبر الحجرة الى مائدة الزينة ففتح صندوق سجائر استخرج منه سيجارة فأشعلها . ثم قال بعد أن جذب نفسا منهـــا :

— وهو كذلك . سنذهب الى الطبيب وسيجهضك . وبعد ان اطمئن على سلامتك سأتوجه الى عمان وانخرط فى سلك الفلق العربى . فهم بحاجة هناك الى الرجال . واذا واتانى **الحظ سأقتل بضعة من اليهود قبل أن ينتهى القتال !**

وبعد لحظة سألهـــا :

— وماذا حدث لرنـــدا ؟

فأجابتـــه نادية :

ـــ لا تنظر الى هكذا ! لم يكن الذنب ذنبى ! الا تصدقنى ! ؟

ـــ أجهضها الطبيب . ولكن الشاب الذى كان على وشك الزواج منها يقول الآن انه لا سبيل الى ذلك الزواج بعد ان فقدت بكارتها . فأسرته من الفلاحين المتزمتين ، ومن تقاليدهم أن يرقصوا ليلة الزفاف بالمنديل المخضب بدم بكارة العروس على دقات الموسيقى . وحيث انه لا دم هناك لتخضيب المنديل فلا عرس ولا زواج !

فزوى نصرى ما بين حاجبيه وقال :

ـــ ان التدليس فى هذه الأمور مستطاع وميسور . فهناك اكثر من وسيلة لتلطيخ منديل العرس بالدم !

فأجابته نادية :

ـــ أعتقد انه زاهد فى الزواج منها الآن . لأنه سيتذكر كلما اجتمع بها ذلك اليهودى الذى سبقه اليها فكان اول من عرفها !

وازداد تقطيب نصرى ولم يتكلم . وعاوده الشعور بالبرد وارتجف ، فقال لهـــا :

ـــ الأفضل ان البس الآن ثيابى . فانى اشعر بالبرد بعد الحمام الساخن . ساعدينى على اللبس .

فنهضت نادية عن الفراش وتوجهت الى مائدة الزينة حيث مررت المشط فى شعرها ، ثم قالت بتبلد :

ـــ ينبغى الا تصاب ببرد . ها هى الثياب المعـــدة لك . وسأمضى انا الى المطبخ لأرى ماذا يعدون للغداء ..

* * *

وبمجرد ان استطاعت ماجدة الظفر بابنتها فى خلوة ، بعيدا عن المطبخ المزدحم ، سألت نادية بقلق :

ـــ هل كل شيء على ما يرام ؟

فقالت لها نادية بشرود :

ـــ نعم . وسنذهب معا الى الطبيب .

فسكتت امها برهة ثم سألتها :

ــ ولكن من جهة اخرى ، الم يحنقه ذلك عليك ؟ الم يحملك وزر ما حدث ؟

فبادرت نادية تقول لهـــا :

ــ لا . مطلقـــا !

بل واستطاعت نادية ، زيادة فى طمأنينة امهـــا ، ان تحمل شفتيها على الافترار عن ابتسامة صغيرة . وعندئذ تمتمت ماجدة :

ــ اشكرك اللهم ! ما اكرمك يارب !

ثم التفتت الى ابنتها وقالت لها :

ــ هكذا اقول دائما لأبيك . ولكن اباك يأبى دائمـــا ان يصدقنى وان يؤمن برحمة الله !

— ٨ —

أعدت مأدبة خاصـــة فى ذلك المساء احتفالا بعودة نصرى من المعتقل اليهودى . ولم تكن مأدبة فاخـــرة كمآدب الأيام الخوالى ، لأن النقص فى الأقوات بمدينة رام الله كان شديدا جدا بسبب ضـــغط اللاجئين وحالة الحرب — برغم توقف العمليات العسكرية — ولكن الحمل المشوى التقليـــدى قدم صحيحا على المائدة بأكمله ، بما فى ذلك الرأس ، فوق وسادة ضخمة من الأرز المحمر بالمكسرات ..

واتصلت «منى» تليفونيا بدار السلام — فى مدينة اريحا — كى تدعو بطرس وماريان لحضور ذلك الحفل ، ولكن بطرس لم تكن صحته على ما يرام ، فقد عاودته علة قلبه القديمـــة كما قال لأخته . وركب خليل سيارته الى القدس ليأتى بوالدى نصرى وبقيـــة الأقارب الذين يعيشون فى القدس والأماكن المحيطة بها ، ولم يكن يشارك اصهاره فى تخوفهم من دخول المدينـــة المقدسة .

وكان رجال الفيلق العربى بعقالهم الأبيض والأحمر يقفون امام تحصينات اسوار المدينة القديمة التى ترجع الى القرن السادس عشر . وكان من الضرورى ان يتجنب خليل الدخول من بوابة دمشق ، لأن كنيسة النوتردام التى تقع تجاههـــا — والتى دمرتها المعارك — لم تزل فى ايدى القوات الاسرائيلية التى تسلط المدافع الرشاشة على تلك البوابة من نوافذ الكنيسة. وهى منطقة مشهورة ايضا بكمون القناصة فيهـــا . واولئك القناصة يشكون السأم ، ولذا يسلون انفسهم بتذكير المدنيين

العرب بأنهم ما زالوا هناك ، بتوجيه القذائف اليهم عندما يمرون فى الرحبة التى امام البوابة ، ضاربين بالهدنة عرض الحائط !

وسلك خليل الطريق المار أمام المتحف الى حى الشيخ جراح شمالا ، ثم أدار راديو السيارة على محطة اسرائيل التى كان يصغى لاذاعتها — فى اهتمام ممزوج بالألم — بضع مرات فى كل يوم .. واذا صوت رجل ، وان كان صوتا ناعما ، يتكلم العربية الفصحى مملنا ضرورة الاستيلاء على (العقبة) ، الميناء الواقع على الخليج المعروف باسمها عند رأس البحر الأحمر ، وفى الجنوب الاقصى من (النقب) ، وهى المنطقة التى منحها لليهود مشروع التقسيم الذى اقرته هيئة الأمم المتحدة .

وما أن سمع خليل ذلك حتى اغلق الراديو حانقا . فالعقبة آخر منفذ لشرق الأردن على البحر الأحمر بعد أن اغلقت فى وجهها موانىء فلسطين المسلوبة على البحر الأبيض .

واستمر خليل فى طريقه بسيارته الى أن وقف على طريق رام الله عند فيلا حديثة مزخرفة يقيم بها والدا نصرى مع نفر من ذوى قرابتهم الأدنين . وكانت الشمس قد جنحت للغروب فى بهاء أخاذ القى اشعته القرمزية الذهبية على القباب والمآذن وابراج الكنائس الضاربة فى سماء القدس ..

* * *

ساء منى من أخيها الأكبر بطرس ان يعتذر من عدم القدوم الى رام الله تلبية لدعوتها ، كما ساءها منه قبل شهور أن يرحل الى أريحا غداة وصوله من اللد . وكانت واثقة انه رفض الحضور لأنه لا يريد ذلك ، لا بسبب توعك صحته

كما قال . والحق انه لم يحبب « خليل » فى أى يوم من الأيام . وهو الآن حانق عليه لانه لم يمسسه أذى او خساره من تلك المأساة الوطنية الفلسطينيه .

ولم يخفف من حدة غضبها ما اكده لها اخوها فريد أشد التأكيد من ان بطرس تأذت صحته كثيرا جدا منذ تلك المسيرة الوحشية من اللد عبر البرية . وقالت له ردا على ذلك :

— من عادة بطرس أن يدعى المرض او التوعك كلما وجد فى ذلك ما يوافق هواه . أن حالة قلبه ليست من السوء كما يدعى ، فقد مكنته من تحمل تلك المسيرة بكل مشاقها ، حيث هلك فيها كثيرون لا يدعون مثل علته . انه يريد دائما ان يفعل ما يحلو له ، ويأبى ان يفعل ما لا رغبة له فيه !

والواقع انها كانت شديدة الغضب عليه لأنها تحبه أشد الحب ، ولأنه آذى شعورها .. ولكن « فريد » كان على عكسها شديد القلق على صحة أخيه بطرس ، وقرر ان يذهب لزيارته والاطمئنان عليه بمجرد الفراغ من مشكلة نادية والاطمئنان على صحتها ومصيرها . ولعله يتمكن من الذهاب الى هناك فى عطلة آخر الأسبوع مع انطون الذى دخل مدرسة الأصدقاء الأمريكية منذ سبتمبر ، ولذا فهو يعيش معهم فى رام الله ..

أما نصرى فقد اسعده كثيرا ان يرى ابويه . ولكن فيما عدا ذلك لم يابه كثيرا سواء حضر بطرس منصور او غير بطرس منصور أم لم يحضروا . بل انه فى الظروف الدقيقة التى يجتازها كان يفضل الا تقام حفلة على الاطلاق بمناسبة قدومه .

اجل انه عاد الى اهله بعد غيبة طال امدها وساوره وساورهم فيها القلق ، ولكن رجوعه الى زوجته وطفليه لم يتمخض عن تحقيق حلمه الذى عاش فيه تلك الشهور الثلاثة ، بل الذى

نفسه يعيش فى دوامة كابوس مروع صار يتمنى الخلاص من عذابه لينطلق بعيدا مرة أخرى .. بعيدا الى عمــان ، حيث يتــدرب فى صفوف الفيلق العربى ، ثم ينطلق الى أى مكان يوجهونه اليه ، بشرط ان يتمكن من مقاتلة العدو .. فيقتــل ويقتل !

وكانت نادية فاتنة جدا بشعرها الفاحم الغزير ووجههــا الشاحب البيضاوى وعينيهــا الواسعتين . كانت جميلة فى عذوبة . ومع ذلك فانه كلما نظر اليها الآن تذكر على الفور ذلك الجندى اليهودى الشاب وهو يتحسس بدنها البض ، ويلقى بجسده فوق جسدها ، وينالها ، ويقضى لبانته القذرة منهــا . يتذكر هــذا فتغلى دماؤه ولا يفكر فى شىء سوى الانطلاق . الانطلاق ليقتل ويشفى غليله بسفك دماء السفاحين !

ولكم قال لنفسه انها تعذبت اكثر مما تعذب بتلك التجربة الرهيبة ، وان من واجبه أن يرحمها ويرثى لها ، وان يمتلىء قلبه ويفيض حبا لها وحنوا عليها . ولكن سائر هذه المشاعر كانت قد ماتت لديه ، ولم يعد فى مقدوره أن يشعر بشىء اللهم الا هــذه الغيرة الوحشية ، والا الجمود الفظيع فى جوانحه وعواطفه الرقيقــة .

انه يتمنى الآن ان تنتهى هذه المأدبة ، لأن قلبه عاجز عن المشاركة فيها . ومع هــذا فهو مشفق من الليل ، ومن رقاده هامد الجسد عاجزا عن التجاوب مع زوجته والاقتراب منها .. وهى الحلوة الجميلة الرقيقة المحبة . انها زوجته وحبيبتــه وأم اولاده . انها تحبه ويحبها ، ولا ذنب لها بل هى مجنى عليها . ولكنه لا يستطيع انْ ينسى انها عرفت رجلا آخر ، وان هذا الرجل ينتمى الى العدو !

اما انطون فكان مستشار النفس لدى نصرى مرة اخرى .. فزوج نادية ابنة عمه شخصية رومانسية بطولية فى نظره ..

اليس قد اخذه اليهود الى معسكر للاعتقال وثبت للمحنة وخرج حيا منها وعاد اليهم ليقص عليهم قصته ؟ ! .. ثم انه يعتزم الرحيل لينضم الى الفيلق العربى ويعاون فى القاء اليهود الى البحر ! .. ان انطون لم يزل مؤمنا — شأنه فى ذلك شأن معظم الفلسطينيين — ان القاء اليهود الى البحر أمر محتوم الوقوع . لقد كان طول حياته يحب نصرى ، ونصرى يحبه ايضا . بيد ان نصرى الذى عاد اليوم الى رام الله يختلف كثيرا عن نصرى الذى يعرفه . انه لم يعد يرسل ضحكاته المرحة أو نكاته ومزاحه وتهريجه . بل انه لم يعد يبتسم ولا يتكلم الا اذا وجه اليه الكلام أحد .. وعندئذ يغمغم ببضع كلمات ثم يسكت . لقد أصبح يبدو اكبر سنا من حقيقته بكثير جدا .

واستقر رأى انطون على ان السبب فى ذلك ماعاناه نصرى على يد الاسرائيليين . ولعلهم عذبوه . وسيكون على ما يرام عندما يقضى فى البيت فترة من الوقت مع نادية والطفلين .

وبنت عمه نادية ايضا لاحظ عليها اختلافا شديدا منذ جاءوا الى رام الله . فهى كذلك لا تضحك ولا تمزح ، بل ولا تلاعب الطفلين . انها على قول زوجة عمه ماجدة ليست على ما يرام صحيا . وقد تجرى لها جراحة ، وهم ينتظرون عودة نصرى كى يذهبوا بها الى الجراح ليشفيها مما بها .

وفجأة عاد نصرى ، وشرعت عمته وزوجة عمه فى العمل بنشاط ، توجهان الخادمات والخدم وتصدران اليهم الأوامر ، بل انهما اشتركتا شخصيا فى اعمال المطبخ انجازا للوليمة الكبرى . وطير النبأ السار الى جميع الأقارب والأصدقاء ، ودعوا للحفلة . الا ما اشبه ذلك بجو الاحتفال بعيد الميلاد .

لقد خيب آمال انطون كثيرا ان والديه لم يتمكنا من الحضور ، وانتابه القلق على أبيه الذى لم تكن صحته على ما يرام منذ

عادروا السيد . ولكنه عندما قال ذلك لعمته « مني » اجابته متسائلة فيما يشبه الغضب :

— وماذا تتوقع ان يكون حاله وقد اصر على البقاء هناك فى (اريحا) طول الصيف .. ؟

ثم لم تلبث أن اردفت :

— لا بد انهما مجنونان .. كلاهما !

ولكنهما لم يكونا مجنونين — فى نظر الصبى المحزون — بل هما شقيان فقط ، محطما الفؤاد . وعندما يكون هذا حالك فانك تحب أن تعتكف فى دارك . ودار السلام هى دارهما الحقيقية . فمهما ألح زوج عمته خليل على ابيــه قائلا : « ان دارى هى دارك ! » ، فى كرم عربى اصيل صادق ، فالحقيقة الواقعــة ان هــذه الدار هى دار آل داود وليست دار آل منصور . وبطرس منصور — كما يعلم ابنه تمام العلم — رجل متعود على الأمر والنهى فى داره ، وعلى توجيه خدمه وتصريف شئون بيته على طريقته الخاصة . ولا سبيل الى ان يشعر الا بأنه « ضيف » فحسب فى أى دار غير داره ، ولو كانت هــذه الدار دار زوج شقيقتــه !

لهذا كله كان انطون يدرك انه من الأيسر والأجدى على والديه أن يظلا فى اريحا رغم انخفاضها الشديد ورغم حرارتها الرهيبة فى فصل الصيف .

أما هو شخصيا فيفضل الاقــامة فى رام اللــه فى الوقت الحاضر ، بعد أن تغلب على شعوره بالخوف من هجوم اليهود عليها ، فهو يحب مدرسة الأصدقاء الأمريكية ويزهيه ما يقال عنها من انها خير مدرسة فى فلسطين بأسرها .

والحق انه سرعان ما اخلد الى الاستقرار فى رام اللــه ، بيد انه شعر بالوحدة والافتقار الى الأصدقاء منذ رحل امين ليدخل مدرسة العميان فى بيت لحم . وكان بطرس قد رتب له

هذا المسير . وبعد ذلك صفت علاقته ببنات عمته بمجرد زوال غشاوة الحيــاء الاولى لدى الطرفين . ولكنه لم يستطع ان يشعر بحرارة الصداقة حتى بالنسبة لمن كانت منهن فى مثل سنه . اذ لا يسعه أن يذهب مع فتاة لاقامة معسكر فى الخلاء او للسباحة ، ولا ان تشاركه فى الاهتمام بلعبة كرة القــدم . فصارى الامر بينه وبين بنات خليل داود علاقة تقوم على التسامح المتبادل ، فهن لا يباليه وهو لا يباليهن . أما موضوع الصداقة فلا محل له فيما بينهم ، فهن دنيا البنات الخاصة بهن ، وما ابعد هــذه الدنيا عنه وعن تفكيره . وفيما يختص بسائر الامور العملية كان التباعد بينهم تاما على نحو ما يجرى به العرف من التفريق بين الجنسين فى كنائس فلسطين فى أيام الأحد تماما ..

وفى وليمة العشاء جلست الفتيــات مع زوجة عمه ماجدة ونفر آخر من الفتيــات والنساء الى مائدة صغيرة فى حجرة ملحقة بحجرة الطعام ، لأنه لم يكن هناك متسع للجميع على المــائدة الكبيرة ، وهكذا بدت الوليمة وكأنها قد قسمت قسمة طبيعية الى فريقى الرجال والنساء . وان كان رأى خليل — فيما بينه وبين نفسه — ان هذا من تأثير العرف الشرقى العتيق الذى يأبى الا أن يثبت وجوده ..

وجلست نادية بجوار نصرى على المــائدة الكبيرة ، وجلست منى وخليل معا فى الوسط . وكان انطون سعيدا بجلوسه الى جوار نصرى من أحد جانبيه ، والى جوار عمه فريد من الجانب الآخر ، وعمه هو اقرب الناس واحبهم اليه بعد أبيه . وقال الجميع انهــا لخســارة أن لم يتمكن بطرس وماريان من الحضور .

وقبل أن يدعى الجميع للجلوس الى المــائدتين أقبلت على انطون بنت عمتــه الكبرى ومعها فتاة تمسك بها من يدها ،

وقالت له :
ــ هذه هى صديقتى « ثريا » . وهى زميلتى فى المدرسة .
ووالدها هو الدكتور سابا الذى يعرف والدك معرفة وثيقة .
وكان انطون يعتبر تقديمه الى اى انسان ، ولا سيما من الجنس الآخر ، بمثابة محنة له ، بيد انه ارغم نفسه على النظر الى الفتاة وغمغم بعبارة من العبارات المهذبة المتعارف عليها.
وبدت له الفتاة من النوع العادى جدا ، ولا تثير اهتماما خاصا، فيما عــدا أن اباها يعرف اباه . وسألها انطون على سبيل التــأدب :
ــ هل أنت من (اللــد) ؟
فأجابته ثريا قائلة :
ــ لقد ولدت هناك . ولكن اسرتى انتقلت الى هنا بعــد ذلك بقليل . وقــد حضر والدى ليرى بطرس بك بمجرد أن سمعنا بوجودكم هنا ، ولكنكم كنتم قد رحلتم الى اريحا .
فسألها انطون :
ــ وهل والدك موجود هنا الليلة ؟
فقالت ثريا :
ــ لا . فهو الآن موجود فى امريكا لحضور مؤتمر طبى .
وعندئذ قالت له بنت عمته فى افتخار :
ــ ثريا سوف تدرس الطب .
وضحكت الفتــاة فى خجل فبــدت اســنانها الكبيرة غير المتناسقة . واحس انطون على الفور انها اقرب الى القبح .
وسمعها تقول :
ــ اتمنى ذلك ، ولكنى لا ادرى هل افلح ام لا ..
فقالت صديقتها فى ولاء وحماسة :
ــ طبعــا ستفلحين ! يجب أن تؤمنى بقــدرتك وتثقى بنفسك .. قل لها هــذا يا انطون !

فقال لهـا انطون بارتباك :

ـ نعم . هـذا صحيح .

وعندئذ أحس ارتياحا كبيرا اذ اعلن ان العشاء قد اعد ، وان على الجميع أن يجلسوا الى المـائدة . واثنـاء تناول الطعام نظرت الفتاة صوب انطون عدة مرات ، ولكنها لم تفلح فى التقاء عينيها بعينيـه !

وقـدم خليل لضيوفه شراب العرق ، وشيئا فشيئا حلت عقـدة لسان الرجال وانطلقوا فى الأحاديث ، **ما عدا نصرى الذى لم يشرب من العرق الا مقدارا قليلا جدا وظل صامتا ، وهو الذى كان مجرد وقوع نظره على كأس من العرق كافيـا لأن تتالق عينـاه ويبدو عليـه أن مجرد مداعبة رائحة ذلك الشراب لأنفه تبهج قلبه وتثمله !**

وشرب الرجـال نخبـه ، متمنين له استعادة العافيـة والانشراح ، مرحبين بعودته ، راجين له التوفيق فى القتال مع الفيلق العربى ، وان يعود سريعا الى بيته فى يافا . وكان فى كل مرة يقول لهم : « شـكرا » ، ثم ينحنى لهم انحنـاءة يسيرة ، وهو مجفل بعض الشىء ، كمن كان فى سبات ثم لكزه احد فأيقظه فجأة !

واخيرا بلغت الوليمة ختامها . وكانت الوان الطعام الكثيرة موضوعة كلها على المـائدة فى وقت واحد . وانتقل الجميع على الأثر الى حجرة فسيحة صفت فيها المقاعد والأرائك حول الجدران ، فجلسوا من تلقاء انفسهم فى فريقين ، كل جنس فى ناحية ، وقدمت القهوة التركية الفواحة بما خالطها من بذور « الحبهان » فى فناجين صغيرة ، ووضعت النرجيلات الى جوار من يدخنهـا من الرجال ، فجعل ماؤها يرسل فقاقيعـه فى قرقرة لطيفة ، ودارت الأحاديث هينة لينة تتخللها عواصف من القهقهة كلما القى احدهم طرفة او نكتة مستملحة .

ولكن بعد فترة وجيزة كثرت فترات الصمت فى تلك الجلسة الساهرة ، لأن وجوم الشاب الذى اجتمعوا لتكريمه والاحتفال بسلامة عودته ، وانصرافه عن سمرهم ومرحهم ، جعلاهم يشعرون بعدم الارتياح !

وكان هؤلاء الرجال لا هم لهم الا التباحث فى موضوع واحد يعنيهم جميعا فى الوقت الحاضر ، الا وهو الموقف الحربى ، واحتمالات تخليص القوة المصرية المحصورة فى الفالوجا منذ اقتحم الاسرائيليون تلك المنطقة ، وما حدث للجيش السورى ، وما كان ينبغى عمله فيما مضى ، وما ينبغى عمله الآن ، وعلى من يقع اللوم ، وما المنتظر حدوثه بعد ذلك ..

— ٩ —

كان الحديث فى جملتـــه هو الحديث المـــألوف كلما اجتمع فلسطينيان أو ثلاثة معا .. وكانت المناقشات تدور من غير ان يصل المتناقشون الى نتائج ، لسبب بسيط جـــدا وهو أن لا احـــد منهم يدرى شيئا على وجه التحقيق عن تلك الأمور جميعا . وانما المسألة كلهـــا لون من الوان التنفيس يحدث راحة فى النفس المكروبة بما يلقى من ظلال اللوم على هـــذا الفريق أو ذلك . **فمن قائل لو فعـــل العراقيون كذا ، وقائل لو فعل الفيلق العربى كذا ، وقائل لو فعـــل فاروق كذا .. وعلى هـــذا النحو مضى مؤتمر هؤلاء الجالسين فى المقـــاعد الوثيرة يدخنون النرجيلة يضع الخطط العسكرية التى لا تعرف الفشل !**

وكانـــوا بين الحين والحين ينظرون الى نصرى ـــ وهو أحدثهم سنا ، فيما عدا انطون ـــ وقـــد جرب بطريق مباشر الاحتكاك بالعـــدو ، ثم هو على وشك المضى للاشتراك فى مقاتلتهم ـــ (اذا احتاج الأمر مستقبلا لقتال ، أو سمحت بذلك ظروف السياسة الدولية) ـــ ويتوقعون منه ان يدلى برأيه ويشترك فى المناقشة . ولكنه كان لا يدلى بشىء لأنه لا يجد لديه ما يقوله ، فيثقل عليهم صمته .. واذا ما نظروا اليـــه ينتظرون الالهام والحماسة ، ألفوه صورة مجسمة للتخاذل وضعف الهمة !

وجاءتهم « رندا » بصينية مثقلة بأكواب صغيرة بها شاى

بلا لبن ، وانتهز نصرى فرصة انشغال الحاضرين بهذا الشراب وتوزيعه عليهم ففر من الحجرة . وكانت نادية تسمع الذين تطوعوا لمعشرة الجماعه ـ ممن كانوا عن كثب منه ـ ان حالته العصبيه سيئة للغايه بسبب ما عاناه فى المعتقل . وابدى كل واحد منهم عطفه عليه ومشاركته الوجدانيه له ، ثم استأنف الجميع ما كانوا بصدده من المناقشات . بدأت النساء الكلام ، ثم تبعهن الرجال ، وكانما اوحى اليهم الرثاء لحال نصرى ان يتباحثوا فى موضوع تلك الهدنه التى يعبث الاسرائيليون بها غايه العبث ، وتطرقوا بعد ذلك الى الحديث عن الموقف بصفة عامة .

أما بالنسبة لنادية فان قلقها على حالة زوجها ، فضلا عما تفيض به جوانحها من التوتر الذى اوجده لديها مسلكه ـ بالاضافة الى حالتها الأصليه ـ كل ذلك جعل المساء يبدو لها وكأنه لا يؤذن بانتهاء .

وانتهزت حماتها الفرصة فتشبثت بها وراحت تصب عليها الحاحها أن تثنى نصرى عما اعتزمه من الانخراط فى سلك الفيلق العربى ، فهو بحاجة ماسة الى الراحة واسترداد عافيته المنهكة .

وردت عليها نادية بأن نصرى سيصنع ما يريد ، وأنه كان دائما مطلق التصرف فى أمور نفسه ، لا يصغى لتوجيهات احد .. ثم استأذنت فى القيام لتطمئن على الطفلين زاعمة انهما يستيقظان عادة فى نحو هذا الوقت من الليل .

وذهبت بالفعل الى حجرة الطفلين والقت عليهما نظرة سريعة فوجدتهما يغطان فى نومهما كما توقعت ، ثم ذهبت الى حجرة نومها وقلبها يدق دقا متلاحقا خوفا من أن لا تجد نصرى هناك ، وهى فى الوقت نفسه تخشى أن تجده هناك ! .. وفتحت الباب فى خوف ، وفى ضوء المصباح

الخافت المظلل بغلالة حمراء بجوار الفراش ، استطاعت أن تتبين هيئة نصرى مستلقيا بكامل ملابسه على السرير ، وقد عقد يديه تحت رأسه ، وفى الحجرة رائحة سجائر نفاذة .. فقالت له بعصبيه :

— لقد تساءلت أين انت ، وحسبتك اويت الى فراشك .

فقال لهـا :

— كان لا بد لى أن انفرد بنفسى . لقد عجزت عن تحمل البقـاء بينهم اكثر من هـذا ..

— ولكنهم جاءوا جميعـا ليروك ، وفيهم والداك وسائر الأقـارب ! ؟

فأجابهـا وهو راقـد :

— اعلم هذا . ولكنى لست مستعدا لمقابلة الناس الآن ، وذهنى مثقل بالأفكار كمـا تعلمين .

فوقفت تنظر اليه مترددة ، وبعد برهة قالت :

— لقـد اتفقت على موعد نذهب فيـه غدا فى الساعة العاشرة معا الى الطبيب . انه صديقك القديم «هريد» (١) ، وقد سره أن يعلم نبأ عودتك اليـنا ، وهو يبعث اليك بأطيب تمنيـاته .

ولم يعلق نصرى على كلامها ، فأردفت :

— وهو يرغب فى ابقائى بعيادته اربعا وعشرين ساعة .

وعنـدئذ سألها :

— هل ينوى أن يقوم باجراء الجراحة غـدا ؟

فأجابتـه :

— نعم . اذا طلبت اليه ذلك .

فقـال بمراره :

(١) هكذا كتبته المؤلفة (Harid) ، ولعله تحريف «هريدى».

ــ سأطلب ذلك اليه . فليس لى فى الأمر خيار . اليس كذلك ؟

فقالت له بصوت غير ثابت كل الثبات :

ــ لا خيـــار لكلينـــا فيـــه ..

وشعرت بأنهـــا لو استطاعت ان تلقى بنفسها الى جواره وتطلق لنحيبها العنان فسوف يخف كل ما تعانيـــه من توتر أعصابها، بيد ان نبرة صوته اشعرتها بانه لن يطيق منها هذا .

وتحولت مبتعدة عن الفراش قائلة :

ــ لا بد لى ان امضى لتحية كل هؤلاء الناس تحية المساء ، وسأبدى لهم عذرك ، وسوف يدركون ويقدرون . أما والداك فستراهما فى الصباح ، لأنهما سيقضيان هذه الليلة هنا .

وعادت الى القاعة التى بها المحتفلون . وعندما لحقت به بعد ذلك الفتـــه قد خلع ملابسه واندس فى الفراش واطفأ النور . ولم يكلمهـــا حين دخلت الحجرة ، فسألته بصوت خافت :

ــ هـــل نمت ؟

فأجابها على الفور :

ــ لا . اكنت تتوقعين ان تجدينى نائمـــا ؟

فقالت له :

ــ لا . لا . طبعـــا لا .

وارادت ان تطلب اليـــه ايقاد المصباح ، ولكنها خافت ان تقول له هـــذا ، فخلعت ثيابهـــا فى الظلام ، وارتدت قميص النوم ، ومشطت شعرها على عجل ، ثم رقدت بجواره .

ولم يتحرك . كان مستلقيا على ظهره فلم يحول اليهـــا رأسه . وبعد بضع لحظات مدت يدها ولمست خده بلطف ، وتوسلت اليـــه :

— نصرى . كيف يمكن أن يشوب ما بيننا شىء وكل منا يحب الآخر ؟

فأمسك بيدها وابقاها فى يده .. ثم قال :

— لأننا بشر .

فقالت له :

— ان احساسى من نحوك لم يتغير منذ يوم زواجنا . ولم تهف نفسى الى احد سواك ، ولو للحظة واحدة . صدقنى ، ارجوك !

فأجابها :

— انى أصدقك . ولكنى على الدوام ارى .. اوه . انت تعرفين ما الذى اراه . وليس فى وسعى ان اخرج هذا الذى أراه من ذهنى . لا استطيع ان افكر فى الحب بعد الآن . كل ما استطيع الآن التفكير فيه هو المضى من هنا .. للقتال .. **لأقتل كل من استطيع أن اقتله !**

وتقلصت راحة يده على يدها بعنف ، وكانت حرية أن تصرخ من فرط الألم . ولكنها لم تصرخ . والح عليها قائلا :

— حاولى أن تفهمى .

فقالت له :

— انى احاول حقا ..

ثم اردفت بضعف :

— انت تؤلمنى .

فخفف قبضته قائلا :

— آسف .

وانقلب على جنبه فصار وجهه اليها ، وقال :

— افلا نحاول ان ننام ؟

فقالت له :

ـــ ألا تريد حتى أن تقبلنى ؟

فقبلها فوق جبينها ، فقالت :

ـــ هـــذه لا تحسب !

فأجابهـــا :

ـــ اعرف هذا . ولذا لم افكر فى الاقدام عليها ..

فسألته بحزن :

ـــ أهى افضل ما تستطيعه ؟

فقـــال نهـــا :

ـــ فى الوقت الحاضر : نعم .

فسألته :

ـــ وهل تظن الحال سيكون افضل من هذا فيما بعد .. ؟

فأجابهـــا :

ـــ ارجو هذا . أؤكد لك انى اتمنى هـــذا !

وجذبها الى جانبه والتصق بها ، ودفن وجهه فى كتفهـــا وبكى ..

* * *

وبعد أن هـــدأ نشيجه ، قال لها وهو يضمها اليه :

ـــ لم اكن ادرى قبل وقوعى فى يد اليهود ان فى استطاعة المرء تعذيب النـــاس من غير أن يلمسهم بأصابعه . انهم لم يضربوا أحدا منا ، ولم ينتزعوا اظافرنا . لقد سمعنا حكايات كثيرة من هذا القبيل ففزعنا ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنـــا شخصيا ، أعنى لأحد ممن كانوا معى فى حجرة واحدة على الأقـــل ، وكان عددنا نحو عشرين . وكان المبنى الذى اعتقلونا فيه كبيرا ، فظننا فى البداية انها مدرسة ، ولكننـــا لم نستطع أن نجزم بشىء ، لأنه لم تكن لدينا فى الواقع ادنى فكرة عن مكان وجودنا ، فعندما ذهبوا بنا الى ذلك المبنى لم

نجـد ما يدل اطلاقا على الغرض الأصلى من تشييده ، وكل ما لاحظناه أن به فنـاء واسعا يحيط به سـور مرتفع من الحجارة ، مما قـد يصلح ملعبا لمدرسة . والحجرة نفسها كانت خالية من كل انواع الأثاث ، فيما عدا دلوا موضوعا فى كل ركن من اركانها الأربعة ، ليس له غطاء . **وقـد تم نقلنا الى ذلك المبنى فى سيارة نقل مقفلة من النوع الذى يستخدم فى نقل الأغنام ! .. وكل ما هناك انهم ما كانوا ليكدسوا فى السيارة كل هذا العدد من الغنم ، لأنها كانت حرية ألا تصل وهى على قيـد الحياة ! ..** وظلت السيارة تدرج بنـا عدة ساعات ، وانت تعرفين كم كانت الحـرارة شديدة فى ذلك الحين ، فاشتدت علينا وطأة العطش . وبمرور الوقت اشتدت حاجتنا ايضا الى قضاء ضروراتنا العضوية . وقـد توقفت سيارة النقل عن المسير عدة مرات ولكن لم يسمح لأى فرد منا بمغادرتهـا . وكان بجوار السائق فى المقـدمة جنديان آخران منهم ، ولكن ما من أحـد من الثلاثة — أى الجنديين والجندى السائق — يعرف العربية . ولكن احدهم كان يعرف الانجليزية فلجأنا الى مخاطبته بها ، **وأخبرناه ان فريقا منـا توشك مثاناتهم ان تنفجر ، وطلبنا اليه ان يسمحوا لنا بالنزول قليلا لهذا الغرض القهرى ، فضحك وأوصانا الا نضيع هذا البول كله سدى ، لان فى وسعنا ان نتجرعه اذا الح علينـا الظما !**

فسالته نادية عندئذ :

— وهل تكرر هـذا ايضا فى طريق العودة ؟

فاجاب نصرى :

— لا . فالرحلة لم تكن بمثـل **ذلك الطول . فنقلونا الى** أحـد مراكز المراقبة ثم تولى الحراس الاسرائيليون حراستنا

حتى الجانب الأردنى من الحدود . أما فى ذلك المبنى — كائنا ما كانت حقيقته — فقد كان الحراس الاسرائيليون يشعرون بالسأم الشديد ، مثلنا تماما ، لأنهم لا يجدون ما يصنعونه . ولذا كانوا يتلهون بنا ، فما نحن الا شرذمة من العرب ، أى من الحثاله ، ولسنا بشرا ! .. ففى جوف الليل كنا نسمع صرخات يجمد الدم من هولها ، فينصرف تفكيرنا على الفور الى كل تلك الأقاصيص التى سمعناها تتردد من قبل عن انتزاع الأظافر . ثم يقوم أحد الحراس الليليين بفتح باب حجرتنا ويقف به باسما ليقول : ((**من الذى عليه الدور ؟**)) ، ثم يتلو بضعة أسماء . ثم يأخذ من تكون أسماؤهم من فريقنا الى الممر الخارجى ، حيث يقوم زملاؤه المنتظرون هناك ببنادقهم بربط أيدينا وراء ظهورنا ، ثم نساق فنهبط السلالم الى الفناء الكبير ، وهناك يوقفوننا ووجوهنا الى الجدار . وعندئذ يقول احد أولئك الحراس : ((**ان كان منكم احد يريد ان يتلو صلاته الأخيرة فليسرع بادائها**)) ، أو يقول شيئا من هذا القبيل . ويشرع الجميع — مسلمين ومسيحيين معا — فى تلاوة الصلوات ..

فسألته نادية :

— وأنت ! هل كنت تتلو صلاتك ايضا ؟

فأجابها :

— بل كنت اصلى ولكن فى قلبى . أما لسانى فلم يكن ليتحرك .

فسألته :

— **وماذا كنت تقول فى صلاتك ؟ هل كنت تذكرنى فيها ؟**

فأجابها ، جادا :

— **كنت اطلب من الله ان يعيش ابنى حتى ينتقم لأبيه .**

وكانوا يتركوننا فى هذه الحالة ساعتين ، والحراس يسيرون بلا انقطاع من وراء ظهورنا انتظارا لفرقة اطلاق النار التى لم تصل مطلقا ، وانتظارا لموت لم يحدث فعــلا — وان حدث معنويا فى كل دقيقــة بل كل ثانيــة من ذلك الوقت الطويل الرهيب ! — وفى النهاية يعيدوننا الى حجرتنا .. وبعد بضع ليــال أخرى يأخذون مجموعة اخرى من حجرة مجاورة . **وننظر نحن من النوافذ والفتيــان والجزع مستوليان علينا ، ونحن نتساءل واجفين هل سيفعلونها حقا فى هــذه المرة أم هو اللهو المــاجن** . وكنا ندرك أن المساكين المصطفين من تحتنا فى الفناء يعتقدون أن ساعتهم الأخيرة قــد دنت ، مثلما كنا نحن نعتقد ذلك فى حينه .. كلا ! انهم لم يلمسونا كمــا قلت لك ، ولكنهم فقط كانوا يعذبوننــا بالارهــاب والرعب والاذلال .. وكانوا ايضا يجيعوننا .

فسألته نادية :

— وماذا كانوا يقدمون لكم لتأكلوا ؟

فأجابهــا :

— **خبزا اسود وشيئا سائلا كالماء القذر يسمونه حساء . ولست اعتقد انهم كانوا يبدون لنــا كراهية . حتى هــذا كانوا لا يعتبروننا اهلا له . فهم المنتصرون** .. وكل ما هناك انهم يحتقروننا ويزدروننا !

وظل نصرى راقــدا بجوار زوجته ملتصقا بها ، متشبثا بأعطافها بين ذراعيــه ، وهو يحدق فى الظلام ..

ورفت شفتاها على جبينه المبلل بالعرق . وناشدته بحنان قائلة :

— حاول أن تنــام ..

فقــال لهــا :

ـ لا أستطيع . فانى متى اغمضت عينى خيل الى انى عدت الى تلك الحجرة اللعينة ، وانى بعد لحظة واحدة ساسمع صرخة ، ثم وقع خطوات عسكريه ثقيلة فى الممر الخارجى ، ويفتح باب الحجرة ليبرز جندى اسرائيلى يبتسم ابتسامه عريضة ويقول : ((من الذين عليهم الدور الآن ؟)) .. ثم يتلو اسماء من قائمة بيده ، واسمى من بين هذه الأسماء .. !

فقالت له :

ـ أنت الآن فى امان . لقد انتهى كل هذا الآن . انت هنا فى (رام الله) ، فى بيت خليل ، وقد صرنا معا مرة اخرى !

فاشتدت قبضة ذراعيه تعصرانها بكل ما فيه من توتر عصبى ، حتى انها لم تكد تطيق هذا الضغط الذى لا يدرى به ، وقال :

ـ انه شىء اشبه بالكابوس . وأنا اقاومه ولكنى لا استطيع أن اتحرر منه ، فهو يلازمنى باستمرار .

فهدأت من روعه قائلة :

ـ سيذهب هذا كله عنك . غدا سأسأل الطبيب أن يكتب لك حبوبا منومة . ومتى نعمت ببضع ليال من النوم العميق شعرت بتحسن كبير .. تأكد أن هذا كله سيذهب عنك .

وقالت فى نفسها بمرارة :

ـ ما الذى فعلناه كلانا فى أى يوم من الأيام باى يهودى حتى ينزلوا بنا كل هذا العذاب ؟ بل ما الذى فعله اى عربى فى اى يوم من الأيام حتى يفعلوا بنا جميعا كل هذا الشر والبلاء المقيم ؟

— ١٠ —

قضى بطرس وماريان طيلة ذلك الصيف المحرق فى اريحا ، ولم يحظيا باستقبال زوار فيما عدا بضع زيارات رسمية قام بها الأعيان المحليون فى الأيام القلائل الأولى بعد وصولهما للترحيب بعودة بطرس الى دار السلام ولابداء اسفهم ومواساتهم له على ما ضاع من امواله واراضيه وداره فى (اللد) .

والحقيقة ان الزوجين لم ينعما على الاطلاق بأى نوع من الحياة الاجتماعية ، الى أن بدأ العام الدراسى فذهب انطون الى مدرسة الأمريكان فى (رام الله) ابتداء من اواخر سبتمبر ، وبعدئذ صارا يريان «فريد» كل بضعة اسابيع عندما يأتى معه بالغلام لقضاء عطلة الأسبوع مستقلين سيارة خليل .

وكان البنزين قد بدأ يوزع بالبطاقات بطبيعة الحال ، فكان من المستحيل على فريد وأنطون القيام بهذه الرحلة ما بين رام الله وأريحا فى فترات أقرب من ذلك . وكانا كلما قدما الى اريحا يرحلان عنها عائدين الى رام الله فى صباح الاثنين عند شروق الشمس او بعده بوقت وجيز جدا .

وفى فترة عطلة عيد الميلاد جاء فريد ومعه ماجدة ونادية والطفلان فبقوا جميعا الى ان حان موعد اوبة انطون الى مدرسته فى آخر يناير .

وكانت نادية تفتقد نصرى كثيرا ، وكان قد رحل الى عمان ليتلقى تدريبا عسكريا فى صفوف الفيلق العربى ، ولكنها كانت تشعر بالسعادة فى دخيلة نفسها لانها استطاعت

ان تنسى ذلك الحادث الفظيع الذى وقع لهـا فى اللد ، بعد أن اصبحت حبلى مرة اخرى ، ولكن من نصرى فى هذه المرة .

لقد حدث ما لم يكن يعتقـد نصرى انه سيحدث . فما ان تمت لهـا جراحة الاجهاض وبرئت منها بفضل شبابها القوى بسرعة ، حتى وجد نفسه وقد تخلص من الصدمة التى خالها ستحول بينه وبين زوجته الحسناء الى الأبد . وقبل أن يدرك ما حدث الفى نفسه قد استعاد علاقته الحميمة بين أحضانها . واعقب ذلك التحطيم المـادى لآثار الصدمة تخلصه تدريجـا من آثارها المعنوية ، وتغير حاله من الشرود شبه المرضى الى الاقبال السوى على الحياة ومتاعها المبذول له كسابق عهده.

وقبل رحيله الى عمان بيوم واحد اقيمت له حفلة اخرى . ولكن ما ابعد الفرق بينها وبين حفلة استقباله الأولى . فقد اجمع الكل على ان هذه الحفلة الثانية كانت اشبه فى جوها المرح البهيج بحفـلات الأعراس .

وعن هذه الحفلة ايضـا تخلف آل منصور لأن بطرس كان متوعكا . الا أن فريد الذى تولى توصيل نصرى بالسيارة الى عمان فى صباح اليوم التالى حرص اثناء الرحلة على أن يمر على اريحا ليحظى الشاب الذاهب للقتـال بدعوات وبركات عم زوجته ورأس اسرتهـا .

ولم يكن نصرى قد راى بطرس منذ اربعة اشهر . فصدم بمنظره . وخيل الى نصرى ان الرجل بدت عليـه الشيخوخة والعلة فجأة ، كأنما يد الموت قد شرعت تلمسه بالفعل . وكانت صحـة بطرس قد تدهورت كثيرا فى الواقع منـذ المسيرة المشئومة من اللد الى رام الله . وساءت حالة قلبه الذى كان يعانى منه منذ سنوات ، واخذ يشكو مر الشكوى من نقرس فى الفخذ ، حتى ان اهون الحركات التى كان يضطر الى القيام

بها كانت تؤلمه ولا يقدر عليها الا وهو يظلع ظلعا شديدا .

ولم تكن آلامه الجسدية كل ما ينوء به بطرس ، فحزنه واساه ويأسه ومرارته لم تكن اخف وطأة عليه من امراضه ، فتمخض اجتماع علة البدن وعلة النفس عن تحطيم ما بقى سليما من قلبه . كان قد اعتزل الدنيا فى هذا المكان متحملا حرارته القائظة أملا فى ألا يجد ما يذكره بداره واراضيه وثروته التى تركها فى (اللد) بين يدى معتدين غاشمين يسمون أنفسهم بالاسرائيليين ، بيد انه ظل يفكر فى ذلك كله كل يوم . بل لا تكاد ساعة من ساعات اليوم تخلو من استغراقه فى ذلك التفكير ، فالتهم هذا الهم روحه كما يلتهم السرطان خلايا البدن.

لم تكن فى رأسه فكرة سوى أن فلسطين لن تتحرر وهو على قيد الحياة .. فان كتب لأنطون ان يعيش ليشهد يوم ذلك التحرير — الذى قد لا يحين الا بعد خمسين سنة — فسيكون انطون يومئذ فى مثل سن ابيه الآن . **وفى ذلك الوقت ستكون الدولة الاسرائيلية التى فرضت عنوة وغدرا على قلب الوطن العربى قد آذنت بالزوال بفعل تيار التاريخ الطبيعى . لأن الظلم لا بد فى النهاية أن تدول دولته كى يسود الحق والعدل .**

بهذا كان يؤمن بطرس فعلا ، ولكنه لم يكن يأمل ان تأتى نهاية تلك الشرذمة الظالمة فى يوم قريب جدا ، وبصورة درامية خارقة ، على يد جيش للتحرير .. وان الدول ستفرض على الطرفين هدنة فى الوقت الحاضر . هدنة ترسم فيها حدود جبرية تحكمية . وسينتهز اليهود هذه الفرصة المواتية لهم كى يعززوا مكاسبهم ويحولوا ما أحرزوه من نجاح خاطف غادر الى نصر موطد الأركان .

* * *

وبمجرد أن بـدأ البرد يشتد فى منطقة التلال اخذت جموع اخرى من اللاجئين تتدفق من رام اللـه عبر الوادى وعلى الطريق المفضى الى اريحا ، متوجهين الى القاع الدافىء لبرية تلك المنطقة المنخفضة . وأقاموا فى الكهوف أو على جوانب التلال القاحلة . ومنهم من نصبوا خياما مرتجلة . وكان عددهم بضعة آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال قادمين من اللـد ومن الرملة ومن القرى والكفور المنتشرة فى تلك البقعة من الريف . وكلهم مهلهلو الثيـاب مشردون معدمون جيـاع . **وما هم فى الواقع الا جـانب يسير — على ضخامتهم — من ذلك ((الخروج)) الفلسطينى الواسع الفاجع الذى يعتمد فى اقامة اوده وستر عريه على معونة غير مستقرة التنظيم كل هدفها ان تكفل لهؤلاء مجرد البقاء على قيد الحياة ولو فيما هو ادنى من المستوى المفروض لمعيشـة البشر !**

ومن شرفة الطـابق الأول فى دار منصور بأريحا يستطيع الناظر ان يرى فيما وراء جبل التجربة عند سفوح التـلال مدينة كاملة من الخيام الممزقة والأكشاك الخشبية والاخصاص هى النواة الأساسية لما كان مزمعا ان يغـدو اكبر معسكر للاجئين فى الأردن .

وكان بطرس وماريان يجلسـان معـا فى تلك الشرفـة وينظران اليها من خلال اشجار السرو الطويلة فى حديقتهما . ولكنهما فى كثير من الأحيان كانا يحـدقان فلا يريان شيئا لأن نظرتهما تكون قـد امتدت الى بعيـد فيتراءى لهما بيتهما فى اللـد والممر الكبير فى الحديقة وعلى جانبيه اشجار الجزورينا واشجار النخيل الباسقة . وفى ذلك الاطار تتمثل أمام ناظر بطرس سحنة تلك المراة الاسرائيلية المجندة التى بصقت عليه وأنذرته بأنه ما لم يسرع بالرحيل فلن تساوى حيـاته فلسا واحـدا !

وكانت ماريان حين تنظر الى وجهه تقرأ ما يدور فى ذهنه فى تلك اللحظات ، وتدرك انه لا يتألم لفقدان داره وأراضيه ونقوده وممتلكاته المادية فحسب ، بل انه فوق آلامه الجسدية المضنية التى حاقت به نتيجة لتلك الهجرة الشاقة يشعر بألم اقسى وادهى لما اصاب كبرياءه من جرح ، ولما يشهده من اذلال جماعى للشعب الفلسطينى بأسره . فحياتهم جميعا — وعددهم يقدر بمئات الألوف — لم تعد تساوى فلسا واحدا .

وفى أول ديسمبر قررت حكومة الأردن ضم الضفة الغربية لنهر الأردن الى أراضيها . وكانت هذه الضفة هى كل ما تبقى من فلسطين العربية فيما عدا قطاع غزة . وهكذا انتهى وجود شرق الأردن كما انتهى وجود فلسطين فى العرف الدولى ، وحلت المملكة الأردنية الهاشمية الجديدة محل دولة شرق الأردن على تخوم فلسطين السليبة . وهكذا تلاشى آخر ملاذ لحلم الوطنيين الفلسطينيين فى بقاء شخصية وطنهم المستقلة تلاشيا تاما فى هذا الجانب . ولم يبق لذلك الحلم العزيز من موئل الا البقعة الصغيرة فى الجنوب حيث تحمى القوات المصرية غزة .

وفكرت ماريان فى أبيها . ولم تكن بحاجة الى خطاباته التى ينتقى الفاظها بحيطة وحذر ومداراة كى تعرف ما يجول بخاطره وما يعتمل فى مشاعره .

وكان قد كتب اليها يقول :

— لماذا لا تأتيان كلاكما الى انجلترا ومعكما انطون ؟ ان فى الوسع ادخال انطون احدى المدارس الجيدة هنا فى انجلترا .

وقد ادركت المعنى الذى يرمى اليه بهذه العبارات :

واحست ان ما يعرضه لا يمكن قبوله ، لما فيه من معنى التخلى عن الوطن الفلسطينى نهائيا .

وكتبت اليه تقول :

ــ بطرس لن يغادر أريحا الا كى يعود الى (اللد) .

وذلك يعنى بطبيعة الحال انه لن يغادر أريحا !

ثم حل بعد ذلك عيد الميلاد ، وأعلن بطرس انه ينوى حضور صلاة قداس العيد فى كنيسة الروم الأرثوذكس بأريحا لأنه لا يجد فى نفسه ميلا للتوجه فى هذه المناسبة الى القدس . وذهب انطون معه الى تلك الكنيسة بطبيعة الحال . وكذلك ذهبت ماريان لأنها تريد فى ذلك اليوم أن تلازمهما .

كان يوما دافئا مشمسا برزت فيه صفحة السماء بهيا الزرقة خالية من الغيوم ، وكانت الأزهار اليانعة تبرز فى كل مكان مطلة فى تزاحم حافل بالألوان والعبير فوق الأسوار القديمة والعريشات المخرمة ، ما بين خمرية اللون ، وقرمزية ، وحمراء قانية ، وبيضاء ، وذهبية . فكأن الدنيا فى عرس أخذت له الطبيعة زخرفها وازينت .

وشعرت ماريان وهى تدخل البلدة الصغيرة بما كانت تشعر به دائما من فتنة هذا الاقليم ذى المياه الراكدة . الا أن ما كانت تتسم به البلدة من الهدوء الذى يشبه التهويم للكرى قد انجاب عنها ، فاذا الشارع الرئيسى الآن ــ بأشجاره الصغيرة الملتوية المعروقة ــ قد غص بأناس غرباء يجوبونه على غير هدى . والنساء منهم مكتسيات بالأثواب المطرزة المعهودة فى القرى الفلسطينية . اما الرجال فعليهم سترات أوربية رثة فوق جلابيب بيضاء او مخططة تتهدل على اعقابهم . والرجال والنساء على السواء يسحب كل منهم وراءه سربا من الأطفال الصغار ، فى تجوالهم الذى لا يفتر

له قـــرار . فكل مرادهم ازجاء الوقت : وقت اللاجئين الذى لا نهاية له لأنه لا مشغلة لهم ، وبطونهم خاوية من الجوع . **ولكن قلوبهم أجوع من بطونهم واشد منها افتقارا الى ما يبعث فيها الحرارة والدفء ..**

وتطلعت ماريان الى محيا زوجها المتجهم وهم فى السيارة ـ هى وبطرس وانطون ـ وكان يوسف يتولى القيادة ، وهى على يقين من أن ما يجول بخاطر بطرس مطابق لمـا يدور فى ذهنها : فهاهم الناس الذين عانينـا معهم مشاق تلك المسيرة الوحشية . وكل ما هنـاك اننا أسعد منهم حظا ، لأنه كان لنا مكان معد لاستقبالنا اتجهنا اليه . كان لنا بيت آخر ، أما هم .. فلم تكن أمامهم الا البرية !

وأحست ان الغضب والشفقة والألم تموج فى خليط مضطرم داخل صدر زوجها . وكذلك كان حالها ايضا . ولكن احساسه هو كان اشد ضراوة ، بما فى نفسه من نخوة الرجولة وبواعث الوطنية الجريحة .

وبعـــد ذلك شملتهما الكنيسة الصغيرة الرطبة الأنفاس ، التى تملأ العتمة جنباتها ويفغم الأنف عبير بخورها ، ومن فوق رؤوسهم شمعدان ضخم به سبع شموع تضىء كأنها النجوم الدرارى فى تلك الظلمة ، رمزا للنور الذى أفاضه على الدنيا مولد المسيح بما جاء به من هـداية الروح ورســالة الحب والسلام ونقاء الضمير .

ولم يقدر بطرس فى الجانب الأكبر من وقت الصلاة على تلك الوقفات الطويلة ، فجلس منتصب القامة الى الأمام فى مقعده ويداه متشبثتان بمقبض عصــاه . وبين الحين والحين يشير بيده راسما على صدره علامة الصليب ، مؤديا بذلك الحـد الأدنى من شعائر الصلاة ، بيد انه كان يتابع الطقوس التى يؤديها الكاهن بأقصى ما يمكن من الانتباه والاهتمام .

انه لم يكن من غلاة المؤمنين الاتقياء بطبيعة الحال ، ولكن الذهاب الى الكنيسة فى يوم عيد الميلاد أمر يقـــدم عليه المرء بحكم تربيتـــه وتعوده ، مثلمـــا يعطى الصدقات للفقراء ، أو مثلما يصيح بخدمه آمرا أو ناهيا ، او مثلما يقـــدم لضيوفه ونداماه شراب « العرق » وطعام « التبولة » ! .. فبطرس — فى الجانب الأكبر من السنة — ضعيف الايمان ، حتى اذا حل عيـــد الميلاد ، ومن بعـــده عيـــد الفصح ، جنح من عدم التصديق الى التصديق ، بحكم الرواسب التى فى نفسه من ميراث الجدود وتربية الأبوين ، فيدخل عندئذ الكنيسة ، غير متخل عن سمته واعتـــداده كأنه فى داره ، ولكنه يظل حاضر الذهن فى ضرب من الركوع المعنوى المجامل .

وكانت ماريان قد سألته ذات مرة فى فجر زواجهما :

— لمـــاذا اذن تذهب الى الكنيسة ما دمت لا تؤمن ايمانا عميقـــا ؟

فافتر فمه عن ابتسامته الأسيفة وقال لهـــا :

— لأننى فى هذين الأوانين من العـــام لا أكون واثقا تمام الثقـــة من مدى عدم ايمـــانى !

أما انطون فلم تكن فى نفسه ادنى ريبـــة ، وايمانه عميق . فوقف بجواره وراح يتابع كل ما يجرى عنـــد المذبح ، بتركيز ذهنى نشوان . وامتلأت نفسه خشوعا وخشية لتلك الطقوس المقدسة التى يجرى أمام عينيـــه تمثيلها . وعندما حان وقت رفع القربان المقدس امام انظار الناس احنى رأسه فى صلاته العميقة وهو موقن من أن هـــذه اللحظة بالذات هى اللحظة التى تكون فيها الصلوات اقدر على الصعود الى ساحة الله واستجلاب رضاه .

وكان من عادته دائما أن يصلى طالبا من اللـــه ان يعينه كى يحيا حيـــاة صالحة ، وأن يحمى ابويه من كل شر مادى

ومعنوى . ولكنه فى هذا العيد — وهو أول عيد للميلاد فى فترة التشتت الفلسطينى — رفع الى الله صلاته كلها من أجل شعب ابيه ، لانه شعر بعد تلك التجربه الوحشية ل التيه انه قد صار هو وذلك الشعب شيئا واحدا فى الحال والمصير .

تضرع انطون فى صلاته الحارة الى الله أن تشاء مراحمه التى لا نهاية لها عودة شعب فلسطين المشتت الى وطنه السليب ، لانه لا يليق بعدل الله ورحمته الا أن ينتصر الخير على الشر ، وأن يسود الحق والعدل كما وعد المؤمنين .

« .. وكان بطرس وماريان ينظران من شرفتهما الى خيام
اللاجئين .. »

— ١١ —

كان أهم ما يشغل ذهن انطون هو الضراعة الى اللـــه ان يمنحه صديقا يشغل الفراغ الذى تركه « آمين » . ولم يكن اعزازه للصبى الأعمى قـــد تغير ، ولكنه لم يعد ملازما له . ولم تتحسن الحال عندما قام بزيارته فى مدرسة العميان ببيت لحم . وكان يحلم بقضاء أمين العطلة معه فى اريحـــا ، ولكن والدة أمين اصرت على التئام شمل الأسرة فى تلك العطلة . ثم ان قضاء العطلة مع امين ما كان ليشفى غليله لأنه يشعر بالحاجة المـــاسة الى صديق يملأ حياته كل يوم ، فى المدرسة وفى خارج المدرسة .

انه لا ينكر ميله الى بعض زملائه فى مدرسته الجـــديدة ، ولكنه ميل لا يصل الى درجة الجاذبية القوية والألفة الحميمة . فما من واحد منهم يمكن ان يقول عنه فى اعتداد وثقة « هـــذا صديقى » .

وكأنما استجابت السماء لدعائه الصامت فالتقى بعد عودته الى المدرسة أثر عيد الميلاد بزميل يدعى « وليـــد حسين » ، طويل القامة ، اسمر اللون ، جميل القسمات ، ولكن لا يبدو عليـــه انه يشعر بجماله . وهو اكبر سنا من انطون شيئا ما ولا يجمعهما صف واحـــد . وكان اول التقـــاء بينهما اثنـــاء اشتراكهما فى مشاهدة مباراة لكرة القدم . واول ما لفت نظر انطون الى وليد ان وليدا ابتعد عن الزحام فى فترة الاستراحة (الهاف تايم) واوغل بين اشجـــار السرو حيث جلس على الأرض تحت شجرة كبيرة منها ، مما دل على شعوره بالوحدة فى هذا الحشد من الطلاب ، فاتجه انطون اليه وباداه الحديث

حول المباراة واحتمـــالات الكسب . ثـــم تطرق الكلام الى موضوعات شخصية :

ــ من اى بلد انت يا وليــد ؟

ــ من (بئر سبع) . كان ابى مدرسا هناك ولكننا هاجرنا منها قبل دخول اليهود اليهـــا وانتقانا الى (الظهيرية) حيث اهل ابى . وهى من قرى الحدود . هل تعرفها ؟

ــ لا . فأنا من (اللد) . جئت الى هنـــا مع اسرتى فى الصيف الماضى واسمى انطون منصور .

ــ مسيحى انت ؟

ــ نعم . وأمى انجليزية ، ولكنها تعتبر نفسها فلسطينية . وضحك الفتى الأسمر وقال له :

ــ وانت ماذا تعتبر نفسك ؟

ــ عربيا بالطبع ، مثل أبى ..

ــ حسبك هذا عروبة ، بالاضافة الى مشـــاعر والدتك الشخصية .. اما جنسيتها الانجليزية فأمر ثانوى ..

ثم جلس انطون بجواره واسند ظهره مثله الى الشجرة وقال :

ــ ان عمتى متزوجة من مسلم .

ــ وما الفرق بين المسيحى والمسلم ؟ كلنا نؤمن بالله واحد.

ــ كان ابى من كبار الملاك فى اللد . من اكبرهم فى الواقع . وانا بيت فى اريحا وبعض بساتين برتقال . ولكننا لم نعـــد أغنياء كذى قبل .

وضحك وليـــد وقال :

ــ ولكنكم لستم فقراء ! اما اهلى ففقراء . فقراء جدا ، وابى يشتغل الآن بالتدريس فى (المالحة) ، وعدد اسرتنا كبير جدا وأنا اكبرهم . وعمى مدير البنك قد تبنانى لأنه معجب بى ، وان كان يكره ابى ويزدريه ، لأنه اولا اذكى اعضـــاء الأسرة وثانيا لأنه اقلهم مالا فلا اهتمام له بشىء سوى العلم والتعليم. ولكن عمى يغيظه منى اننى لا اعرب له عن عرفانى بجميـله اذ ادخلنى هذه المدرسة على حسابه . فهو فى الواقع لم يزد على ان قام بواجبه باعتباره اغنى رجل فى الأسرة ، ولأن الحظ قد خدمه فلم يصبح لاجئا مشردا . وستزداد خيبة امله عندما يعلم اننى لا انوى الاشتغال بالتجارة والأعمال الماليـــة مثله بل أريد ان اكون معلما كأبى . ولكن ماذا تريد انت ان تكون ؟

ــ لا ادرى . فعندما كنا فى اللد قبل اغتصاب املاكنا كان المفروض اننى سأساعد ابى فى ادارة مزارعه . ولكنى لا اريد على كل حال ان اشتغل بالتجارة. وفى الوقت نفسه لا احسبنى مستطيعا ان اشتغل بالتعليم اذ تنقصنى براعتك .

ــ ومن ذا الذى قال انى بارع ؟

ــ هذا هو اعتقادى فيك . وقد قضيت الشهور الماضية هنـــا بغير صديق ، **واتمنى ان تغدو انت صديقى .**

ــ ولم لا ؟

ولم يهتم انطون بزيارة وليد فى بيت عمه ــ حيث يقيم ــ ولا بدعوته لزيارته فى بيت عمه هو « داود » ، حيث اولئك الفتيات السخيفات بنات عمته . ولكنه اهتم غاية الاهتمام بدعوته الى اريحا ، لا ليقدمه لوالديه فحسب ، بل ليجعل منه

جزءا من حياته هناك على الخصوص . وهو يعتبر اريحا وطنه الحقيقى الآن كما كانت اللد من قبل .

ولم تكن لدى وليد معرفة سابقة بأريحا سوى انه مر بهـا وهو فى سيارة عمه المسرعة . وقد سر بذهابه الى هناك مع انطون فى سيارة زوج عمته خليل وان كان الذى تولى القيادة هو عمه فريد . واعجب وليد بجمال بيت آل منصور هناك بين اشجار النخيل وبساتين البرتقال . ولكن اهتمامه الأكبر كان موجها الى تسلق الجبـل مع انطون فى اقرب فرصة . وقد ترك ابوا انطون فى نفسه تأثيرا طيبا جدا واعجب بطلاقة لسان والده انطون الانجليزية وهى تتكلم العربية ، حتى لقـد صارحها بأنه ما كان ليدرك انها انجليزية لولا ان انطون اخبره بذلك .

اما بطرس وماريان فأعجبهما تهذيبه وغفلته عن محاسن شكله وقوامه ، وسرهما ان يجد فيه انطون صديقا مخلصا ، وان كانت ماريان احست ان هذه الصداقة اعز لدى انطون منهـا لدى وليد ، وادركت ايضا ان وليـدا انكى من انطون واشد منه حيوية .. وتنبأت بأن القيادة ستكون دائما لوليد ، وان انطون سيقنع بدور التابع الأمين . وخشيت فى الوقت نفسه ان يسأم وليد يوما ما من ولاء صاحبه الصغير واعجابه الذى هو من قبيل عبادة البطولة ، فيتخلص من صحبته .

ولكن انطون لم يشعر الا بالسعادة فى صحبة هذا الصديق الجـديد الذى زادت مكانته على مكانة امين الأعمى . لأنه فى صحبة أمين كان ملزما بأن يجعل امينا يرى الدنيا من خلال عينيه . اما وهو فى صحبة وليد فهو يرى الدنيا من خلال عينى وليـد . كل ما يستملحه وليد فهو مليح وكل ما يستقبحه فهو قبيح !

وبدأ وليد يفكر فى مشروع لعطلة عيد الفصح . ولكن هذا المشروع يحتاج الى استخراج تصريحين رسميين سيتكفل بهما عمه مدير البنك ، على ان يذهبا اولا لقضاء ايام عند أقارب وليد فى (الخليل) ، وهم قوم فقراء يمتلكون حانوتا صغيرا لبيع مصنوعات الخليل الزجاجية المشهورة . وبعد الحصول على التصريحين يتوجهان الى (الظهيرية) حيث اهل ابيه الذين يفلحون قطعة صغيرة من الأرض بأيديهم . وهناك يستطيع الصبيان ان ينظرا على طول الطريق الى بئر سبع وان يتطلعا عبر الوادى الى الأرض المحتلة . **وقد يستطيعان التسلل الى هناك !**

— ولكن هذا التسلل خطر يا وليد . قد يقتلنا اليهود !

— خطر ولكنه ممكن . بئر سبع بلدى ومن حقى ان اعود اليها !

وفى هذا الحلم قضى انطون ايامه انتظارا لمقدم الربيع .

— ١٢ —

وفى يوم ٢٤ فبراير حـــددت خطوط للهــدنة بين القوات الاسرائيليه والقوات المصرية . وفى اليوم الثـالث من ابريل وقعت الأردن فى (رودس) اتفاقا بشأن خطوط الهدنة بينهــا وبين الجيوش الاسرائيلية أيضا . ولكن خط الهدنة الأردنية الاسرائيلية قسم فى طريقه كثيرا من البلدان والقرى والأراضى الزراعية بحيث فصلت قرى كثيرة عن اراضيهــا ، **وقسمت بيوت كثيرة فى منتصفهــا بحيث كانت الحجرات الأماميــة فى الأراضى الأردنية والحجرات الخلفية تحت سيطرة اليهود ! .. وبلغ عدد القرى التى مزقت شذرا على هذا النحو ٢١١ قرية حرم سكانها من مصادر رزقهم وهى الأرض التى يفلحونها . وقد اشرف على هذه المباحثات الوسـيط الأمريكى الدكتور بانش الذى كوفىء باهداء جائزة نوبل للسلام اليه .. !**

وكانت القوات الاسرائيلية قــد زحفت على (العقبة) فى الجنوب فى اثناء هذه المباحثات فى شهر مارس ، كما تقدمت قوات اسرائيلية اخرى وتغلغلت بين مواقع الفيلق العربى فى منطقــة (الخليل) .

وكان بطرس يصغى الى الأنباء فى الراديو ويطالع الصحف التى تصل اليــه ولا يكاد يعلق بشىء على ذلك كله ، لأن احساسه بالكارثة كان تاما بعد ان تمزقت وحدة فلسطين ، وبعد ان ضم الى الأردن ما تبقى من وطنه الجريح . فلا اهمية فى نظره لشىء بعد ذلك . وهيهات ان يضير الشاة سلخها بعــد ذبحهــا !

لهذا كان بطرس يأبى الخوض فى حديث السياسة مع اخيه فريد حين يزوره ، ويعجب لتحمس فريد واهتمامه البالغ بما يحدث ، واصراره على ان فلسطين سيسترد حريته واستقلاله، ويجيبه باسمـــا :

— لنواجه الواقع ! لقد قضى على شعبنا بالتشتت . وان كنت احسدك على ايمانك الذى لا يتزعزع . اشرب كأسا من الويسكى فانى احسبه اجدى عليـــك من ايمانك كله !

والحق ان بطرس كان يفرط فى الشراب . وكانت ماريان تبدى قلقهـــا لسوء تأثير ذلك فى صحته . وشاركها فريد ذلك القلق . وكان بطرس يرد على ذلك دائما بأن الويسكى يريحه من الهم والكآبة وهما اضر بصحته من الافراط فى الشراب ، ويؤكد أن مشروبه المفضل هو الشىء الوحيد الباقى فى حياته مما يراه جديرا بالمناقشة !

ولم يكن بطرس صادقا كل الصدق فى ذلك . لأنه حين يخلو الى زوجته ماريان كان يناقشهـــا فى امور جدية كثيرة ، منها مستقبل ابنهمـــا . ولم يكن تظاهره بعدم الاكتراث بالسياسة الا قناعا زائفا . وهو فى الواقع كان يتجنب المناقشة ، لا لأنه غير مكترث بل لأن الموضوع يؤلمه ألما يجعل الخوض فيـــه فوق طاقتـــه !

* * *

وكان انطون قد حصل من والديه على اذن بقضاء بضعة أيام من عطلة الفصح بالخليل . بيد ان وليد جعـــله يتعهد له بالا يبوح لوالديه بشىء عن ذهابهما بعد ذلك الى الظهيرية ،

خيفة ان يمانعا فى ذلك لقربها الشديد من خط الهدنة . وفى حالة الممانعة سيشعر انطون بتأنيب الضمير اذا خالف والديه.
وكان وليد يضيق بسلطان الابوين ويعتبره فضولا مرهقا. ولذا اقترح على انطون ان يخبر ابويه بذهابهما الى الظهيرية بعد عودتهما من هناك . وما من شىء ادل على وقوع انطون تحت سيطرة صديقه الجديد من قبوله ذلك الوضع ، خارجا بذلك على ولائه لوالديه لأول مرة فى حياته !

والحقيقة ان وليدا كان ينظر الى الأمور نظرة تختلف عن نظرة انطون اليها . فهو لا يتردد فى الخديعة والكذب اذا كان ذلك كفيلا بوصوله الى هدفه . اما انطون فهو على العكس من ذلك . والاختلاف بينهما ناجم عن اختلاف الطبائع والمزاج لا عن اختلاف العقيده بطبيعه الحال . فالكذب فى الدينين حرام ، وعدم اطاعة الوالدين فى الدينين حرام . ولكن التكوين النفسى لا يتقيد دائما بنواهى الدين واوامره .

وكان قد تقرر ان يتولى يوسف ، خادم بطرس فى اريحا ، توصيلهما الى الخليل فى السيارة على ان يعود لاحضارهما فى اليوم المحدد . وفى ساعة مبكرة من الصباح بدأت الرحلة بين التلال الصخرية والرملية الجرداء الى القدس القائمة فوق تلالها الشهيرة مشرفة على الوادى العميق . وكان وليد مشوقا الى مشاهدة المدينة المقدسة التى لم يرها منذ اكتوبر الماضى ، اما يوسف فكان فى حالة عصبية سيئـة لخوفه من القناصة اليهود وهو يقود السيارة على طول المنطقة الحرام بما فيها من بيوت قوضتها القنابل وحدائق وغياض من اشجار الزيتون العتيقة وقد اهملت وتكاثرت فروعها على غير نظام .. فكان همه كله فى الوصول الى بر الأمان واجتياز القدس بسرعة للتوجه جنوبا الى الخليل .

ولما صارت القدس وراء ظهورهم شرع وليد يكلم صديقه بالانجليزية للتعمية على يوسف ، فقال انهما سيذهبان فى الغد الى الظهيرية حيث يقيم جداه . وسيكون ذهابهما على دراجتين يقترضانهما فى الخليل . والمسافة لا تزيد على عشرة كيلو مترات . وهناك عند نقطة للمراقبة تمر الطريق المتعرجة بين التلال الى بئر سبع . ولكنك لا تستطيع بطبيعة الحال ان تسلك تلك الطريق لأنك ستصادف بعد بضعة اميال لافتة بالعبرية تشير الى خط الهدنة . **وستجد الحراس الاسرائيليين على قمم التلال من الجانبين يأكلهم الضجر متلهفين على تسلية انفسهم باطلاق الرصاص على اى انسان . وهكذا تعجز عن الوصول الى مسقط رأسك وانت على قيد كيلو مترات قليلة منها !**

وفتن انطون بالثقة ولهجة الجد اللتين يتحدث بهما وليد ، وازدادت مكانته فى نظره وهو يسمعه يقول :

— ان اهل ابى فى الظهيرية فلاحون فقراء كما قلت لك . ويقيم معهم الآن عمى منير الذى هاجر معنا من بئر سبع وكانت له فى ضواحيها ارض واسعة تغل عليه رزقا طيبا ، وكانت له غيضة برتقال وحديقة خضر ودواجن يبيع ثمراتها فى سوق المدينة كل اسبوع . وقد صارت كل هذه الأراضى الآن وراء خط الهدنة . ولكننا نستطيع ان نراها عبر الوادى ونميزها بأجمة الزيتون . وعمى يقول ان من واجب الفلسطينيين التسلل عبر خط الهدنة لا لالتقاط شىء من ثمار بساتينهم المغتصبة او لزراعة جانب من الأرض التى تسمى الآن بالشقة الحرام — فذلك لا يستحق العناء والمجازفة — **بل للاتصال ببقية الفلسطينيين العرب المقيمين فى الأرض المحتلة لتنظيم حركة جدية بالتعاون معهم . بيد انه يقول ان الأوان لم يحن بعد**

لتنظيم المقاومة . فلا بد لها من استعداد . ولكن يومهـا آت لا ريب . فليس أمامنا سبيل آخر لتحرير بلادنا بأيدينا كما هو واجبنـا . ولا أكتمك انى كنت أحلم اثناء زيارتى لوالدتى فى المالحة بأن القوات العراقية التى كنت ابصر معسكرها خارج البلدة سوف تتحرك يوما للانقضاض على حدود الأرض المحتلة والقضاء على اليهود وتحرير الوطن . ولكن هذا الحلم تبخر مع الزمن بعد أن اسعدنى فترة من الوقت . وانا الآن واثق ان فلسطين يجب أن يتحرر بيد ابنـائه قبل كل شىء . وان الآخرين لا يمكن ان يساعدونا من غير ان نساعد نحن انفسنا . ولهذا السبب يا أنطون قررت ان اصبح معلما . فالمعلم له تأثير هائل على تلاميذه ويستطيع أن يحفزهم للنضال والتضحية . والنضـال والتضحية فى سبيل حرية فلسطين همـا أحوج ما نحتـاج اليـه . وأتمنى بعـد سنوات قلائل أن يتاح لى التعليم فى مدرسة (الظهيرية) .

وكان يوسف ينظر فى اشمئزاز الى الحارة الضيقة الطافحة بالنفايات التى أمر بالدخول فيهـا عند وصولهم الى مدينة الخليل العتيقة . وازداد استياؤه وتوجسه عندما أمر بالوقوف بالسيارة قبالة بيت قديم متصدع يحتل واجهته حانوت لبيع المصنوعات الزجاجية الملونة والخرز والحلى الرخيصة ، كى ينزل السيد الصغير وصديقه .

ويوسف ينتمى الى بيئـة كهذه تماما فى اللـد . ولو خير لاختار البقاء هناك قانعا بحياته ، ولكن أمانته لعمله تجعله لا يرضى لابن سيده ما يرتضيه لنفسه . وقال قبـل انصرافه انه سيعود ان شاء اللـه بعد غد . وكرر ذلك لسيده الصغير فى حزم . ولكن استياءه من نزول ابن بطرس منصور فى هذا البيت لم يمنعه من قبول الدعوة بكل سرور لاحتساء كوب من الشاى فى ذلك الحانوت المتواضع قبل ان يتجشم مشاق الرحلة المضنية عائدا الى اريحـا .

وصعد وليد مع صاحبه سلما معتما داخل البيت ليقـدمه الى خالته وابنائها وبناتها . وكان وليـد يحب خالته لشدة شبهها بامه التى كان يحبهـا اعظم الحب .. وخالته هـذه سوداء العينين ، فى منتصف العمر ، تتموج خصلات شعرها الأشيب فوق جبينها من تحت طرحة بيضاء ، وقوامها النحيل مختفٍ تمـاما تحت ثوب طويل من الصوف الرمادى . وهى ذات ابتسامة عذبة وبشاشة استطاعت أن تمحو بهما خجل انطون المعهود امام الغرباء .

وكان واضحا جدا أن وليدا سعيد غاية السعادة بلقـاء خالته وأولادها ، اذ قبل يدها ولاعب اولادها الصغار وبـدا

عليه الانطلاق على سجيته بصورة لم يعهدها فيه انطون من قبل ، وهو الذى يعرفه فى المدرسة متعاليا منطويا شـديد الاعتـداد بتفوقه الذهنى . أما فى اريحـا فوليد على الدوام ابعد ما يكون عن الانبهار بالبيت الفخم والمكانة الاجتماعيـة الرفيعة التى يتمتع بها بطرس بك . أما هنـا فى الخليل بين أهل امه فهو شىء آخر . انه فرد فى اسرة .

وغبطه انطون على هـذه الطلاقة التى لم يشعر بمثلهـا شخصيا وهو فى بيت داود مع بنات عمته وزوجها ، فيما عدا بعض اللحظات القـلائل التى يقضيها منفردا بابنـة عمته ((ثريا)) .

وزوج خالة وليد صاحب ذلك الحانوت المتواضع رجل جم النشاط ، ذو شارب صغير أنيق وابتسامة ودية لا تفـارق شفتيـه . ولديه قدرة على اجتذاب قلوب زبائنه واقناعهم بسهولة انه يكرم كلا منهم فى الأسعار اكراما خاصا . وكان إبنه الأكبر فؤاد يساعده فى أعماله ، وهو شاب وسيم رقيق الحاشية بارع فى الاقناع براعة ابيه الذى اعفاه من العمـل فى ذلك اليوم ليصحب ابن خالتـه وضيفه فى تجوالهما هنـا وهناك داخل البلدة وضواحيها .

وتعجب فؤاد عندما عرف من انطون انه رغم بلوغه الثالثة عشرة لم يزر انجلترا مرة واحـدة ، حيث يقيم جـده لأمه . وسأله :

ــ الم تذهب والدتك الى وطنها مرة واحـدة ؟

فابتسم انطون وقال :

ــ انهـا تقول دائما ان فلسطين وطنها .

ــ لم يعـد لهـذا الوطن وجود !

وعندئذ تدخل وليد فى الحديث بسرعة قائلا :

— بل سيعود الى الوجود اذا جاهد الفلسطينيون لاستعادته !

— على أيام احفادنا او ابناء احفادنا !

— بل قد يحدث ذلك فى ايامنا . كل شىء يتوقف علينا !

— وما رأيك انت يا انطون ؟

— وليد على حق يا فؤاد . فلو استطعنا تنظيم حركة للمقاومة فى الأراضى المحتلة ..

— فكرة جميلة . ولكنها مجرد حلم !

وعندئذ ثار وليد وقال لابن خالته :

— واسرائيل ؟ الم تبدأ فكرتها بحلم اشد من هذا الحلم امعانا فى الخيال ؟ لو سيطر هذا الحلم على قلوب مليون فلسطينى شاب فلا بد ان يحفزهم على تحويل الحلم الى حقيقة ، بالاصرار والكفاح !

* * *

ولم يصحب فؤاد وليدا وانطون الى الظهيرية فى اليوم التالى لأن اباه كان بحاجة اليه كى يعاونه فى الحانوت . ولكن وليداً استعار منه دراجته للذهاب الى الظهيرية ، وحصل لأنطون على دراجة أخرى ، وانطلق الاثنان فى الطريق الأبيض المترب — طريق بئر سبع — صوب الحدود . وهى طريق كثيرة المنحنيات تحف بها التلال الجرداء البركانية والصخور وكتل الحصى والجلاميد . وبين الحين والحين كانت تطالعهما حقول صغيرة يحرثها رجال ونساء مستعينين بالجمال والبغال .

وقال وليد لأنطون وهما على الطريق :

— عندما كنا نقيم فى بئر سبع كان من عادتنا أن نذهب بالسيارة العامة من هذا الطريق نفسه لزيارة خالتى فى

الخليل . وفى بعض الأحيان كنت اذهب الى هناك مع بعض اخوتى بالدراجة ونستريح فى منتصف الطريق بالظهيرية . **أما الآن فلا نستطيع ان نتجاوز الظهيرية بأكثر من تسعة كيلو مترات بسبب خط الهدنة . ولذا أصبح طريق بئر سبع مهجورا ، وهو الطريق الذى كان يسلكه الناس من قبل الى القاهرة بغير عائق !**

وبعد ان قطعا فى الطريق نحو ساعة انفسح الأفق امامهما وابصرا قرية صغيرة على جانب تل يبعد عن الطريق قليلا فصاح وليد :

ـــ الظهيرية ! ولكنى احذرك من خيبة الأمل عندما ترى بيت جدى . فهم فقراء جدا . ولكنهم سيرحبون بنا أحر ترحيب .

وبين صفوف من البيوت المبنية بالطين وقد تصدعت جدرانها ، وخرجت منها كلاب هزيلة نابحة يزيد عددها على عدد أشجار التين ويكاد يتساوى مع عدد الأطفال الحفاة فى أسمالهم البالية ، شق الرحالتان طريقهما . وفجأة ظهر غلام فى جلباب رث مخطط ورحب بوليد وعانقه وقبل وجنتيه ، وقدمه وليد لأنطون :

ـــ ابن عمى سعيد .

وقال سعيد ان اباه وجده فى الحقل ولكن امه والأطفال و « جدته » فى البيت . وانه سيصحبهما الى الحقل بعد أن ينالا قسطا من الراحة ويشربا الشاى ويغتسلا .

ودخلا فناء تغمره الشمس ويلعب فيه عدد من الأطفال الصغار تحت نظر امراتين احداهما بدينة عجوز والأخرى نحيفة شابة مليحة الوجه تعجن جانبا من الدقيق فى وعاء أمامها على الأرض . ونهضت هذه الشابة ورحبت بوليد وضيفه . وعرف انطون انها عمة وليد وأن العجوز جدته . وقام وليد بتقديم انطون واوجز تاريخ حياته فى كلمات قلائل

للمراتين . وكان اهم ما اوضحه لهما ان اسرته من اللد وانهم من بين من اخرجهم اليهود من ديارهم . واظهرت المراتان عطفا بالغا على انطون وما منيت به اسرته من الشدائد .

ثم خرجت زوجة عمه منير من البيت حاملة خوانا نحاسيا تعلوه أكواب الشاى ، مرتدية ثوبا فضفاضا اسود اللون مزركشا من الجانبين بنقوش حمراء . وخيل لانطون من فرط رقتها انها تطير فى الهواء ولا تمشى على الأرض ، وذكرته عذوبة ملامحها بأيقونة قديمة للسيدة العذراء .

وبعد احتساء الشاى وتبادل كثير من الأسئلة عن أحوال الأقارب والمعارف نهضوا جميعا وتولى سعيد قيادة الغلامين وسط تيه من الأزقة الى الأرض المكشوفة التى تحف بها التلال .

ووسط الحقول التى يعمل الرجال والنساء فى فلاحتها مستعينين بالجمال والبغال أبصرا دربا غير ممهد يسلكه الناس ويؤدى فى النهاية الى ارض عراء تحت سفوح التلال الصغيرة تشغلها عشرات من خيام البدو السوداء .

ولاحظ وليد أن انطون يرمق تلك الخيام السوداء باهتمام ، فقال له :

ــ هؤلاء ايضا لاجئون . لا مورد لهم هنا الا عطف أهالى المنطقة الفقراء .

وعبر الثلاثة دربا آخر وساروا قليلا فوق التربة الحمراء الى أن بلغوا قطعة من الأرض يقوم بعزقها رغم وعورتها وكثرة الصخور فيها شيخ متقدم فى السن ، وشاب وسيم فى نحو الخامسة والثلاثين .

وانتصب الرجلان عندما ابصرا الغلمان الثلاثة يقتربون منهما . ثم لم يلبثا ان اطلقا صيحات الدهشة والترحيب . ومرة أخرى كان على وليد ان يدلى لعمه « منير » وجده

بالبيانات الكافية عن زميله وصديقه انطون . وما ان عرف منير بغرضهما من هذه الرحله وهى مشاهده (بئر سبع) عبر الوادى حتى تأججت حماسته واظهر اهتماما بالغا ، وتطوع من تلقـاء نفسه بأخذهما الى ذلك الموضع من التلال الذى يستطيع الواقف فيه أن يرى — عبر الوادى — ارض منير ، وبساتين البرتقال ، ومزرعة الدواجن ، وأجمة الزيتون التى استولى عليها اليهود ويستغلونها الآن اسوأ استغلال !

— ١٤ —

سار أربعتهم فى درب وعر مسافة لا تزيد على بضع ياردات الى أن بلغوا جانب التل فارتقوه ، ليجدوا امامهم منظرا فسيحا لواد متماوج الأديم ، تحـده من الجانب الآخر سفوح جبال صغيرة قائمة الارتفاع كأنها الجدار الأصم ، وقد بدت الأرض فى أشعة الشمس اللطيفة فى تلك الظهيرة من شـهر ابريل جميلة وادعة .. فوقف السائرون برهة صامتين ينظرون فى جنبات ذلك الوادى ، وقـد استولت على مشاعرهم المفارقة المذهلة : بين الجمال الآمن والوحشية الغاصبة التى تتمثـل فى التفريق بين هذه الأرض الموروثة وبين ابنائها الذين امتزجت أجساد اجدادهم بترابها ، ورووا اديمها بعرق جباههم سنين عـديدة ..

وقطع الصمت الحزين المتوتر قول الرجل المسن مهمهما : « يا لأرضنا الجميـلة السليبة ! » .. وكأنما كانت هـذه الكلمـات ايذانا لكل منهم بأن يقول ما يجول فى خـاطره ، فلمس منير ذراع انطون وقال له :

— أترى شـجرة الزيتون تلك التى تتراءى هنـاك عن

يسارك ، فوق مستوى الأرض بقليـل ، عنـد أولى بدارى هـذا التل ؟

ــ نعم . تلك التى هناك قرب النخلات الثلاث .

ــ تلك زيتوناتى . ومن تحتها حديقة خضرواتى . كيف لا يدرى كل من ينعم بهـذه الثمار انه انما يشترى سـلعا مسروقة . سلعا مغصوبة من أصحابها الشرعيين ؟

وتأثر انطون تأثرا شديدا ، ولكنه غالب تأثره وقال : « يوما ما ستزرع هـذه الأرض بنفسك مرة أخرى ! » .. فقـال الشيخ المسن فى همهمته الخفيضة : « ان شاء اللـه يابنى . ان شاء اللـه . » .. ولكن منير أجاب بحـدة : « سواء زرعتها أو لم ازرعها بنفسى ، فيوما ما سأعود ! »

ثم استداروا بوجوههم ومشوا فى صمت عائدين الى الطريق الرئيسى ، وقد أصبح طريق (بئر سبع) باديا للعيان بوضوح تحت أقدامهم .. ذلك الطريق العتيق الذى يتلوى ويتعرج بين التلال الجرداء التى تطبق عليـه من الجانبين .

واستوقف « وليـد » « انطون » ليشير له الى الطريق ، وقال : « ليس فى وسعك أن ترى (بئر سبع) من هنا ، لأنهـا تقبع متوارية هناك خلف تلك التـلال . والحراس الاسرائيليون جاثمون على رؤس التلال على جانبى الطريق » .

وقال منير : « اننـا كثيرا ما نراهم ونحن نعمل هنـا فى الحقول ، وينظرون الينا من فوق ونحن نعمل . ونحن نعلم أنهم هناك يرقبوننا ، وهم يعلمون اننا نعلم ذلك » .

فاستطرد وليد : « وعلى هـذا الجانب نقطة مراقبة بها جنود من الحـرس الوطنى الأردنى يستطيعون من موقعهم العالى ان يروا الطريق الى مسافة بعيدة بوضوح . وبتصريح منهم تستطيع أن تمضى حتى الأحجار البيضاء الدالة على خط الهـدنة . فاذا تجـاوزت ذلك الموضع وجـدت الطلقات

الاسرائيلية فى انتظارك من جانبى الطريق . و (بئر سبع) لا تبعد اكثر من خمسة عشر كيلومترا ، للسائر من هذا الطريق . تصور هذا ! انها مسافة لا تزيد على المسافة التى قطعناها من الخليل الى هنا ! ولكن الطريق لا يصلح الا وسيلة للهداية المؤقتة ، لأنك متى أوغلت فى الوادى غاب الطريق عن نظرك وراء التلال . فاذا درت حول التلال صرت فى محاذاة الطريق مرة أخرى .. ! »

وكان « سعيد » قد لحق بهم ، فقال ضاحكا : « جميع التفاصيل واضحة فى ذهن وليد . حتى لتحسبه وهو يتكلم قد أعد خطة مفصلة للتسلل ! »

فأجاب وليد ، جادا : « **هذا صحيح . ولكن الأوان لم يؤن بعد . فلا بد لى من قضاء عطلات كثيرة أخرى هنا ادرس فيها كل صخرة وكل مسلك ، الى أن يمسى فى استطاعتى التعرف على طريقى فى ليلة ظلماء لا قمر فيها . بل ينبغى أن آتى وأعيش وأعمل هنا حتى يألف جنود الحرس الوطنى والبدو منظرى ويصير فى مقدورى أن أغدو واروح من غير ان أثير ريبتهم أو فضولهم ! »**

فرمق منير ابن اخيه بنظرة اعزاز وسرور وهم عائدون فوق الأرض المحروثة فى اتجاه القرية ، ثم قال بعد برهة :

ــ يبدو انك رتبت كل شىء سلفا !

ــ ليس كل شىء . ولكن كل شىء سيكون معدا بجميع تفاصيله عندما يحين وقت استعدادى للانطلاق ..

وفى البيت جلسوا مرة أخرى فى الفناء المشمس فوق عدد من الوسائد والحشايا ، وانعشوا أنفسهم باحتساء اكواب الشاى الصغيرة ، فى حين انصرفت النساء وبصحبتهن نساء الجيران اللواتى جئن كعادة العرب للمساعدة فى المناسبات ، كى

يصنعن عـــدة الوان من الطعام فوق مواقد مكشوفة صنعنها من قوالب الآجر .

وفى خلال الانتظار الطويل لنضج الطعام ، وجــه منير الى انطون أسئلة حول المسيرة المشهورة من (اللــد) ، وحول الأحوال فى (رام اللــه) عندما تدفق عليهــا المهاجرون من اللــد وغيرها ، وعن أريحا وما صارت اليه الآن .. وحدثه من جانبه عن بئر سبع .. وشعر أنطون بحداثة سنه وعدم كفاءته لهــذا الحديث ، وتمنى لو أن أباه كان حاضرا لينهض بادارة دفة الحديث على خير وجــه . بيد أن «منير» اعجب بالغلام كثيرا وناشده ان يقنع اباه بابقائه هنا فلا يرسله الى الجامعة فى انجلترا بعد اتمام علومه الثانوية :

ــ ابق هنا واعمل مع «وليد» كى تكون واحدا منا !

واجاب انطون انه كان يود ذلك ولكن والده مصمم. واردف :

ــ فى وسعى دائما ان اعود .

ــ ان شاء الله . ولكن المرء لا يستطيع ان يكون على يقين من امر العودة . فما ان تغادر مكانا ما حتى تجد من الصعب جدا فى بعض الأحيان ان تعود اليه . هــذه تجربتى وتجربة كثيرين .

وغدا الحديث عموميا. ونهض وليد بجانب كبير منه فى براعة، ففاضت نفس انطون بالاعجاب به . فما اروع ان يكون للمرء صديق لامع كهذا . وتمنى من اعماق قلبــه ان تمر السنون سراعا كى يقارب وليــدا فى المستوى الثقافى والذهنى . وخطر بذهنه انه حين يغدو فى السادسة عشرة ووليد فى الثامنة عشرة لن تكون الهوة بينهمــا بهذا العمق .

وبعد أكثر من ساعة اقبلت زوجة منير فدعتهم الى الطعام ، فنهضوا أولا الى ركن من الفناء حيث قام سعيد بصب المــاء

على ايديهم من ابريق نحـــاسى له ميزاب طويل . وجففوا ايديهم بقطعة من القماش الأبيض النظيف ، ثم دخلوا الدار .

وبدا داخل الدار فى البداية شديد العتمة . ولكن عنــدما تعودت العيون على تلك العتمة رأوا امامهم مائدة مستديرة منخفضة جدا ــ «طبلية » ــ موضوعة على الأرض فى وسط الحجرة وعليها أطباق كثيرة ، تتوسطها قصعة بها تل ضخم من الأرز باللوز ، وقد دست فيه ارباع من الدجاج المحمر . وكانت النساء قد انتهزن فرصة انشغال الرجال بغسل ايديهم فأتين بالوسائد والحشايا من الفناء ووضعنها حول «الطبلية» .

وجلس منير وابن أخيه وضيف ابن اخيه . ولمـــا كان انطون ضيف الشرف فى تلك الوليمة فقد دس منير يده فى جبل الأرز واستخرج قطعة ممتازة من الدجاج المحمر قدمها اليــــه .

ولم يكن انطون قد جرب الأكل على هذه الطريقة من قبل . وقد وجدها طريقة طريفة، لولا انها صعبة على من لم يتعودها . وبطبيعة الحال كان اكل الدجاج باليدين اسهل من اكل الأرز بلقم كبيرة من الخبز .

ولم تأكل النساء مع الرجال بل انصرفن لخدمتهم.وعندما قارب الطعام نهايته ذهبت زوجة منير لتصنع القهوة ، وعاد الرجال الى الفناء حيث غسلوا ايديهم واسترخوا فترة قصيرة فوق الحشايا وهم يحتسون القهوة العربية المرة السوداء .

وبعد قليل اعلن وليد انه لا بد ان يشرع وصديقه انطون فى رحلة العودة الى الخليل ، فخرجت الأسرة عن بكرة أبيها الى الطريق الرئيسية لوداعهما ، والحوا عليهما بتكرار هذه الزيارة فى وقت قريب ، ثم شيعوهما بالكثير من صيحات «مع السلامة » ودعوات الرعاية والتوفيق .

وقال وليد بحرارة ، وهمـــا يدرجان بين التلال الجرداء : « انهم قوم طيبون . وأنا اشعر دائما بالأسى عند فراقهم . ولكنى سآتى يوما ما واعيش بينهم ، وسأحضر معى والدى . » .. ثم ضحك ضحكة سعادة صافية ، واستطرد : « **سنكون عندئذ معا مرة أخرى ، على طريق (بئر سبع) ! وانى لآمل ان تاتى عندئذ وتستقر معنا هنـــا . وسنعد العدة للتسلل الى « بئر سبع) معا يا عزيزى انطون ! »**

فأجابه انطون بحماسة :

— ان شاء الله !

— ١٥ —

تركت زيارة (الظهيرية) فى نفس انطون اثرا عميقا ، وظل يفكر فيهـــا باستمرار عنـــد عودته ، ويدير فى رأسه الأمور التى حدثه عنهـــا « وليـــد » وعمه حول طريق (بئر سبع) القديم الذى لا يجسر الآن انسان على السير فيـــه ، بسبب قناصة اليهود المتربصين فى التلال على جانبيه وعند منعطفاته الكثيرة .

وكان رد الفعل لديه لأحاديث وليد — عن التسلل وانشاء حركة مقاومة داخل اسرائيل — لا يعدو ان يكون ضربا من خيالات صبيان المدارس فى ذلك الحين ، ولكن كانت فى تلافيف هـــذه الخيالات بذور مختمرة لأفكار غرسها « وليد » فى ذهنه الغض .

واستطاعت الحياة العادية فى المدرسة ان تستأثر بعد حين بمعظم اهتمام انطون ، ولم تعد القضية الفلسطينية ذات شأن كبير فى نظره . ووليد نفسه شغله الاستعداد للامتحانات عن

الخوض فى موضوع القضية الكبرى وتحرير الوطن السليب من ايدى الغاصبين .

وطغت حرارة الصيف المخيفة مرة اخرى على (اريحا) ، فظل انطون مقيما فى (رام الله) . وارهقت هـــذه الحرارة اعصاب ماريان الى حد الاعياء ، فراح بطرس يحثها باستمرار على الصعود الى التلال الرطبة . ولئن كانت غير ميالة للاقامة فى رام الله مع منى وخليل ، ففى وسعها على كل حال ان تقيم مع والدى نصرى فى بيتهم بضواحى القدس . وان كانت كارهة للذهاب الى هناك وحدها فهو مستعد أن يذهب معها وان يبقى بجوارها بضعة أسابيع .

وكان ردها على مثل هـــذا الكلام ابتسامة اعزاز ، ثم كانت تعيـــد عليه قولها الذى تكرره دائما : « **ان البقاء حيث نحن يتقاضانا مجهودا اقل من الانتقال الى اى مكان آخر ، بحيث تبدو الدرارة فى ظل الراحة امرا محتملا.** » . . فقد كانت تعلم ان بطرس لا رغبة لديه فى مبارحة بيته بأريحا . وانه يفضل تحمل الحر المحرق على الاضطرار لمجاذبة اطراف الحديث مع من يلتقى بهم من النـــاس متى غادر ذلك البيت ، فان (دار السلام) بأريحا هى واحة الأمان الوحيدة له فى هذا العـــالم المنقســـم .

. . وكذلك كانت زوجته ماريان ، تؤثر عذاب الحر على ضجة الحياة العائلية الصاخبة فى بيوت اصهارها . وكانت تذهب الى سوق اريحا احيانا مع الطاهى يوسف او زوجته لشراء لوازم البيت أو احضار البريد . وكان والدها يرسل اليهـــا الطبعة الاسبوعية من « التايمز » بالبريد الأسبوعى ، كما ترسل اليهـــا امها بطريق البحر احدى المجلات النسائية الحافلة بوصفات للطهو بعيدة عن التوفيق ، ونماذج للازياء

اشد بعدا عنه ، وقصص غرامية لا يمكن ان تدخل فى عقل انسان راشد . وكانت امها تصر على موافاتها بتلك المجلة كى تبقى على اتصال بما يجرى من حياة عائليه للطبقة الوسطى فى انجلترا . ومن حين لآخر كان والدها يرسل اليها ملحق ((التايمز)) الأدبى لتظل على اتصال بالثقافة الانجليزية العالميه .. وهكذا كانت ماريان تجلس فى الشرفة بجوار المروحة عندما يشتد الحر ، وتأخذ فى تقليب صفحات هذه المطبوعات وفى ذهنها من الهمود ما يمنعها حتى من قراءة العناوين بطريقة مجدية !

اما فى المساء فالحرارة تهبط بضع درجات ولكنها لا تصل الى الحد المنعش ، فتتعشى ماريان مع بطرس فى الشرفة التى تطوقها الاسلاك الرفيعة بشبكة تمنع عنها الهوام ولا سيما الناموس . ومن جوف الظلام الحالك تترامى اليهما اصوات الجنادب فى الحديقة . وبين الحين والحين يأتيهما عن بعد صراخ ابن آوى ، فترتعد فرائص ماريان خوفا .. وبمجرد الانتهاء من تناول العشاء وانسحاب الخدم ، يضطجع الاثنان فى كراسى القش المنخفضة ويصغيان للاذاعات .. ففى بعض الليالى تذيع محطة بيروت برنامجا جيدا من الموسيقى الغربية . ولكنهما يهتمان فى الغالب بالاصغاء للانباء وللاغانى الشرقية الغرامية التى تفيض اسى وشجنا .. ثم يأويان فى النهاية الى فراشهما ، لا ليخلدا للنوم — لأن الحرارة الخانقة لاتسمح بذلك — بل لمجرد الاستلقاء تحت المروحة الكبيرة المعلقة فى السقف والاسترسال فى احاديث متقطعة ، تفصلها فترات صمت طويلة .

وفى بعض هذه الاحاديث قد تثير ماريان ذكر الحياة السابقة فى (اللد) . وحين تصمت تفكر بينها وبين نفسها فى زوجة بطرس الأولى ، ويخامرها الفضول بصددها ، رغم ازدرائها

لهـــا . اما بطرس فيطرق فى شرود ويفكر فيما عساها كانت تكون عليــه حياة ماريان لو انها لم تسمح لنفسها بالتورط فى زواجه . انها كانت حرية الآن ان تكون فى انجلترا مع ابويها ، متزوجة من رجل انجليزى يقاربها فى السن ، بدلا من الاضطجاع فوق هذا الفراش مع رجل مسن عليل ، تصطلى حرارة اريحا المحرقة تحت مستوى سطح البحر !

وعندما تلح عليه هـــذه الافكار الحالكة ، كان يتحسس فى الظلام باحثا عن يدها ، كى ترتد اليه الطمأنينة عندما يتلقى على يده ضغطة الاستجابة من يدها .

وفى احدى تلك الليالى ، قال لها : « لماذا تزوجتنى يا عزيزتى المسكينة ماريان ؟ ماذا كسبت من وراء ذلك ؟ »

ــ شيئين : انت وانطون !

ــ زوج مسن وولد وحيد . وحتى البيت المناسب ضاع من يدك . ولم تبق لك الا (اريحا) على مدار السنة !

ــ لطالما احببت (دار السلام) واحببت اريحا .

ــ انك لم تذوقى عذابها فى أغسطس من قبل !

ــ كل شىء يتعوده الانسان بالتدريج .

ــ اعترفى على الأقل انك تتوقين لانجلترا منذ حللنا هنا !

ــ لماذا تقول هذا ؟ انى لم اتشوق الى انجلترا ! بل تشوقت للد ول (دارة الخير) ! ولكن كان من الجائز ان نهلك فى البرية كما هلك كثيرون غيرنا . فالحمد للـــه اننا وصلنا سالمين الى هنا واجتمع شملنا ! ان الحر شديد فلا تجعلنى ابكى لكلامك هـــذا !

ثم تنفجر باكية فيخفف ذلك من توترها العصبى .

* * *

وفى اول نكرى للخروج من اللد استولت على بطرس رغبة

محمومة فى السفر الى الحدود والنظر عبر السهل الساحلى الى البحر . وربما استطاع أن يقف فى موضع ما يبصر منه اللد نفسها . وفى هذه الحالة لا بد من تصريح من السلطات العسكرية . ولكن مثله لن يجد عناء شديدا فى الحصول على ذلك التصريح .

واستولى الأسى على ماريان عندما اخبرها برغبته فى طلب ذلك التصريح وقالت :

ــ كيف يمكن ان تتحمل منظر اللد من بعيد وانت عاجز عن دخولها ؟ سيكون وقع ذلك سيئا عليك .

ــ بالعكس . ان السجين يجد سلوى فى مشاهدة زوجته عندما تزوره من وراء القضبان ، مع أنه عاجز عن معانقتها !

ــ ولكن الانفعال سيكون قاسيا عليك !

ــ لن آخذك . سآخذ معى انطون وسيتولى يوسف القيادة .

ــ لا أستطيع البقاء هنا وتركك تمضى مع انطون . وما دمت مصمما فسنذهب كلنا كما قطعنا كلنا تلك المسيرة عند الخروج . وأنا واثقة ان المسألة كلها خاطئة من اساسها !

ــ ليس بالنسبة لى ياعزيزتى . **ان هذه الرحلة لا غنى لى عنها . وانها اشبه بالذهاب الى الكنيسة فى عيد الميلاد أو عيد الفصح ! انها فرار مقدس . بل حج !**

ــ ١٦ ــ

اعدت الترتيبات للقيام بهذه الرحلة فى صباح السبت كى يتسنى لانطون الاشتراك فيها . وانطلقوا بمجرد شروق الشمس مخترقين الوادى الى (رام الله) . وكان يوسف كارها للقيادة فى البرية فاقترح الذهاب عن طريق القدس ، على اعتبار أن الحالة الآن هادئة .. ولكن بطرس اعترض

بشدة ، لا خوفا من القناصة بل لأنه كان لا يطيق أن يرى المدينة المقدسة مقسومة ، وأن تكون بعض معالمها الحبيبة في أيدى اليهود !

وتذكرت ماريان فى تلك الرحلة اسفارها القديمة . وتذكرت على الخصوص رحلة القدوم الى اريحا منذ سنة ، فى اول عهدهما بالهجرة . ووقع نظرها على مخيمات اللاجئين من البدو ، وحول خيامهم السوداء قطعان الماعز ، وبضعة جمال ترعى الشوك فى البرية ، وعجبت كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يعيشوا فى ارض خالية من الماء .

ووصلوا الى (رام الله) فى نحو الثامنة صباحا ، فاذا بالهواء المنعش محمل بعبير أشجار الصنوبر ، فراحا يملآن صدريهما فى سرور وكل منهما يرمق الآخر باسما . ولا شك ان يوسف لم يكن اقل منهما سرورا وهو يستنشق ذلك الهواء المنعش أمام عجلة القيادة . وكانت رام الله قد خلت تقريبا من اللاجئين الذين كانوا يبيتون على ارصفة شوارعها وفى ظلال زيتونها ، بعد ان قامت السلطات بترحيلهم الى معسكرات اقيمت على سفوح التلال .

وكان فريد وماجدة ونادية وانطون ووليد وبنات داود يتناولون جميعا الافطار فى الشرفة الكبيرة بالطابق الأول ، عندما وقفت سيارة بطرس منصور امام بوابة الحديقة ، ونفخ يوسف فى بوقها ، فنظر الجميع صوبها واسرع انطون يهبط السلالم ويخترق الحديقة لاستقبال ابويه .

وكان وليد موجودا لأن انطون الح على ابيه فى اصطحابه الى (بدرس) وهى قرية على الحدود تواجه (اللد) . وكان سرور وليد عظيما عندما سمح بطرس بك بذهابه معهم . والحقيقة انه استبشر بقيام آل منصور بتلك الرحلة لأنها ستقوى من

شعور انطون بمأساة الاحتلال والتقسيم حين يقف على الحدود ويرى مسقط رأسه على مرمى البصر وهو عاجز عن الوصول اليه لأن الغاصبين يحتلونه !

ومكث آل بطرس منصور ساعة لتناول القهوة وتبادل الأخبار ومنها أن نصرى عين فى الفيلق العربى ، وان نادية ستضع طفلها الجديد — من زوجها — فى نهاية الشهر ، وسيحضر نصرى يومئذ فى اجازة . اما « منى » وخليل فكانا غائبين عن الدار فى زيارة لوالدى خليل فى (جنين) الواقعة فى الشمال . واعتذر فريد من عدم قبول الدعوة للانضمام الى المسافرين صوب (بدرس) لأنه بدأ مشروعا جديدا هو ادارة «جاراج» مع لاجىء فلسطينى آخر ، وعليه أن يعنى بأشياء كثيرة منها انه سينتقل مع ماجدة ونادية الى « شقة » فى وسط المدينة بالقرب من « الجاراج » بعد ولادة الطفل مباشرة .

واتفقت كلمة الجميع على أن بطرس يبدو منحرف الصحة ، وان ماريان يبدو عليها الاعياء ، وانهما يخطئان خطأ فادحا بالبقاء فى أريحا طوال الصيف ولهما بيت مفتوح لاستقبالهما فى رام الله . ولم يجب بطرس وماريان على ذلك كله بغير الابتسام والاعتذار .

وفى النهاية انطلق الركب صوب (نعلين) ، وانطون يشرح لصديقه « وليد » معالم المسيرة التى قطعاها فى البرية مع عشرات الألوف من المهاجرين من (اللد) . وكيف أن الحظ واتاهم فوصلوا سالمين لأن سيارة زوج عمته خليل داود حضرت لتقلهم من مسافة بعيدة . ولكن الوفا غيرهم هلكوا فى البرية !

وعند قرية (نعلين) طلب انطون من ابيه ان ينتظروا قليلا كى يرى صديقه « وليد » معالم المغامرات التعسة التى حدثت فيها منذ عام ، وكيف كان عشرات الألوف يتكالبون على نبع

الماء الوحيد ! .. أما بطرس وماريان فكانا ينظران الى هذه المواضع المثيرة للشجن ولا يتكلمان .

وبعد قليل استأنفت السيارة مسيرها الى نقطة للمراقبة يحف بها نبات التين الشوكى ، فأبرز بطرس التصريح الذى يحمله ، وركب فى مؤخرة السيارة رجل من الحرس الوطنى ليصاحبهم حتى قرية (بدرس) * ، وبطرس جالس بجوار السائق قابضا بيديه على عصاه ومنحنيا الى الأمام مطبق الشفتين ، يحدق فى السهل الساحلى المترامى من تحته ، ذلك السهل الذى يفضى الى البحر . انه سهل فلسطين المحرم على الفلسطينيين !

وعلى جانبى الطريق كان الأطفال الحفاة العجاف يخرجون بعيون لامعة ليلوحوا بأيديهم للسيارة وليجروا وراءها . وعندما انتهى الطريق الوعر الى موضع لا يصلح لمسير السيارة ، توقف يوسف ونظر الى سيده متسائلا . فقال له بطرس : « انتظر » .

ثم نزل ، تتبعه ماريان والصبيان وجندى الحرس الوطنى الذى قادهم الى مرتفع من الأرض على سفح التل ، وراء آخر بيت من بيوت القرية . وهناك وقفوا جميعا ينظرون الى السهل من تحتهم . وعلى مسافة قريبة ، وسط الضباب الذى تصعده الحرارة الشديدة ، قال لهم الجندى أن مدينة (اللد) تقبع هناك . ثم خلع نظارة الميدان من عنقه وسلمها لبطرس الذى شكره ووضعها على عينيه وراح يضبطها ، ثم جمد فى

---

* دمر اليهود بالقنابل تلك القرية الصغيرة بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ ، فى سنة ١٩٥٣ ، عندما هاجموا فى نفس الوقت قرية (قبية) القريبة منها ونسفوا بالديناميت ٤٢ بيتا على سكانها ! .. ومن فر منهم حصدوه بالرصاص ، فكانت مذبحة أشبه بمذبحة (دير ياسين) !

مكانه وركز حواسه كلها فى عينيه : **ها هى مآذن المساجد وأبراج الكنائس وصهريج الماء . ها هى المعالم المألوفة فى المدينة الحبيبة . وبعد دقيقتين التفت الى ماريان ومد اليها يده بالمنظار وهو صامت ، ولكنها هزت رأسها .. فقال انطون فى لهفة بالغة : « أنا من فضلك يا أبى ! »**

فقدم اليه أبوه المنظار ، ولم يلبث ان صاح الفتى : « كل شىء يبدو فى غاية الوضوح ! »

فقال بطرس بألم : « ما عدا بيتنا ! »

— ولكنى أرى بيوتا كثيرة غيره . واشجار النخيل فى الحدائق . انظر يا وليد ! ها هى اللد ! وبيتنا هناك وفيه كل مقتنياتنا . تصور !

وتناول وليد المنظار من أنطون . واعتمدت ماريان على ذراع زوجها وقد اشتد اضطرابها ، فربت على يدها بحنان ، وتراجعا صوب السيارة تاركين انطون يشرح لصاحبه «وليد» معالم بلده . أما هما فلم يتكلما وانما جلسا فى السيارة صامتين اذ لم يكن لديهما ما يقولان فى تلك اللحظة التى تفيض مرارة وألما تعجز الألفاظ عن سبر غورهما ..

— ١٧ —

وبعد هذه الرحلة ساءت حالة قلب بطرس ، الذى عارض ماريان فى استدعاء طبيب من رام الله — فهو لا يؤمن بالأطباء وحسبه ما لديه من عقاقير — وأبى ان يصغى لما تكرره زوجته عن الأدوية المبتكرة لعلاج القلب . وهو على الخصوص لا يريد أن يعلم احد من اقاربه بمرضه حتى لا يحتشدوا حوله ويحملوه قسرا الى المستشفى الأمريكى .

انه يأبى أن يبارح (دار السلام) فى اريحا الا ليرقد فى منازل السلام رقدته الأبدية بالقدس .

وخلال شهرى يوليه وأغسطس القائظين كان يمضى سحابة النهار فى شرفة الطابق الأرضى وأمامه بساتين البرتقال التى توهمه أوراقها الخضراء المتشابكة بأنها تلطف الحرارة بعض الشىء . ولم يصعد الى الطابق العلوى مرة واحدة بعد عودته من زيارة الحدود لأنه أصيب بنوبة قلبية عقب وصوله الى اريحا مباشرة . وكانت أسوأ نوبة اصابته حتى الآن .

ولم يكن يستطيع — وهو جالس فى الطابق الأرضى ، فى ظلال أشجار السرو — أن يرى معسكر اللاجئين ، على سفح التل الأجرد ، **ولكنه ليس بحاجة الى رؤية المعسكر كى يتذكر ألوف الرجال والنساء من المسنين والأطفال الذين ينتظرون هناك يوم العودة الى ديارهم واراضيهم ، وهم فى أسوأ حال ، يقتاتون بالنزر اليسير من الصدقات !**

وكانت انباء الاذاعة والصحف تتحدث عن « لجنة فى الأمم المتحدة لرعاية أحوال اللاجئين الاقتصادية » .. ولكنه لا يثق باللجان الا بمقدار ما يثق بالأطباء ! وهو واثق أن اللجنة ستقترح مشروعات للعمل فى البلاد التى تستضيف اللاجئين ، متجاهلة أن الفلسطينيين لا يريدون الا شيئا واحدا . وهذا الشىء الواحد هو : **العودة !**

وبالفعل تكونت فى ديسمبر وكالة للاغاثة والتشغيل لرعاية اللاجئين الفلسطينيين . ولكن بطرس منصور لم يبلغه هذا النبأ ، لأنه كان قد مات منذ ثلاثة شهور !

لقد وافاه الأجل فجأة فى أوائل اكتوبر بعد عيد ميلاد انطون الثالث عشر ، فى ساعة مبكرة من الصباح . وكانت ماريان قد غادرت الحجرة التى ينامان فيها لتستنشق

الهواء فى الشرفة ، عقب استيقاظها كعادتها كل يوم .. وصافحت أنفها رائحة القهوة منبعثة من المطبخ . وفجأة سمعت صرخة متحشرجة من ورائها ، فالتفتت لترى بطرس جالسا على حافة الفراش يحملق فيها ولا يستطيع ان يتكلم .. وقبل أن تصل الى المنضدة لتأتيه بالحبوب المسكنة كان قد سقط بثقله كله بين ذراعيها ، فصاحت :

ــ انطون ! انطون !

وأسرع الصبى اليها ، ورأى وجه ابيه ، وادرك كل شىء !

* * *

وفى الليل رقد الفتى وأمه فى الظلام جنبا الى جنب . وتذكرت ماريان كيف كان بطرس يرقد هكذا ويمسك بيدها ويقول لها :

ــ عندما ينقضى أجلى لا تبقى هنا . اذهبى الى ابويك فى انجلترا . ولا بد لأنطون من الذهاب الى هناك عما قريب على كل حال . وسيتولى خليل اداره هذه الضيعة ، وسيكون لديك من المال ما يكفى لارسال انطون الى المدرسة . لن تكون لك حياة هنا من بعدى . أما انا فقد انتهت حياتى منذ غادرت البلد ..

لقد كان هذا حديثه أيضا اليها عشية الصباح الذى وافته فيه المنية فجأة .. وكانت هذه مشيئته .

انتهى القسم الأول من القصة ، ويليه القسم الثانى والأخير ، (وعنوانه : المنفى .. ثم العودة) ، ويصدر فى منتصف فبراير .

مطبعة البريد

أكبر مطبعة
في الشرق الأوسط

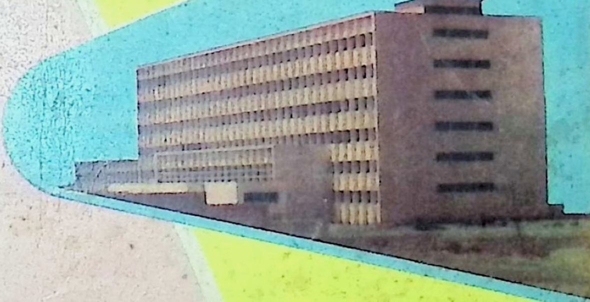

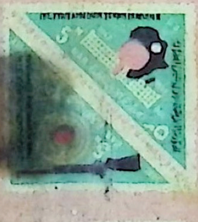

طابع البريد العربي خير سفير لبلادنا في الخارج

أصبحت مطبعة البريد - التي افتتحت في
٢٣ يوليو سنة ١٩٦١ - مقصد كثير
من الدول العربية والإفريقية، لتطبع
طوابعها العادية والتذكارية.
فهي أول مطبعة من نوعها في
الشرق الأوسط، وتستطيع
بإمكانياتها الضخمة، وآلاتها
الحديثة الدقيقة، أن
تطبع أي كمية بأحسن
مستوى فني. علاوة
على ما تقوم به من
مطبوعات أخرى.

طوابع البريد التذكارية دائرة معارف متنقلة
وثروة تتضاعف عاما بعد عام، وتحفة فنية رفيعة
فاحرص على اقتنائها واتصل بمكتب خدمة الهواة - ٢٨ شارع شريف بالقاهرة - ت ٧٦٥٩١

مطبوعات كتابي

الطريق إلى بئر سبع

للروائية الإنجليزية المعاصرة "إيثيل مانين"

أروع قصة طويلة عن مآسي العدوان
الإسرائيلي الغادر على عرب فلسطين

الجزء الثاني والأخير

إيثيل مانين

الطريق إلى بئر سبع

الجزء الثانى

THE ROAD TO BEERSHEBA

BY

ETHEL MANNIN

الثمن : ١٠ قروش

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

رئيس التحرير : حلمى مراد

الكتاب الثالث والسبعون

الطريق إلى بئر سبع

ترجمة : الدكتور نظمى لوقا

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — القاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥

مطابع مكور واولاده

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالميــة)

صدر منها ٩٦ كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر . (وتطلب قائمة بها من الادارة) .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالميــة)

صدر منها ٧٣ كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة باسترناك (دكتور جيفاجو) ، وتطلب قائمة بها من الادارة .

الاشتراكات

عن ١٢ عددا من كتابى أو ١٢ عددا من مطبوعات كتابى : فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٢٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية ١٦٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

(ومن يرغب فى ارسال الأعداد بالبريد « الجوى » يدفع فرق الرسوم) . وترسل القيمة من مصر باذن بريد عادى ، ومن السودان بحوالة بريدية ، ومن البلاد الأخرى بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما قابلة للصرف فى مصر ، (وسعر صرف الكوبون ٣٧ مليما) .

الكتاب الثانى

المنفى

- ١ -

توجه « روبرت ملبى » الى مطار لندن لاستقبال ابنته « ماريان » وحفيده « أنطون » ·· وكان قد غادر - منذ أحد عشر عاما - هو وزوجته « الزبيث » البلاد التى كانت تسمى (فلسطين) من مطار كهذا المطار فى طريقهما الى الوطن ، أو ما كان الناس يسمونه الوطن ، أما هو والزبيث فكانا يعتقدان أنهما انما يغادران وطنهما الحقيقى ، لأن (يافا) هى وطنهما وليست لندن ! ·· يافا أوفلسطين بأسرها· ولكم ذرفت الزبيث من الدمع وهى تلوح بيدها من نافذة الطائرة فى ذلك اليوم ، مع أن ابنتها ماريان وطفلها كانا قد غابا عن الأنظار منذ وقت طويل ·· وراحت تنهنه متمتمة لنفسها والطائرة تشق طريقها صاعدة :

- ترى متى نراهما مرة أخرى يارب ؟

وها قد جاء جواب السماء · فهذا المساء القارس من أمسيات نوفمبر سنة ١٩٤٩ - بعد احد عشر عاما - هو الموعد الذى حدده القدر لذلك اللقاء المنشود · ومع ذلك لم تأت الزبيث الى المطار ، وجاء روبرت بمفرده ، لأن زوجته مشغولة باحدى حفلات تلك الجمعيات العديدة - بين خيرية

ونسوية ـ التى تسهم فى نشاطها وتكاد تأكل حياتها أكلا •
ولم يكن فى وسعها الاعتذار وهى من خطباء الحفل !

لقد قيل لروبرت ان صديقه « بطرس منصور » مات بعلة فى القلب ، لأنهم فى علم الطب لايعرفون شيئا اسمه « تحطم القلب » على أثر صدمة مزلزلة • ولكن روبرت ملبى يعرف عن يقين أن فلسطينيين كثيرين عدا بطرس منصور لابد أنهم ماتوا بتلك العلة ذاتها بعد « النكبة » !

ان هذه النكبة هى التى تأكل اليوم قلب ماريان أيضا ولا شك • ماريان التى غدت وحيدة فى الدنيا • أجل ان لديها ابنها ، ولكن المرأة بحاجة قطعا الى « شىء ما » أكثر من الابن لمواجهة الحياة • ولكم كان هذا الابن فخورا بأبيه فى طفولته • وأن جده لأمه ليرجو اليوم ان يجد فيه حفيده مدعاة للفخر أو الثقة على الأقل • أن يجد فيه رجلا متزنا ذا همة ، يعتز كثيرا بأنه كان فيما مضى صديقا حميما لأبيه الراحل •

لقد كتبت ماريان الى أبيها قائلة : « ان الصبى يشعر بأنه ينتمى الى آل منصور أكثر من انتمائه الى آل ملبى • وذلك بشير خير على كل حال • **فلابد للفتى أن يشعر بعروبته • بأنه عربى • وبأنه فلسطينى • وأنه من سلالة شعب مظلوم مضطهد •• شعب أبيه المنكود •** »

وفجأة أبصر بهما « روبرت ملبى » من باب بهو الجمرك المفتوح واقفين الى جوار حاجز مثقل بالحقائب ، وماريان بدون قبعة كعادتها ، وقوامها رشيق أنيق كالعهد به ، والى جانبها فتى نحيل يضارعها فى الطول : **فتى وسيم ذو بشرة زيتونية •• فتى عربى !**

وفرح قلبه بمرأى حفيده ، وتطلعت ماريان الى أعلى ورأته ، فلوحت له بيدها ، وقالت للفتى شيئا ما ، فنظر حيث أشارت

له أمه ، ثم لم يلبث بعد لحظة أن ابتسم على استحياء ولوح بيده لجده ·

واشتد تزاحم الناس وتدافعهم بعد ذلك فابتلعهما ذلك المد، وانقضت فترة طويلة قبل أن يبرزا الى البهو الرئيسى للمطار · وخيل الى ماريان وهى تملأ عينيها من أبيها أنه لم يزل على نحافته وانتصاب قامته المعهودين فى أبناء الانجليز ، ولم يطرأ عليه تغير يذكر سوى اشتعال رأسه شيبا وزحف السن الى محياه · ولكنها قالت له فى حماسة وهى تعانقه فى غمرة السعادة باللقاء :

– أنت كما أنت ·· لم تتغير قيد أنملة !

وضحك ، وان لم تخدعه كلماتها · فهى أيضا قد تغيرت · ولم يفته أدراك ذلك رغم نحافتها ورشاقتها · فها هو الشيب قد دب الى شعرها الداكن ، وهذه خطوط قد ارتسمت هنا وهناك على محياها ، فهى لم تعد تلك المرأة الفينانة فى باكورة الثلاثين ، بل امرأة فى أواسط الأربعين · ولا عجب ! فاحدى عشرة سنة ليست بالفترة القصيرة فى عمر امرأة ·· ولا سيما اذا كانت تلك المرأة قد عانت ألوان الويل والعذاب ·

وابتسم روبرت ملبى لأنطون ، وخاطبه بالعربية قائلا :

– اذن فأنت ابن صديقى بطرس منصور !

فابتسم الفتى بارتباك ، وقال باستحياء :

– انى أعرف الانجليزية أيضا · وفى وسعك أن تكلمنى بها ·

– أعرف هذا · ولكنى أحب أن نتكلم العربية بين الحين والحين ، فانى أحب وقع حروفها على أذنى · ولى أمد طويل لم أسمع أحدا يتحدث بها ···

وسألت ماريان أباها أين أمها ، فقال لها انها لم تستطع التحلل من ارتباطها باحدى لجانها وجمعياتها الكثيرة ، وانها

ستكون فى البيت عندما يصلون الى هناك • وسألهما بعد ذلك عن رحلتهما ، فقالت ماريان : « لقد كان الجو دافئا جدا فى أريحا عندما غادرناها • وكان الطيران مملا » •

ـ وهل راقت الرحلة أنطون ؟

ونظر كلاهما صوب أنطون الذى قال : « كانت لا بأس بهـا » ، فقالت ماريان وهى تحاول عبثا أن تخفى تقطيبها بابتسامها :

ـ لم يكن راغبا فى المجىء •

فقال ملبى : « لست ألومه على هذا » ، ثم وضع الرجل يده برفق على كتف الصبى وقال :

ـ لا تكترث كثيرا لهذا النفى ، فانه لن يطول الا أعواما معدودة • أما أنا فالنفى بالنسبة لى سيدوم الى الأبد !

فقالت ماريان بلهجة الشكوى :

ـ انه لا يرى سببا يدعو لمجيئه الى هنا على الاطلاق •

ولم يحاول أنطون أن يدلى بأى تعليق • وعندئذ قال ملبى أنه استأجر سيارة تحملهم الى البيت • وخرج ثلاثتهم من مبنى المطار ووقفوا على الرصيف فى انتظار حضور سيارتهم من الموقف • وكانت الريح باردة ومحملة بالمطر ، فارتجف أنطون كارتجافه عندما برز من باب الطائرة لأول وهلة ففاجأه الجو البارد بعد دفء الطائرة •

أجل ، كان الجـو يتسم بالبرودة فى (رام الله) شـتاء ، ولكن ليس الى هذا الحد • فما أشبه البرد هنا فى لندن بضرب خفى من الرطوبة ، يتسرب تحت سطح الجلد ويتغلغل حتى العظام • ومن العجيب أن الجو فى صباح هذا اليوم نفسه كان حارا فى أريحا • أما فى عمان عنـد الظهر فكان شديد الدفء •

واستقلوا سيارتهم أخيرا ، وراح أنطون يتطلع من النافذة

الى امتداد الحظائر الواسعة القبيحة الشكل فى أرجاء المطار ، ثم الى المصانع السابحة فى الأضــواء على طول الطريق الى الضواحى التى تحفل بالفيلات الصغيرة التى تتراجع كل منها عن الطريق العام وراء حاجز صغير من الخضرة !

وكان جده الانجليزى ينظر اليه ويقول فى نفسه مسرورا :

— ياله من فتى أسمر ... تلك السمرة العربية الفاتنة !

وشاعت البهجة فى محيا الصبى بعض الشىء عندما وقع نظره على أول لمحة من مياه نهر التيمز ، وهم يجتازون احدى قناطره ، وبدا له النهر اللندنى واسعا جدا بالقياس الى نهر الأردن . وازداد تهلل وجهه عندما تجلت أمام ناظريه الغابات والمروج فى ضوء مقدم السيارة بضاحيــة (ومبلدن) . **فها هنا فراغ ووحشة وخضرة ، وهى أشياء يعرفها جيـــدا ويأنس اليها .**

وسمع صوت جده يقول له :

— لولا الظلام لاستطعت أن ترى عند حافة هـذا المتنزه العام بناء المدرسة التى ستدخلها .

وأرسل أنطون بصره يحاول أن يخترق الظلام فى الاتجاه الذى أومأ اليه جده ، واردف ملبى قائلا : « وانها لمدرســة جيدة . وستحبها كثيرا » .

وصمت أنطون برهة ثم سأل جده :

— أهى المدرسة التى كان أبى يريد أن يلحقنى بها ؟

— نعم . وقد طلب الى منذ سنوات أن أسجل اسمك فيها كى أحجز لك مكانا . وكان مسرورا جدا لذهابك يوما ما الى المدرسة التى درست فيها أنا ..

وأسرعت ماريان تقول : « وأنا أيضا راقتنى الفكــرة كثيرا » .

واستطرد ملبى :

ـ وهى مدرسة نهارية • وسيكون فى مقدورك أن تعيش فى البيت معنا • فها نحن أولاء • وهذا الباب الأزرق باب بيتنـا •

ودهش أنطون لصغر حجم بيت جديه • فهو لا يكاد يزيد شيئا على حجم الأكواخ التى كان يقيم بها الفلاحون فى ضيعة والده بالله ! ورأى على مدخل البيت من الخارج مصباحا معلقا وظلة يعرش فوقها نوع من الكرم • واستطاعت عينه أن تميز فى ظلام الحديقة الصغيرة أشجار الورد •

أما أمه فصاحت بحبور وهى تترجل من السيارة :

ـ ياله من بيت صغير عزيز ! لا عجب أن تفتننـا به أنت وأمى ! وهو يطل أيضا على المتنزه العام مباشرة • فكأنكمـا فعلا وسط الريف ! وهاهى ماما !

وأقبلت سيدة أنيقة شهباء الشعر تخترق الممر بخطـوات سريعة ، وتكرر العناق والتقبيل والترحيب على نحو ما حدث فى المطار ، وقبلت الجدة أنطون وضمته الى صدرهـا ضما شديدا ، وأخذت تصيح به :

ـ لكم غدوت فارع الطول ، ولم تكن سوى طفل يدرج على الأرض عندما رأيتك فى آخر مرة !

وظلت تحملق فيه بانتشاء أورثه ارتباكا • وذكره منظرها بمنظر طائر يعرفه ، فعيناهـا ثاقبتـان كعينى الطـائر وحركاتها سريعة كحركات الطيور ، وفيها شىء يذكره بالمنقار وحركته • وعقدت أخيرا ذراعها بذراعه ودخلا البيت ، فداخله احساس بعدم الارتياح ، لأنه شعر بها وكأنها ـ على هـذه الوتيرة ـ قد وضعت يدها واستولت عليه !

والواقع أن وجود حفيدها تحت سقفها كان يعنى الشىء الكثير فى نظر الزبيث ملبى • وكانت تعتقد فى قرارة نفسها أن ماريان لو كانت غلاما لتغير نهج حياتها كثيرا • ولقد كان

وليدها الأول غلاما ، بيد أنه مات فى باكورة طفولته • والطفل الذى تمنت أن يملأ الفراغ الذى خلفه الغلام الراحل جاء أنثى ••• وصارت الأنثى - ماريان - ابنة أبيها • ولم يكن فى ذلك ضير ، لأن روبرت ملبى رجل متزن ، ولكنه جعل حياتها خاوية • **وما أكثر ما منيت به من خيبة الأمل • ولكم حاولت أن تتحمل تلك الصدمات بقلب مؤمن ، ولكن ضعفها كان يغلب عليها ، ويرين عليها من ذلك ألم وشعور بالضياع والغبن •**

لقد خيل اليها فى وقت ما أنها أقدمت على حياة كلها رومانسية ومغامرة ، حين تزوجت من روبرت ملبى ومضت معه الى الأراضى المقدسة كى تكون عونا له فى ادارة مدرسة للغلمان العرب المكفوفين ••• ولقد أحبت كثيرا البيت الذى سكناه فى يافا ، ولكنها لم تحب يافا نفسها • وكانت ذروة أملها فى الحياة بفلسطين أن تنتقل يوما ما الى القدس •• **وكان شعورها الدينى المتحمس يجعلها تنظر بوله وهيام الى كل شجرة زيتون تراها على جانب التل ، على أمل أن تكون عين السيد المسيح قد وقعت على تلك الشجرة ذاتها فى مدة حياته هناك •** ولكن روبرت ملبى كان يهدم لها آمالها تلك بقوله أن ذلك غير مرجح ، لأن أشجار الزيتون لا تعمر كل تلك القرون العشرين !

وكانت تقول فى نفسها أن روبرت ملبى رقيق الحاشية جدا ، طيب القلب بمعنى الكلمة ، ومع هذا ففى مقدوره أحيانا أن يكون قاسيا جارحا • بل انه كان فى الواقع أول صدمة وأول خيبة أمل منيت بها • فهو ابن رجل من رجال الدين ، وفى أسرته كثير من رجال الارساليات المنتشرين فى العالم ، ولكنه لم يكن صادق الايمان بالمسيحية • لأن اطلاعه العلمى جعله ينظر نظرة شك الى كثير من المواقع التى يسميها الناس

أماكن مقدسة فى فلسطين ، وقد بلغ به شكه أنه نعت الكثير من تلك المعتقدات بأنها « هراء » • أما هى فكانت على العكس منه ، تواقة للانتقال الى القدس أو بيت لحم ، حيث المزارات التى يقدسها المسيحيون المخلصون • **أما روبرت ، فكان يحب (يافا) ويفضلها على كل مدينة أخرى فى فلسطين ، لا لشىء الا لأنها مدينة اسلامية خالصة • أو على حد تعبيره هو لأنها مدينة عربية خالصة •**

وانها لتعتقد فى قرارة نفسها أنه لولا اقامتهما فى مدينة يافا لما انغمس روبرت على هذا النحو فى الحركة الوطنية العربية بحماسة بالغة سافرة ، ولما ترتب على ذلك استدعاؤهما الى لندن • وكذلك لولا اقامتهما فى يافا لما أتيح لابنتهما الوحيدة أن تلتقى ببطرس منصور !

وليس معنى هذا أن الزبيث كانت تضمر شعورا عدائيا نحو بطرس منصور ، فهو فى نظرها رجل ظريف ومسيحى لا غبار عليه سوى أنه أرثوذكسى ، فى حين أن آل ملبى من غلاة الانجليكان • ثم أن بطرس منصور فى سن والد ماريان • وأنه لمن المحرج بلاشك أن يكون زوج البنت فى سن حماه ! **وقد أصر هذا الزوج العربى المسيحى على أن يتم عقد القران فى الكنيسة الأرثوذكسية • وكذلك تمت معمودية أنطون فى تلك الكنيسة أيضا ، وهذه كلها صدمات أورثت الزبيث خيبة الأمل •**

وجاءت بعد ذلك خيبة أمل لا شك فيها أيضا ، وهى العودة الاضطراريه ، والاقامة فى انجلترا مرة أخرى ، ومعاناة برودة الشتاء القاسية هناك • هذا بالاضافة الى معركة بريطانيا المحطمة للأعصاب ، ليل نهار • وازداد شعور الزبيث بخيبة الأمل حينما رفض روبرت أن يصحبها الى الكنيسة يوم الأحد ،

كما رفض فى أيام الأسبوع أن يبدى اهتماما بنشاطها الخيرى والاجتماعى ٠

ولم يكن من عادة الزبيث أن تشكو أو تنتقد ، لأنها ربيت على تقبل الأمر الواقع فى صبر وجلد ٠ **ثم أن روبرت رجل طيب فى أعماق سريرته ، وابنتهما الوحيدة ماريان شبت ذكية كأبيها وطيبة القلب مثله ٠ وكانت مثله أيضا فى محبتها للعرب** ٠ ولئن كانت أقرب بعواطفها الى أبيها منها الى أمها فتلك هى سنة الطبيعة التى لا حيلة فيها ٠ كما أن ارادة الله هى التى شاءت أن تحرم الزبيث من الولد الذى كان حريا أن يتعلق قلبه بها ٠ وليس لامرأة مؤمنة مثلها أن تناقش ارادة الله ٠ ولذا حاولت على الدوام ألا تسمح للمرارة بالتسرب الى أغوار سريرتها ، وأن تجعل حياتها نافعة لنفسها وللناس ، وأن تنظر دائما بعين الرضى والشكر الى النعم الكثيرة التى أفاضها الله عليها ٠

ولم تتمالك الزبيث نفسها ـ عندما وصلت أنباء وفاة بطرس منصور فجأة ـ من الشعور شعورا مختلطا مزدوجا متناقضا : بالرثاء لماريان ، وبالأمل المشبوب فى أن تسعد هى أخيرا بعودة وحيدتها الى انجلترا مع الغلام ، فيتسنى لها أن تعرف حفيدها وأن تجد فيه بديلا من ابنها الذى حرمت منه قبل الأوان ٠

وأبرق روبرت ثم كتب تفصيلا بالبريد يستحث ابنته على الحضور الى انجلترا ٠ وردت عليه ماريان بأن ذلك هو رأيها أيضا ، وأنها ستأتى ومعها أنطون بمجرد الفراغ من اجراءات نقل ملكية ضيعة أريحا الى خليل داود ، وتسوية جميع التفصيلات المترتبة على حصر التركة ٠ ولم تكن الزبيث تعلق أملا كبيرا على جو التقارب الحميم بينها وبين ماريان ٠ بل كانت تتوقع أن يكون التقاؤهما أشبه بالتقاء الغرباء ٠

أما تعويلها كله فكان على ذلك الحفيد الصغير أنطون ، وعلى أن تنشأ بينها وبينه صلة مودة تتجاوز كل ما كان بينها وبين ابنتها . وانها لترى فيما حولها من البيوت أطفالا كثيرين يرتبطون بأجدادهم أكثر من ارتباطهم بآبائهم وأمهاتهم . ولذا كان شوق الزبيث الى حفيدها العربى أشبه بحنين الأحشاء . وهى لاتجد غضاضة فى أن يكون حفيدها عربيا . وان كانت تؤمل فى قرارة نفسها أن يأتى اليوم الذى تختفى فيه تلك اللمحات العربية لتحل محلها لمحات مكتسبة من الاقامة المستمرة فى جو انجلترا . سيما بعد أن ينخرط أنطون فى سلك المدرسة العامة . وسيساعده على ذلك بلا شك ما ورثه عن أمه من عينين زرقاوين . **وحاولت أن تغالط نفسها فى لون بشرته الزيتوني ، وامتلاء شفتيه ، وقوة أنفه ، ذلك الأنف الذى ورثه عن آل منصور .**

انه الحب من أول نظرة . فقد كان تأثير الغلام على جدته صاعقا ، بوسامته وقامته . وانه لحفيد تفخر به أى جدة . وقد صار غاية أملها الآن أن يشعر الغلام لها بشىء ولو قليل من المعزة والمودة ، فيعوضها هذا القليل عن كثير جدا مما تشعر أنها حرمت منه !

* * *

أما ماريان فقد وجدت ـ بعد تلك الغيبة الطويلة جدا عن انجلترا ـ أن من العسير عليها أن تتأقلم بالحياة الانجليزية والمناخ الانجليزى ، فجعلت ترتجف ارتجافا غير قليل فى أيام الخريف الرطبة ، مع أن والديها ظلا يؤكدان لها أن الجو فى خريف تلك السنة معتدل جدا . وكانت أمها تقول عاتبة :

ـ لندن ليست بطبيعة الحال مثل أريحا ! ولكنها ليست

أشد برودة من رام الله أو القدس فى مثل هـــذا الأوان من العام ٠

ولم تكن هناك جدوى من تذكيرها بأن البرد فى رام الله أو القدس برد جبلى جاف يبعث العافية فى البدن ، أما هـذا البرد اللندنى فرطب يتسلل الى النخاع ٠ وكانت تنصح ابنتها على الدوام بالخروج للسير السريع الناشط فى المتنزه العام ، باعتبار ذلك السير هو الوسيلة الفعـــالة لتنشيط الدورة الدموية والتغلب على آثار البرد القارس ٠

ولم تكن الزبيث تجهل أن صدمة ماريان بوفاة بطرس من أشد العوامل تأثيرا فى هبوط روحها المعنوية وضعف مقاومتها للحالة الجوية ، فكانت تردف : « ولكنك لن تلبثى أن تتغلبى على هذه الصدمة ٠ فمن رحمة الله بنا جميعا أننا نحن البشر نتغلب على كل متاعبنا بفعل الزمن » ٠

وكانت لهجة الأم رقيقة وصادرة عن احســـاس صـادق بمصيبة ابنتها ، ولكن التعبير لم يكن يواتى الزبيث بسهولة ، لأنها فقدت منذ زمن طويل القدرة على التعبير عن عواطفهـا وعطفها وأعزازها ، لأن روبرت كان قد قتل ذلك كله لديها منذ سنوات طوال !

وكانت ماريان تعرف ما تضمره لها أمهـــا من العطف ، ولكنها فى الوقت نفسه تدرك أنه من المستحيل على تلك الأم أن تفهم احساسها ، لأنها لم تجرب قط فى حياتهـــا الحب المشبوب ، ولم ينزل بساحتهـــا ذلك الحرمان الموجع الذى لا يستطيع احداثه فى حياة المرء الا الموت ٠ أجل ان فقدان ذلك الطفل ـ الذى مات فى الأسابيع الأولى من عمره ـ ربما كان موجعا لقلب الزبيث ، ولكنه لا يمكن أن يقارن بذلك الفقدان الفاجع لشخص كامل النمو قريب الى النفس بعد معاشرة دامت أمدا طويلا من الزمن ٠

ان أربعة عشر عاما من الحياة الزوجية يمكن أن تعتبر فى نظر بعض الناس فترة قصيرة • والحقيقة أنه لولا النكبـة الفلسطينية لامتدت هذه الحيـاة عشر سنوات أخرى على الأقل • وليس صحيحـا على الاطلاق ان كل شىء يمكن أن تذهب الأيام المتوالية بلذعته ومرارته • **فبطرس لم تستطع الأيام المتواليـة أن تنسيه بيته المغصـوب ووطنه المسلوب وكرامته القومية والانسانية التى داسها اليهود بالأقدام •**

لم يستطع بطرس أن ينسى طعم الهزيمة ، وطعم المهانة ، وضياع الشخصية القومية • ولم يستطع أن ينسى – بمرور الزمن – أنه فلسطينى ، ولم يستطع فى أى وقت من الأوقات أن يدعو نفسه أردنيا • وفى النهـاية غلبه القهر على أمره ، ومات كسير القلب محطم الروح • وكان شقيقه فريد على حق عندما قال وهو يذرف الدموع بجانب جثمانه :

– لقد قتلك اليهود يا أخى • قتلوك بالغم والتشتيت وعار الهزيمة !

أجل ، لم يكن من اليسير على ماريان – فى جو الخريف الانجليزى القاسى – أن تتأقلم جسدا وروحا وهى تتمشى فى متنزه (ومبلدن) مع أبيها أو مع أنطون أو بمفردها تماما • كانت الذكريات الحزينة تهاجمها على الدوام ، فلابد لها من العثور على شىء تشغل به وقتها ، كى تنسى خمائل البرتقال وأشجار السرو وشمس أريحا الحارة ، مثلما نسيت (اللد) من قبل ••• ينبغى بأى شكل من الأشكال أن تتعلم كيف تعيش بدون بطرس • بطرس الذى كان لها زوجا وأبا وحبيبا وصديقا مدى أربعة عشر عاما • **بطرس الذى عاشت فى كنفه ، والذى تعلقت به فى شغف لامزيد عليـه وهى شـابة ، ثم تعلمت بمرور الزمن أن تتعلق به تعلق الشكر وعرفان الجميل وهى فى أواسط العمر •**

ان عليها الآن أن تعلم نفسها بنفسهـــا كيف تعيش فى أعماق وحدتها ، تلك الوحدة الحميمة التى لا يستطيع حتى أبوها ، صديق بطرس وشبيهه فى خلائقه ، أن يتغلغل الى قرارتها ٠

ذلك كله ثقيل الوقع على نفسها ، مثلما كان ثقيل الوقع على نفس أنطون أن يفقد أباه الذى يعتز به ويحبه ، وأن يجد نفســـه ـ وهو العربى المتحمس لعروبته ـ رهين المنفى فى انجلترا ، مهما تحدثوا اليه عن جمالها وما تقدمه له من فرص التعليم والتثقيف ٠

ستظل انجلترا ـ لأنطون ولأمه على السواء ـ أرض المنفى ، ماداموا بعيدين عن الوطن الحقيقى ٠٠ عن فلسطين !

- ٢ -

كانت السنة الأولى بطولها ـ بالنسبة لأنطون ـ فترة من الحيرة ، والتجارب الجديدة ، والمناظر غير المألوفة • وكثيرا ما دهمته هذه الأحوال الطارئة وأفقدته زمامه ، فلم يكن يجد ملاذا له سوى الحديث بينه وبين نفسه ، متوجها بنجواه الى صديقه وليد • **ومع أنه كان يسطر الى وليد صفحات لا تحصى في ذهنه ، الا أن كل محاولة لتدوين جزء ولو يسير من هذه الخواطر على الورق كان أقوى من طاقة احتماله** ، فلم يستطع أن يرسل الى صاحبه سوى بطاقات بريد ملونة عليها صور تمثل برج لندن ، وميدان الطرف الأغر بحمائمه المشهورة ، وسيرك بيكاديللى ، ومتنزه (ومبلدن) بطاحونة الهواء المشهورة ، والكنيسة التى يذهب اليها يوم الأحد مع جدته • وتطورت هذه البطاقات فيما بعد فحملت الى وليد نسخا من الصور المشهورة التى يحفل بها المتحف الأهلى للفنون •

وكان وليد يدرس كل هذه البطاقات البريدية بعناية واهتمام،ويحتفظ بها بين صفحات كتبه وكراساته مسرورا بها، ولكنه لم يكتب الى صديقه سطرا واحدا ، مع أن ذهنه أيضا كان حافلا بالخواطر والأحاديث التى يبثها صاحبه ، فى نجوة من الناس ، كلما خلا الى نفسه !

ولم يكن مكان أنطون فى المدرسة مهيئا لاستقباله قبل الفصل الدراسى الثانى فى شهر يناير • وفى الشهور التى سبقت ذلك الموعد بذلت ماريان قصارى جهدها كى تعرفه بمعالم لندن ، التى بدت لأنطون مترامية الأرجاء بصورة

لا يصدقها العقـــل ، فكأنما هى جملة مدن كبيرة تصب فى موضع واحد بحيث يتداخل بعضها فى بعض .

وكان يخيل اليه ـ حين ينظر الى لندن من فوق قمة احدى السيارات العامة ـ أنها تمتد امتدادا لامتناهيا ، كامتـــداد الصحراء . **بيد أنهـــا والصحراء على طرفى نقيض ، فلندن تضج بالحياة والحركة والضوضاء ، والصحراء يرين عليهـا الصمت والخلاء** . وكانت أكبر مدينة رآها من قبل هى اللد ، التى لا يزيد عدد سكانها على خمسة عشر ألفا . أما رام الله فلم تكن حينئذ أكبر من قرية كبيرة الا بمقدار غير محسوس . وأما أريحا فلا تزيد فى حجم سكانها على شارع رئيسى واحد . **وأما القدس القديمة ، بأزقتها التى تموج بالمـارة والحمـــير والسلع ، فشىء آخر** . ولكنها لا تضاهى فى حركة مرورهـا الدائبة مدينة لندن ، بما فيها من سيارات خاصة وسيارات أجرة وسيارات عامة ضخمة عالية حمراء . والناس جميعـــا فى هذه العاصمة العجيبة يرتدون الثياب القاتمة ، بل ان الأبنية ذاتها كانت قاتمة . والسماء من فوق الناس والأبنية قاتمة أيضا . والسيارات الكبيرة معظمها أمريكيـــة ، ولكن عددها بدا له قليلا جدا بالقياس الى الســـيارات الانجليزية الكثيرة العدد ، الصغيرة الحجم .

وقد أثار اهتمامه كوبرى (برج لندن) ، وكان من حسن حظه أن يراهم يفتحون ذلك الكوبرى العملاق لتمر من تحته سفينة كبيرة عالية . ولفت نظره اتساع نهر التيمز ، وشدة قذارته ، فهو لا يستخدم للرى أو الشرب بل تأتى أهميتـــه الكبرى من تلك السفن الضخمة التى تمخره قادمة من جميع أرجاء العالم .

وتركت زيارة أنطون لبرج لندن أثرا فى نفسه ، فاشترى نخبة من بطاقات البريد التى تصور نفائس ذلك البرج ليرسلها

تباعا الى وليد . أما كنيسة القديس بولس فذكرته من بعيد بقبة الصخرة فى القدس . وذات يوم ، وهو متجه الى قلب لندن بالقطار ، لمح من النافذة مسجدا هو أحد مسجدى لندن الكبيرين . وقد جعله منظر المسجد يزداد ايناسا بالمدينة الكبيرة ، ففيها شيء من وطنه الأصلى . وقد ذكرت له جدته أيضا أن بها كنيسة أرثوذكسية . ومع هذا ظل حنينه الى فلسطين أقوى من مغريات المدينة الكبرى على الدوام . وظلت رائحة « الفلافل » تداعب أنفه ، وتذكره بالحوانيت الصغيرة المنبثة فى شوارع وطنه وحواريه ، كلما أرخى المساء سدوله .

حتى أريحا بجوها الحار وصحرائها المحرقة وبحرها الميت ، كانت تداعب مخيلته فيشتد حنينه اليها ، ويتمثل له أبوه جالسا فى الشرفة ، واضعا كفيه فوق مقبض عصاه الفضى ، تلك العصا التى كانت الشيء الوحيد الباقى له من ثروته الكبيرة فى اللد . ولكن أنطون لم يكن يتذكر اللد بمثل ذلك الحنين ، لأنه لا يستطيع أن يتذكرها الا مختلطة أشد اختلاط وأعنفه بالرعب والمخاوف . ولذا يحس فى أعماق نفسه بأن العودة الى اللد فى حكم المستحيلة ، ولكن جده يقول له ان المستحيل كلمة لا معنى لها ، وأن وطن الفلسطينيين لابد أن يعود يوما ما الى أهل فلسطين .

* * *

قبل دخول المدرسة ببضعة أسابيع ، شرع أنطون فى العمل تحت اشراف مؤدب خاص ، كى يتسنى له الانتظام فى المدرسة الجديدة ابتداء من شهر يناير . وكان فى كل صباح يعبر المتنزه العام مع جده الى بيت كبير عتيق يضم عددا من المكفوفين . وكان فريق منهم مصابا بالصمم أيضا . فهواية

جده الآن ، وقد تقدمت به السن ، أن يساعد فى الترفيه عن أولئك الناس والحديث اليهم • وقد تعلم أنطون منه كيف يخاطب الصم بلمسات يدوية مرهفة • **وكثيرا ما حدث روبرت ملبى حفيده عن المدرسة التى كان يديرها فى يافا ، وكانت تضم المكفوفين من المسلمين والمسيحيين واليهود ، على قدم المساواة •**

وفى تلك النزهات أيضا كان روبرت يحدث حفيده عن الحركات الوطنية العربية فى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية ، وكيف نكث الانجليز وعودهم للعرب بأن يمنحوهم الاستقلال ، عندما حاربوا الأتراك فى فترة الحرب العالمية الأولى • وكيف أن قصة انجلترا مع العرب هى قصة الخيانة والخديعة على طول الخط • **فأيقن أنطون أن حقيقة مأساة شعبه الفلسطينى – التى أدت الى قتل أبيه وقتل مئات الألوف من مواطنيه – انما ترجع أسبابها الحقيقية الى ذلك الموقف الغادر الذى وقفه الحكام الانجليز من العرب عموما ، ومن الفلسطينيين على وجه الخصوص •**

ولكم تعلقت روح أنطون بتلك النزهات مع جده – فما أشد ما كان يذكره بأبيه – فازداد شغفا بذلك العجوز المستقيم النفس ، النزيه التفكير • ولا عجب اذن أن يكون شعوره نحو جدته أقل حرارة من شعوره نحو جده بكثير • انه يأنس الى صحبتها – ما فى ذلك شك – ولكن ذلك الانس ليس صادرا عن تعلق حقيقى ، بل عن عدم مبالاة ! فهو يذهب معها صباح كل يوم أحد الى الكنيسة ، ويجد راحة نفسية فى جو تلك الكنيسة الانجليزية ، وهو أقل عتمة بكثير من جو الكنيسة الأرثوذكسية الصغيرة فى أريحا • وقد أدهشه فى بداية الأمر أن يجد الرجال والنساء يجلسون متجاورين ، لأن الناس فى لندن لا يعرفون الفصل بين الجنسين • **وكانت نفسه**

تحن بين الفينة والفينة الى سماع الألفاظ العربية التى تردد فى كنيسة أريحا ، عندما يتلو القسيس الصلاة أو يردد الشمامسة التراتيل • ولكنه لم يكن يحدث أحدا بحنينه الى وطنه • حتى ولا جده الحبيب الذى يحب ذلك الوطن • فقد أبقى لنفسه حلمه المشترك مع وليد : **حلم طريق بئر سبع ،** الى أن يحين الوقت ، فتنتهى فترة هذا النفى ويعود الى تلك الأرض التى كانت يوما ما جزءا من فلسطين !

* * *

وأخيرا ، فى شهر ديسمبر كتب الى وليد يقول :

– ياعزيزى وليد ، أرجو أن تكون قد وصلتك البطاقات البريدية التى أرسلتها اليك • ويؤسفنى أنى لم أستطع ارسال خطاب اليك قبل هذا ، لأنى كنت مختلط التفكير بسبب الحياة الجديدة من جميع الوجوه التى تحيط بى هنا • لقد أخذونى لمقابلة ناظر مدرسة « كلية الملك » التى سأنتظم فى صفوفها فى يناير القادم ، وكان الرجل لطيفا جدا معى ، وحسن الظن بى ، ولكنى سأؤدى امتحانا تحريريا يسمونه امتحان القبول فى هذا الشهر ، فاذا كتب لى النجاح فيه تقدمت للامتحان الشفوى أمام لجنة • وهذا هو النظام المتبع مع جميع المتقدمين للالتحاق بالمدرسة • وجدى واثق أننى سأنجح • وهو شخصيا كان تلميذا بهذه المدرسة نفسها فى سنة ١٩٠٥ • وأنا لا أعتقد أن الدراسات ستكون مختلفة كثيرا عن الدراسة بمدرسة الأصدقاء ، ولكنى سأضطر فى الغالب للجد ليل نهار ، مدة ثلاثة أشهر على الأقل ، تحت اشراف مدرس خاص • ولذا قد لا أكتب اليك مرة أخرى قبل مضى مدة طويلة، **ولكن أرجو أن تثق بأننى أفكر فيك طول الوقت ، وفيما كنا نفعله معا ونتحدث فيه ونرسم خططه** • وأرجو أن تكون

أحوالك على ما يرام من جميع الوجوه • وقريبا ان شاء الله سأعود ونستأنف جولاتنا معا • تحياتى الى فؤاد •

وقد سعد وليد كثيرا بتلقى هذا الخطاب وقرأه عدة مرات ، فى الفصل ، وفى الفناء ، وفى بيت عمه بالليل • ولكنه لم يكتب ردا عليه لأن الرد على الرسائل لم يكن من عادته •

وهو متأكد أن صديقه لا ينتظر منه ردا • ويوما ما سيجتمعان بجسديهما وينفذان معا الخطة التى رسمها عمه منير • أما الآن فهى فترة انتظار وترقب واستعداد •

وفى عيد الميلاد تلقى وليد بطاقة بريد تفيد نجاح أنطون فى الامتحان التحريرى بتفوق • ورد وليد عليه ببطاقة ملونة عليها صورة قبة الصخرة المقدسة ، كتب على ظهرها تحياته وتحيات أصحابه •

ومرت فترة طويلة أخرى قبل أن يكتب أنطون الى وليد • وكانت رسالته هذه المرة طافحة بشكواه من رطوبة جو لندن ، ومن قسوة شتاء انجلترا ، بحيث أصيب أنطون بالبرد ولم تفارقه الرجفة التى لم تنفع فى ايقافها مواقد الفحم فى حجرة جلوس جده الصغيرة • وحدثه بالتفصيل عن مدرسه الخاص « جيرالد جونز » الذى أصيب بشلل الأطفال وهو فى السنة الأخيرة بجامعة اكسفورد ، فانقطعت دراسته وصار يتنقل فى أرجاء البيت والحديقة على مقعد ذى عجلات ، ويقضى وقته كله فى المطالعة ، فلديه مكتبة ضخمة • وأظهر مستر جونز اهتماما كبيرا بالشرق الأوسط والبلاد العربية بوجه خاص ، وأبدى عطفا كبيرا على الفلسطينيين • وكان ينوى قبل مرضه أن يزور تلك البلاد بمجرد تخرجه ، ولكن كارثة مرضه قضت على ذلك كله • الا أنه وجد فى صلته بأنطون منصور فرصة طيبة للحديث عن فلسطين وأحوال أهلها •

ولكم امتلأت نفس مستر جونز بالهلع والاستنكار عندما

وصف له أنطون المسيرة الرهيبة من اللد الى رام الله . واحتقن وجه الرجل الانجليزى المثقف بالغضب والسخط على تلك القوى الشريرة التى تحالفت ضد هذا الشعب المسالم البرىء .

وشرح له أنطون بعد ذلك رأى صديقه وليد الذى هاجرت أسرته من بئر سبع ، وكيف أنه يؤمن بقدرة الفلسطينيين على استرداد أوطانهم وديارهم اذا هم نظموا صفوفهم أحسن تنظيم . وكيف أن بعض كبار السن يرون ذلك أمرا شبه مستحيل .. فقال له مستر « جونز » :

– وما وجه استحالته يابنى ؟ لكم شهد التاريخ من امبراطوريات قامت على البطش والقوة الغاشمة ، ثم هزمتها شعوب عزلاء الا من قوة الايمان وسلاح الاصرار والتضحية . ولقد رأينا بأعيننا هذه الامبراطورية البريطانية تتلاشى بعد بقاء وشموخ ، وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها – **وان كان الهنود الوطنيون الظرفاء يقولون ان الشمس لم تكن تغرب عن الامبراطورية لأن الله لا يثق بالانجليز لو أسدل عليهم ستار الليل !!** – ومع هذا غربت شمس تلك الامبراطورية العتيدة ، وتحررت الشعوب التى كانت ترسف فى قيودها . والرايخ الثالث – رايخ هتلر – الذى كان « الفوهرر » يقدر له البقاء ألف سنة على الأقل ، أين هو الآن ؟ لقد انتهى وصار أثرا بعد عين !.. **فكيف يداخل أحد الشك فى زوال دولة ملفقة كاسرائيل ، بحيث يتحرر فلسطين ؟ ان الظلم يقضى على نفسه ، والشر يأكل بعضه بعضا ، لأن عوامل الفساد والفناء فى صميم تكوينه . هذا هو حكم التاريخ ، وهذا هو تياره الحتمى الذى لا محيص عنه .**

ولم يسطر أنطون هذه الاحاديث على الورق ، ولم يبعث بها فى رسائل الى وليد ، ولكنه سجلها فى قلبه ، وادخرها ليوم يلتقى فيه بصاحبه على أرض الوطن .. للقيام بعمل مشترك .

•

* * *

ولن ينسى أنطون ـ ما عاش ـ حادثا وقع له فى أسبوع عيد الميلاد ورأس السنة • فقد أخذه جداه الى بضعة بيوت انجليزية صديقة فى تلك الفترة ، ليشهد جانبا بارزا من الحياة الاجتماعية الانجليزية • وكان الناس فى تلك السهرات الصغيرة يبدون اهتماما مهذبا به ، ويقدمون له أشربة حلوة ، **ويسألونه عن دراسته وعن بلاده ، وهل بها مدارس انجليزية على مستوى حسن ، ومنهم من كان يطلب اليه أن يتحدث بالعربية كى يسمع تلك اللغة الغريبة !**

وفى احدى تلك السهرات أقبلت عليه امرأة بدينة ، حمراء الوجه ، يملأ النمش الكبير محياها ، وقالت له :

ـ لقد سمعت انك من اللاجئين • ولذا اردت أن أشد على يدك محيية ، لأننى كنت دائما ذات ميول موالية لليهود ، وأنتهز كل فرصة للدفاع عنهم وتأييد حقوقهم •• فقد كانت جدة أمى يهودية ••

وارتبك أنطون أمام ابتسامة السيدة وأدرك التباس الأمر عليها ، فقال :

ـ انا آسف يا سيدتى •• يعنى •• انا لست يهوديا • بل مسيحى •

واذا بالاشراق والتهلل يختفيان من وجه المرأة البدينة ، كأنما ابتلعته الأرض فجأة ، وسألته بحدة :

ـ ألست لاجئا •• ؟

ـ بلى • نحن لاجئون ، أعنى اسرتى لاجئة •• ولكننا لاجئون فلسطينيون • فقد كان أبى فلسطينيا •• عربيا !

ـ ماذا تقول ؟ ! عربى ؟ !

وراحت المرأة تنظر اليه بامتعاض وفزع ، كأنما هو قد قال

لها انه من المصابين بالجذام مثلا ٠٠ ! ثم جذبت ذراع رجل كان يتحدث بقربها الى فتاة وقالت له :

- هل سمعت ما قاله هذا الفتى ؟ انه يقول انه عربى ! ؟

وراح الرجل ينقل بصره بينها وبين أنطون ثم قال :

- وانه لكذلك فعلا ٠ فهو نصف عربى على الأقل ٠ انه حفيد روبرت ملبى ، وماريان ملبى كانت متزوجة من فلسطينى عربى ٠

وابتسم الرجل ابتسامة ودية للغلام ثم التفت الى الفتاة التى كان يتحدث اليها ، وانتهز أنطون هذه الفرصة وابتعد عن المرأة التى ظلت تحدق فيه باستنكار وكأنها رأت عفريتا !

ولما روى أنطون هذا الحادث لجده ابتسم الرجل الطيب تلك الابتسامة التى كانت تذكره دائما بابتسامة أبيه وقال له :

- انك ستلقى يابنى الكثير من هذا هنا ٠ **فسواد الشعب البريطانى غير المثقف ظل يسمع عن اللاجئين اليهود منذ سنوات طويلة قبل الحرب العالمية ٠ أما اللاجئون العرب فلم يسمع الشعب الانجليزى عنهم شيئا تقريبا ٠ فاذا قيل أمامهم « هذا لاجىء » ظنوا انه لاجىء يهودى ، وليس لاجئا من العدوان اليهودى !**

***

وفى عطلة عيد الفصح كتب أنطون خطابا مطولا آخر الى صديقه وليد يخبره بانتظامه فى المدرسة ، ودخوله التدريب العسكرى كى يتعلم التصويب بالبندقية ، وكيفية استخدام المدافع الرشاشة المختلفة ، واشتراكه فى سباق اختراق الضاحية ٠ وحدثه أيضا عن مدرسه الخاص الذى انتهت مدة عمله معه ، ولكنه يزوره كصديق فى عطلة الاسبوع ٠٠ **وان**

مستر جونز يقترح عليه أن يعمل بعد تخرجه فى وكالة اغاثة اللاجئين التى انشأتها الأمم المتحدة • وقد وافق جده على هذه الفكرة ورتب مع ناظر المدرسة اعداده للالتحاق بمدرسة العلوم الاقتصادية التابعة لجامعة لندن للحصول منها على دبلوم فى العلوم الاجتماعية ••

وفى هذه الرسالة أيضا ترددت شكوى أنطون من جهل زملائه بالمدرسة بأحوال فلسطين ، **ومعظمهم كانوا يعتبرون كلمة فلسطينى مرادفة لكلمة يهودى ، ويعجبون لوجود عرب فى فلسطين ! وكل ذلك بطبيعة الحال نتيجة للدعاية اليهودية المتلاحقة ••**

وأخبر أنطون صديقه بأن روح الزملاء قد بدأت فى التحسن ببطء ، وانه يأمل فى التغلب على أفكارهم الموروثة ضد العرب بمرور الوقت • وأن أمه قد التحقت بعمل منذ بداية العام فى دار للنشر تهتم بأمور الشرق الأوسط ، وتقيم بمسكن فى وسط لندن ، ولا تأتى الى بيت أبويها الا فى عطلة الأسبوع • وأنه أحيانا يذهب الى مسكنها فى عطلة الأسبوع ليقوما معا باكتشاف مجاهل لندن ••

ولم ينس أنطون فى النهاية أن يؤكد له مواثيق الصداقة ، **وان اليوم آت لا ريب فيه للعمل معا فى ميدان الكفاح الوطنى ، بعد أن تنتهى فترة هذا « المنفى » •**

- ٣ -

كان الاعتقاد السائد ـ لدى جدى أنطون ووالدته وأساتذته فى المدرسة ـ انه « تأقلم » و « تكيف » بالجو الانجليزى والحياة الانجليزية على أتم وجه ممكن . ولكن « جيرالد جونز » وحده ـ بما كان يعرف عن التأقلم والتكيف بصورة علمية وعملية ـ هو الذى كان يشك كثيرا جدا فى حقيقة ذلك التكيف الرائع المزعوم .

لقد كان أنطون فى ظاهر أمره فتى « انبساطيا » غير منطو على نفسه ، يشارك فى النشاط المدرسى ولا سيما فى ملاعب المدرسة وفرقها الرياضية بشتى أنواعها ، ويسهم فى التدريب العسكرى بشغف كبير ويبذل جهدا كبيرا فى مناوراته ومبارياته الشاقة ، ويحرص على الابتسام والدماثة وتقبل النكات اللاذعة بصدر رحب ، **وكانت معظم نكات رفاقه فى المدرسة تنصب على « الشيوخ » و « الحريم » وحياة القبيلة فى الصحراء !**

ولكن الى جانب هـذا لم يكن أنطون يعتبر تلك الروح الاجتماعيـة الشائعة بين الزملاء ذات صلة ما بالصـداقة الخاصة . فالكل صحاب له ورفاق مرحون ، وهو مرح ودمث مع الجميع ، ولكن ليس له صديق بالمعنى الخاص لتلك الكلمة . وكثيرا ما كان يذهب الى رحلات ونزهات فى نادى التجديف بالمدرسة .. أو فى نادى الطيران صباح يوم الأحد ، أو يزور زميلا فى بيته يكون قـد أبدى نحوه فهما خاصا وهو من الطلاب الفقراء الذين يتعلمون بالمجان لتفوقهم ـ على خلاف المستوى السائد بين التلاميـذ وكلهم من أبناء الميسورين ـ

ويتناول لديه « الشاى الكبير » • وفى بعض الاحيان كان يزور بيت زميل آخر قريب من بيت جده ليشاهد التليفزيون ، لأن جده لم يقتن ذلك الجهاز المبتكر • وكان اسم هذا الصديق « مايكل لندلى » • وأحيانا كان يذهب معه لمشاهدة أحد الافلام « الجبارة » — على حد تعبير مايكل — فى احدى دور السينما القريبة من البيت • ومعظم هذه الأفلام « الجبارة » تدور حول الحرب والمغامرات • ولم تكن هذه الموضوعات تعنى أنطون كثيرا ، ولكنه كان يذهب مجاملة لزميله ، ولأن الموافقة أسهل عليه من الرفض أو الاعتراض •

أما الأشياء المحببة اليه حقا فهى التنزه سيرا على الاقدام مع جده فى المتنزه العام الكبير ، أو السير بمفرده فى الغابة وهو يرسل خواطره الى بعيد ، **حيث يصحب « وليد » فى رحلات ذهنية ووطنية ، ويفكر فى أحلامهما التى يحس انها أصدق وأكثر واقعية من هذا الحاضر الذى يعيش فيه منفيا ، قلبا وقالبا** •• ويتلو تلك النزهات فى المكانة والايثار نزهاته يوم الأحد مع أمه وزياراتهما للمتاحف الفنية ، وأحاديثه الدسمة المثيرة للذهن والقلب مع معلمه السابق المصاب بشلل الاطفال « جيرالد جونز » •

ولم يدر بخلده طبعا أن « جيرالد جونز » يمكن أن يحل فى قلبه محل صديقه العربى وليد ، لأن جونز كان فى الخامسة والعشرين ، وهى سن تبدو لأنطون كبيرة نسبيا بطبيعة الحال ، بيد أنه كان يحب تلك الحجرة المبطنة جدرانها من الارض الى السقف بالكتب ، فى ذلك البيت الكبير القبيح الشكل •• ويحب تلك المعاملة السمحة التى يعامله بها أستاذه السابق ، وهى معاملة الند للند ، التى تخفف عن كاهله الشعور القاسى بعدم النضج ، ذلك الشعور الذى كثيرا ماعانى منه حتى وهو فى صحبة وليد بشخصيته الطاغية •

بل انه مع جونز يستطيع أن يكون صاحب اليد العليـا ، **لأنه يتحدث اليه عن فلسطين وأحوالها ، ويجيب على أسئلة جونز التى يوجهها اليه بطريقة تشعره بأنه مصدر هام للمعرفة، وما أحب ذلك الى نفس أنطون بعد ساعات الدرس الطويلة التى يتلقى فيهـا المعلومات من أسـاتذة يعتبرونه جاهلا على الدوام ، ويشعر أمامهم فعلا بأنه جاهل ٠** وشتان ما بين هذا الشعور ، وذلك الشعور الذى يوحيه اليه جونز وهو يصغى لاجاباته فى تقدير واهتمام ٠

وكذلك كانت مسز جونز ـ والدة جيرالد جونز الارملة ـ تعامله بمودة وكأنه رجل ناضج ، وتسأله رأيه فى بعض نوابغ الممثلين الانجليز الذين يشهد أفلامهم أحيانا ، مثل « السير جوينس » الممثل والمخرج العبقرى ٠٠ وهو احساس لا توحيه اليه جدته ولا والدته ، فلا عجب اذا ألفى نفسه على سجيته ، واستمتع بشعور بنمو شخصيته لم يتوفر له فى بيته ولا فى مدرسته ٠

انه فى مدرسته مطالب دائمـــا بالتظاهر بالسرور والمرح وسعة الصدر أمام المضايقات والنكات اللاذعة أو السمجة ، حتى لايقال عنه أنه « انطوائى » ٠ فهو من خوف الانطوائية فى انطواء يتخذ صورة « الانبساط » ٠٠ ولا سيمــا أن اسمه وسحنته وكل شىء فيه يذكر زملاءه باختلافه عنهم فى المنبت والسلالة والتكوين النفسى والاجتماعى ٠ أما هنا فهو لا يتصنع شيئا ، ولا يحس بحاجته الى التصنع أو التظاهر ٠٠ وعناصر تفرده التى تحسب « عليه » فى المدرسة تحسب « له » هنا فى بيت آل جونز مزية يستحق بسببها الرعاية والاهتمام والتقدير.

ومع هذا كله لم يفض أنطون حتى ولا لجيرالد جونز بحلمه المقدس حول طريق بئر سبع ، طريق العودة ، طريق النضال ٠

فهذا سر بينه وبين وليد ، وليس من حقه أن يبوح به لأحد . فطريق بئر سبع هو رمز عقيدته الوطنية التى لا تقل قداسة لديه عن عقيدته الدينية ..

وهذا السر المقدس هو الذى يكمن وراء قلقه وعدم استقراره، ذلك القلق الذى يختفى تحت سطح ظاهرى من المرح والدماثة . وقد استطاع جونز الشاب المقعد المشدود على مقعده ذى العجلات ان يستشف هذا القلق ويحكم بأن الفتى العربى لم يستطع بعد أن يصل الى « التأقلم » بالحياة الانجليزية ، رغم كل هذه الظواهر الخادعة .

ان جونز شخصيا لم يكن يشعر انه على سجيته وهو فى اكسفورد ، رغم سمعته بين أقرانه بأنه شاب مرح سليم الطوية . وقد ظل الناس مخدوعين فيه الى أن حلت به كارثة المرض المقعد ، فحررته أخيرا من تكاليف التظاهر الخادع ارضاء لمن حوله !

وان وراء ابتسامة أنطون البريئة المشرقة لكثيرا جدا مما لا يخطر ببال زملائه الانجليز . فهذا الفتى البرىء - كأنه شماس فى فرقة المرتلين بالكنيسة - قد سمع بأذنيه منذ سنين صرخات العذارى يغتصبهن جنود اليهود .. وصيحات النساء العقيلات المحصنات ينتهك حرمتهن جنود اسرائيل ! ..
ورأى بعينيه رجالا ونساء من مواطنيه يشربون بول بعضهم البعض ، ويتقاتلون على الظفر بقطرة منه !.. شهد بنفسه كيف تجرد الناس من انسانيتهم تحت وطأة ذلك الاضطهاد الوحشى فى البرية ، ورأى وجها لوجه ملك الموت وهو يطارد الناس مطاردة رهيبة مفزعة ..!

كل هذا كان جونز يعرفه ، فلم يصدق لحظة واحدة أن أنطون يمكن أن ينسى تلك الذكريات المروعة ، أو ان تظاهره المتقن

بالاستسلام والانقياد لمشيئة الله يمكن أن يدل على حقيقة حالته النفسية . ان « التأقلم » فى هذه الحالة لا يمكن أن يدل على طبيعة سوية خالية من الشذوذ ، بل هو فى مثل هذه الظروف دليل قاطع على الشذوذ ، وتبلد الاحساس .

ولذا كان جونز واثقا كل الثقة أن أنطون منصور يحن الى وطنه فلسطين العربى حنينا ملحا لا هوادة فيه .. حنينا مضاعفا ، لأنه قاسى الانتزاع من جذوره الاصلية فى منبته الاول بمدينة اللد ، يوم تلك المسيرة الرهيبة المشئومة .. ثم قاسى مرة اخرى الانتزاع من وطنه كله ليعيش فى لندن بجوها القارس وأحوالها الاجتماعية الفكرية التى لا تمت الى الشرق بصلة ، ولا سيما أن رحيله من اريحا الى لندن جاء على أثر فجيعته فى أبيه الذى كان يحبه أشد الحب .

لابد أن يكون المرء أبلها أو معتوها حتى تزايل احساسه مثل هذه الكوارث المزلزلة بهذه السرعة وهذا اليسر الذى يتوهمه المخدوعون بمرح الفتى ودماثته . ولكن أنطون منصور فتى ذكى العقل والقلب ، مرهف الحس ، فلا يمكن اذن أن يكون هذا موقفه الحقيقى . ولابد أن ثمة توترا شديدا تحت هذا القناع التمثيلى المتهلل على الدوام ..

كان هذا رأى جيرالد جونز ، وكان أنطون لا يعرف عن هذا الرأى شيئا ، وكل ما هناك أنه يحس بعدم حاجته الى التظاهر وهو فى بيت آل جونز .. ولكنه كان يأنس للوحدة أكثر أيضا مما يأنس الى بيت آل جونز .. لأنه فى وحدته يستطيع أن يطلق العنان لخواطره ويتصور نفسه فى مروج (رام الله) وروابيها أو فى كنف جبل التجربة عند أريحا ، فى صحبة صديقه وليد .

وفى أول صيف قضاه بانجلترا بعد انتهاء السنة الدراسية، كتب الى وليد يقول له :

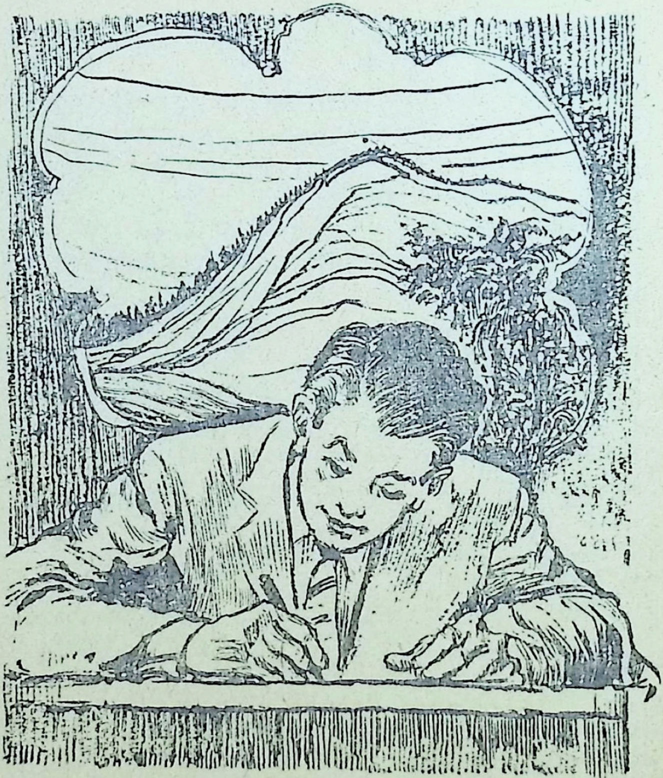

« .. لأنه فى وحدته يستطيع أن يطلق العنان لخواطره ويتصور نفسه فى مروج (رام الله) وروابيها ، أو فى كنف جبل التجربة عند أريحا ، فى صحبة صديقه وليد ! .. وقد كتب اليه يقول : »

« لقد حظينا هنا ببضعة أيام من الدفء وصلت فيها درجة الحرارة الى ٨٠ فهرنهيت ، فلبس الناس نظارات سوداء وراحوا يقولون : ألاما أشد هذا الحر ! .. وعندما أقول لصحابى الانجليز أن الحرارة فى أريحا فى مثل هذه الايام تصل الى حد فظيع جدا حتى أن الذباب يموت من وطأة الحر ، يظنون أننى أمزح ، ولا يتصورون حرارة أشد من ٨٠ فهرنهيت ! » .

وقد انتهزت ماريان فرصة اجازة حصلت عليها من عملها فصحبت أنطون الى مقاطعة (بريتانى) بفرنسا ، لا لشىء الا لتتخلص من جو انجلترا وأهلها وتستمتع بمنظر البحر على هواها . وكانت قد صحبت والديها فى فترة طفولتها الى هذا الموضع عينه أثناء أجازة حصلوا عليها أثناء خدمة أبيها فى فلسطين ، فكانت (سان مالو) بالذات من الأماكن التى ظلت عالقة بذهنها منذ ذلك الحين باعتبارها منتجعا للجمال الطبيعى الأخاذ . والى هناك صحبت ابنها مع أنها كانت تعلم سلفا أن أكثر من ثلاثة أرباع مدينة سان مالو العتيقة ذات الأسوار قد تهدمت أو أحرقت أثناء معركة تحريرها فى سنة ١٩٤٤ . ولكن قيل لها انها جددت بسرعة وأن حصون القرن الثانى عشر التاريخية لم تزل على حالها لم يمسسها اذى .

وكانت الرحلة البحرية الليلية الى هناك مثيرة جدا بالنسبة لانطون الذى لم يركب باخرة قبل ذلك ، وانما كانت رحلاته كلها عبر البحر بالطائرة . وكان تفكيره فى أثناء تلك الرحلة البديعة منصرفا الى صديقه وليد . أما أمه ماريان فكان تفكيرها منصرفا الى بطرس منصور ، وهى تتساءل لماذا لم يرحلا معا الى أوربا مثل هذه الرحلة الجميلة التى تتراءى فيها طيور النورس محمومة صائحة فوق رءوس الركاب ؟ لماذا لم يتجاوزا فى رحلاتهما بيروت عاصمة لبنان ؟ وكان الجواب الطبيعى الذى خطر لها ان

رغبتهما لم تتجه هذا الاتجاه ، ولو شاءا لما حال بينهما وبين تلك المتعة شيء · فان بطرسا كان يحب بيروت حبا جما ، فكان يختارها للنزهة والاستجمام كلما نزعت نفسه الى التغيير · وكانت رغبة بطرس قانونا نافذا على الدوام بالنسبة لها ، فلم تفكر قط فى مخالفته أو اقتراح شيء غير الذى خطر بباله· ولكن لو أن المقادير أمهلته بضع سنوات أخرى لحضر معها ومع أنطون الى انجلترا لاتاحة فرصة اتمام التعليم لوحيدهما ، وعندئذ كانت (سان مالو) وما اليها من الاماكن الجميلة فى أوربا حرية أن تفوز باختياره عوضا عن بيروت ·· **ولكن هذا كله لم يسمح به الزمن لأن « النكبة » حطمت قلب بطرس قبل الأوان ··**

ولاحت منها نظرة الى أنطون وهو واقف بجوارها مستندا الى سياج الباخرة ، والهواء يعبث بشعره الأسود الغزير ، ونظرة جد واهتمام تتراءى فى عينيه ، فقالت فى نفسها :

– هذا أنطون بن بطرس منصور ·· وليس الفتى الذى كان يرتدى منذ أيام قلائل قبعة المدرسة الانجليزية ولا يكاد المرء يميزه بحال من الأحوال من سائر أبناء الانجليز أقرانه فى السن. هذا أنطون صديق وليد الذى ذهب معه فى عيد الفصح قبل المنصرم الى الخليل ، **وقد أطلق الآن من أسر الحياة الانجليزية وشكلياتها وارتد الى عنصره الاصيل · انه بعينه أنطون الذى سيعود يوما ما الى مسقط رأسه وأرض ميعاده ووطن أبيه وأجداده العرب ··**

وعندما طلع النهار وخرجا من قمرتهما بالسفينة ليلفيا نفسيهما تحت أسوار سان مالو تقريبا ، صاح أنطون فى حبور :

– ألا ما أشبهها بمدينة القدس !

– نعم · على نحو ما · ولكن الحياة وراء هذه الأسوار مختلفة تماما عن الحياة التى وراء أسوار القدس · كما أن هذه الاسوار

التى تراها أقدم من أسوار القدس بنحو أربعة قرون !

ونزلا فى فندق صغير يقع فى شارع ضيق منحدر يكثر فيه المصطافون الى درجة الازدحام ، وعلى جانبيه عشرات من حوانيت الفاكهة والخضر ، والمقاهى الصغيرة ، مما ذكره الى حد ما بجو مدينة القدس القديمة • ولكن ماريان شددت على أنطون كى لا يصرف اهتمامه الى الشوارع الضيقة ، لانهما لم يأتيا لرؤية الحوانيت والمقاهى والازقة الداخلية ، بل للتمتع بالبحر وهوائه وأمواجه الزبرجدية •

وأوشك الفتى وأمه أن ينسيا نفسيهما وهما يتطلعان الى جمال البحر الصافى ، بخضرته الشاحبة ، من فوق تحصينات المدينة التاريخية • والحق أن المنظر من هناك لا يمله المرء ولو قضى فى ذلك ساعات النهار جميعا •

وعندما انخفض مستوى الماء بانحسار المد ، سارا معا الى الجزيرة الصغيرة التى يواجه فيها البحر الصاخب اللامتناهى **ضريح من الجرانيت دفن فيه الكاتب الفرنسى العظيم « شاتوبريان » ، تحف به الازهار البرية الكثيرة التى يحمل الهواء عبيرها المسكر مع كل نسمة من نسماته ، مختلطا برائحة العشب البحرى المتراكم ••**

وعثرا على فجوة بين الصخور بعيدة عن مهب الريح ينمو فيها العشب البرى والاقحوان ، وهناك افترشا الارض ، وتنهد أنطون بارتياح وهو يملأ عينيه وصدره من البحر وهوائه، وقال :

— ألا ليتنا لا نعود الى لندن !

— حقا ؟ لقد حسبتك تحب لندن بما لك فيها من أصدقاء ، وزملاء فى المدرسة ، وفرق رياضية ، والمتنزه العام الكبير ••

— كل هذا حسن ، ولكننى أشعر باننى لا أنتمى الى شىء من هذا •

– ولكنك يا بنى نصف انجليزى !

– أعلم هذا • ولكنى لم أولد هنـــاك • ولم أعش فى تلك الديار قبل هذا العام ••

– ولكنك أقل انتماء الى هذا المكان – من أرض فرنسا – الذى لا تربطك به ولو آصرة اللغة •

فبادر يرد عليها قائلا :

– بالعكس ! ان انعدام آصرة اللغة من شأنه أن يجعل الأمر أسهل على نفسى !

– لمـاذا ؟

– لأننى فى هذه الحالة سوف لا أكون مطالبـا بالاختلاط والاندماج الاجتماعى الكلى •• والحقيقة انى لا أشعر فى جميع الأوقات برغبة فى الاندماج الاجتماعى •

– ادرك ماذا تعنى ، ولكن لابد لك من التعليم كما تعلم •

– لقد كنت أتعلم على ما يرام وانا فى (رام الله) !

– ولم يكن فى وسعى أن أبقى فى الاردن يا أنطون ، وأبوك نفسه فى الليلة السابقة لوفاته أوصانى أن ••

وتهدج صوتها وراحت تلتمس منديلها فى حقيبة يدها وهى تحاول عبثا رد طوفان الدموع التى انبجست فجأة •• فاستولى على أنطون الندم وقال لها :

– واها لى ! لقد سببت لك الاسى فى هذه اللحظة الجميلة. أرجوك ألا تحزنى وتبتئسى ! انى على خير حال فى لندن ، وكل ماهناك انى أشعر بالحنين الى وطنى أحيانا ، واشتاق الى وليد • ولمـا وجدت نفسى هنا بعيدا عن انجلترا ، تجدد عندى هذا الحنين والشوق ••

– أعلم هذا يا ولدى • ولكن تذكر انك ستكون فى الخامسة عشرة من عمرك هذا العام ، وبعد ثلاثة أعوام أخرى ستعود الى

الاردن ان شاء الله ! وهى ليست بالمدة الطويلة ، أليس كذلك ؟
– كلا فى الواقع ..

ونهض قائما على قدميه ومد يده الى أمه ليعينها على النهوض، قائلا :

– هيا بنا نتم جولتنا حول الجزيرة ثم نعود الى التحصينات لنحظى هناك بتناول « الجيلاتى » فى شرفة المقهى تحت المظلات الكبيرة !

وانجابت أمام هبات هواء البحر الطلقة سحابة الأسى ، ولم تبق أمامهما سوى صفحة الحاضر البهيج ..

- ٤ -

كان مقسوما لرحلة (سان مالو) ان تظل ذكرى مفردة فى ذهن أنطون وأمه ، لأنها كانت الرحلة الوحيدة لهما فى العطلات • فقد قرر « روبرت ملبى » ان غلاما فى الخامسة عشرة لا ينبغى أن يقضى عطلاته ملازما لأمه على هذا النحو ، ووافقت ماريان اباها على مضض ••

وتغير بالفعل منوال حياتهما • فعندما حلّ الصيف التالى كانت ماريان شديدة الانهماك فى عملها ، أما انطون فذهب مع رفاقه فى التدريب العسكرى الى معسكر صيفى ابتداء من شهر يوليو ، وكان قد حصل قبل ذلك على « شريط » صار مصدر اعتزازه وزهوه ، وجعله يشعر بأنه أكبر سنا بكثير من الغلام الذى ذهب منذ عام واحد الى (سان مالو) فى صحبة والدته • **لقد صار انطون بطرس منصور « أومباشيا » ، ثم لم يلبث أن صار «جاويشا» ، الأمر الذى جعله يبرز صدره الى الأمام ويبدو أكثر ثقة بنفسه فى كسوته الصفراء !••** وقد ساعده ذلك على عدم اللجوء الى التظاهر كى يكسب تقدير رفاقه ، لأنه صار الآن « شيئا مذكورا » بغير حاجة الى استرضاء أحد •

أما ماريان فاندمجت فى قسم التحرير بصحيفة الشرق الأوسط التى تعمل بها ، واستفادوا من معرفتها للغة العربية فبعثوا بها فى الصيف الى بيروت لجمع معلومات معينة ، ثم طارت من هناك الى الكويت أثناء وجود انطون فى معسكر التدريب • ومن الشرق كتبت الى أمها تخبرها انها سوف لا تعود الى انجلترا

الا بعد عيد الميلاد ، وطلبت منها السماح لانطون بالذهاب الى سويسرا فى الشتاء للتمتع بالانزلاق على الجليد مع زميله لندلى فى عطلة عيد الميلاد ورأس السنة .

وبطبيعة الحال رحب انطون بهذه الفكرة ترحيبا كبيرا ، لأنه كان زاهدا جدا فى قضاء عيد الميلاد فى انجلترا بعد تجربته الأولى . وفى الوقت نفسه كان يحب « لندلى » كثيرا — وهو أكبر منه سنا بعض الشيء — لأنه يشاركه الاهتمام بمعسكرات التدريب ويذهب معه فى أيام الصيف فى ساعة مبكرة للسباحة قبل موعد الدراسة فى بحيرة صغيرة محاطة بالأشجار الكثيفة قرب طاحونة الهواء فى المتنزه العام . والماء فى تلك الساعة يكون باردا كالثلج ، والرحلة الى هناك على الدراجة تبعث النشاط والمرح . وبعد السباحة يعودان معا الى بيت جديه لتناول الافطار بشهية عظيمة .

ولم يقصر أنطون فى واجباته المدرسية رغم هذا النشاط الرياضى المتنوع ، ونجح بتفوق فى امتحان آخر السنة ، وبذلك لم تبق أمامه الا سنتان على التخرج ..

❋ ❋ ❋

لكن ماريان عادت فى تلك السنة قبل عيد الميلاد ، وبذلك ألغى أنطون رحلته الى سويسرا وقضى العطلة مع أمه وجديه ، الا أنه لم يذهب معهم الى السهرات العائلية ، بل قضى سهرات مع رفاقه التقى فيها بفتيات كثيرات ، **بيد أنه لم يشعر بارتياح الى صحبتهن . ولما وجدنه خجولا مرتبكا فى معاملتهن ، متحفظا فى حديثه وحركاته معهن ، استصغرن شأنه واعتبرنه « تلميذا » غشيما فى أمور الغرام !**

وتجول مع والدته عشية عيد الميلاد فى ميدان الطرف الأغر ،

واستمع للترتيل الشجى ، واستمتع بالشجرة السكندنافية العملاقة المعدة فى الميدان بمناسبة عيد الميلاد ٠ وفى صباح عيد الميلاد ذهبوا جميعا ـ بما فيهم جده ـ الى الكنيسة ٠

وكانت هذه الفترة بداية انحسار فى صداقته بلندلى ، الذى أبدى فى حفلات عيد الميلاد اهتماما واضحا بصحبة الفتيات ، لا عن اهتمام بواحدة منهن بالذات ، بل كان « الجنس » فى مجموعه يستهويه بصورة خارقة لم يسترح اليها أنطون !

أجل انهما لم يزالا على عهدهما من السير معا أثناء فترات الراحة بين الدروس ، ولكن التقاءهما خارج المدرسة قل كثيرا عن ذى قبل ، **لأن أنطون شعر بعدم القابلية أو عدم القدرة على مجاراته فى اهتماماته الجنسية الجديدة ٠ بيد أن ذلك لم يثقل على نفس أنطون ، لأنه من جانبه استحدث لنفسه اهتماما من نوع جديد خاص به ، وهو الاهتمام بالكتب** ٠ لقد كان يشعر قبل الآن أن عدم استقراره يمنعه من قراءة أى شىء سوى ما تتطلبه دراسته من الكتب العلمية ٠ ولم يكن لديه متسع من الوقت للقراءة الخاصة كهواية ٠ وحتى فى تلك الأوقات التى لم يكن ذهنه فيها مركزا على موضوعات الدرس ، **كان خياله يشرد به دائما الى روابى فلسطين وآجامها وتلالها وخمائلها ، فيتذكر تارة أباه فى أريحا ، وتارة أخرى يتمثل وليدا فى (رام الله) ٠٠ أو تتراءى له طريق ٠٠ (بئر سبع) !**

ولكن فى عيد الميلاد من هذه السنة قدم اليه أستاذه « جيرالد جوتز » المجلد الأول من مذكرات شاتوبريان ، بمناسبة زيارته السابقة لسان مالو حيث ولد الكاتب العظيم وحيث زار مع ماريان ضريحه ، وقال له :

ـ لقد كان شاتوبريان غلاما يشعر بوحشة ووحدة عظيمتين ، وكان مرهف الحس مشبوب الخيال ٠ وقد يروق لك أن تتعرف على معالم طفولته وصباه ، وسترى كيف كان أبوه

القاسى يرغمه على النوم بمفرده فوق قمة برج من أبراج القلعة العتيقة . وكان الشائع بين الناس أن ذلك البرج تسكنه الأشباح والأرواح الشريرة . ولا سبيل للوصول الى قمته الا عن طريق مشارف يعشش فيها البوم الذى يتطاير فى الظلام وهو يرسل نعيقه الكئيب الرهيب مختلطا بهزيم الرعد وزمجرة رياح الشتاء وهدير الموج فى البحر الثائر !

والحقيقة أن جيرالد أثار اهتمام أنطون بالكتاب عن طريق اثارة خياله ، فراح الفتى يقرأ الكتاب بنهم عظيم . **ولم يستجب كثيرا لما قرأه فى تلك الصفحات من شدة حنين « فرانسوا رينيه شاتوبريان » الصغير الى الحب الانثوى ، فما كان هذا الحنين ليجد صدى فى نفسه** ، ولكن مخاوف الغلام الصغير ، وخجله ، وتردده ، وشكوكه ، وجدت صدى عظيما فى نفس الفتى العربى المغترب ، وكذلك الاحساس بالعبء الباهظ الذى يلقيه على كاهله الواهن هذا العالم غير المفهوم !

وقرر أنطون أن يذهب مرة أخرى يوما ما الى (بريتانى) فيزور قلعة « كومبيرج » ويعبر تلك المشارف الرهيبة التى اجتازها فى الظلام ـ ليلة بعد ليلة ـ ذلك الفارس الفرنسى الصغير « شاتوبريان » وهو يقاوم الفزع والارتياع . وأفضى أنطون بهذه الرغبة الى أمه ، فوعدته بأن يذهبا الى هناك فى عطلة عيد الفصح ، ثم تأجلت الرحلة الى عطلة الصيف ، ولكن الظروف حالت دون تنفيذ هذا الوعد على نحو أو آخر . ولم يضر ذلك أنطون كثيرا ، لأنه تجاوز مرحلة ذلك الكتاب الى كتب أخرى استأثرت بتفكيره . فقد اهتم بكتب المغامرات الحقيقية والرحلات ، ومن أهمها رحلة جزر الهبرايد للدكتور جونسون ، وقد استعار هذه الكتب من مكتبة « جيرالد جونز » ، ثم نقب فى مكتبة جده عن كتب أخرى فوجد كتابا عنوانه « سعيد

* * *

الصياد » بقلم « بكثول » • وسعيد هذا رجل شجاع لم يتردد فى أن يموت شهيد الاسلام على صورة لم يتمالك أنطون نفسه من الهتاف لها بحماسة عند الفراغ من تلاوة قصته • وسأل أنطون عن هــــذا المؤلف « بكثول » ومن عساه يكون ، وهو يجد فى كتبه وصفا صادقا لأحوال فلسطين منذ أواخر القرن الماضى ، فقال له جده :

– انه ابن قس انجليزى ، وقد أحب الشرق العربى وفلسطين وسورية واعتنق الاسلام وتعلم العربية وتفقه فيهــــا وترجم القـــرآن الى الانجليزية • وأدرك أن الصهيونيـــة لا يمكن أن تنتعش فى فلسطين الا تحت حماية الحراب الانجليزية • وقـــد كتب ذلك صراحة فى سنة ١٩٢٩ • وقد لاقت قصته « سعيد الصياد » رواجا كبيرا بين القراء الانجليز ، ولكنه صار الآن طى النسيان • وهو بلا شك من أعرف الناس بأحوال العرب وأكثرهم حبــا لهم • ولكم أثاره الظلم الذى يصب على عرب فلسطين صبــا بالتعـــاون المتواطىء بين الحـــكم الانجليزى والصهيونية • وقد مات الرجل فى ســـنة ١٩٣٦ ، وكانت ترجمة القرآن آخر أعماله ، وكان القدر رحيما به حين جنبه عذاب مشاهدة النكبة التى حلت بفلسطين •

قصصه الانجليزية فلا تعجبها على الاطلاق • و «سعيد الصياد» فى نظرها أحسن ما كتبه عن بلاد العرب ، لأن ذلك الكاتب لم البسطاء والأميين ، فقد كان يفهم روحهم وعقليتهم جيدا •

وكانت تعجب كثيرا بكتبه عن الشرق وبقصصه الشرقية ، أما واكتشف أنطون أن أمه تعرف « بكثول » وقرأت كتبه ، يكن يغرف شيئا عن المتعلمين العرب ، وكانت كل معرفتـــه

وكان المفروض بعد انتهـاء أنطون من المدرسة الثانوية ألا يدخل مدرسة العلوم الاقتصادية لدراسة العلوم الاجتماعية الا بعد تمضية سنة فى التمرين العملى على الخدمة الاجتماعية ، ففكر في أن يمضي تلك السنة من التمرين والخبرة في المملكة الأردنية بين مواطنيه اللاجئين ، كي تكون هذه السنة فرصة له للاجتماع بصديقه وليد ، ولعلهما يستطيعان في غضون تلك السنة التسلل الى بئر سبع ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

وأفضى بفكرته الى جده الذى قال له :

– لست أرى ما يمنع من ذلك ، بشرط أن توافق أمك على هذا السفر بطبيعة الحال . فانها قد لا تميل كثيرا الى فراقك سنة كاملة .

– ولكنها ستسمح لى بالسفر اذا أنت حبذت فكرتى ، وقلت لها ان أبى كان حريا أن يقرها لو كان على قيد الحياة . أليس هذا رأيك يا جدى ؟

فنظر روبرت ملبى الى وجه حفيده المتلهف ثم قال :

– بلى ! أظن هذا . فقد كان يريد لك أن تظل عربيا ، وان كان حريصا على أن تتلقى تعليمك فى انجلترا . ولكنه من جهة أخرى ما كان يحب لك أن تهجر أمك ..

– ولكني سوف لا أهجرها يا جدى . فلسوف أعـود فى نهاية السنة وسأبقى هنا سنتين لتلقى المحاضرات فى الجامعة . ثم أنها لا ترانى أثناء العام الدراسى الا مرة واحـدة فى عطلة الأسبوع . وفى بعض الأحيان تمر العطلة الأسبوعية من غير أن ترانى ، حين تكون مشغولة أو مسافرة لتسقط الأخبار ! أنا واثق انها لن تمانع .

– سنبحث الأمر كله يوم الأحد . ولكن خبرنى هل فكرت فيما ستصنعه هناك فى الأردن ؟

فاحمر وجهه وقال :

ـ خطر لى أن أساعد فى ادارة معهد العميان ببيت لحم حيث يقيم صديقى أمين . واعتقد أن فى وسعك أن تمهد لى ذلك ، بما أن معهد بيت لحم تابع للجمعية التى تشرف على معهد يافا حيث كنت تعمل أنت فيما مضى . ولا سيما اننى أعرف الشىء الكثير عن العميان بسبب معاشرتى الطويلة لأمين كما تعلم .

ـ فكرة طيبة فعلا ، بل طيبة جدا . سأذهب الى مقر الجمعية وأتحدث اليهم فى هذا الموضوع منذ الآن ، فهذه المسائل يستغرق الانتهاء منها وقتا طويلا الى أن تتم الموافقة ..فهناك مستويات كثيرة للجان كما تعلم .

ـ شكرا لك . وثق انى مستعد للقيام بأى عمل هناك مهما كان صغيرا ، ولن أخذلك ، لأنى فى الحقيقة مهتم جدا بالعميان ولا سيما أن « أمين » سيكون معى طول الوقت . وسيكون فى وسعى أن أرى صديقى خالدا فى أوقات فراغى .. ألا ما أبدع هذا !

ـ ولكن ما الذى جعلك تفكر فى هذه الأمور كلها ؟ هل أصابتك نوبة أخرى من الحنين الى الوطن ؟

ـ أوه . ان المسألة فى مجموعها معقدة كما تعلم ، ويدخل فيها عدد كبير من العوامل ..

ـ مفهوم . مفهوم . ان فلسطين طبعا حياتك الحقيقية . ولقد كان فلسطين حياتى الحقيقية يوما ما . ثق انى سأفعل كل ما أستطيع لتحقيق هذا الأمل ان شاء الله !

ـ ان شاء الله ..

- ٥ -

جرى هذا الحديث فى حجرة الجلوس فى مساء من أمسيات نوفمبر الباردة ، والضباب يزحف من المتنزه العام متسللا الى داخل البيت على الرغم من النوافذ المغلقة والستائر المسدلة . وقد جلس مستر ملبى فى مقعده الوثير العتيق بجانب النار ، وجلس قبالته أنطون . أما «الزبيث» فكانت خارج البيت تحضر اجتماعا لاحدى اللجان المحلية التى تشترك فيها . ولذا أتيح لأنطون فى هذا المساء أن يسترخى فى جلوسه كما يشاء وان يطعم نيران المدفأة بكتل من الخشب ليحول بينها وبين الخمود . **أما جده فهو على عادته معه لا يبدى اعتراضا على تصرف من تصرفاته ، بل يشعر انطون فى قرارة نفسه ان جده يضمر التشجيع له على أنواع السلوك التى تضيق بها جدته !** ولذا فهو يشعر بالألفة الشديدة وسكينة النفس حينما يخلو الى جده فى الدار على هذا النحو ، بينما جدته تقضى وقتها فى الخارج .

مسكينة هذه الجدة ! فهى من ذلك الطراز من الناس الذى تشعر انه يحبك أكثر بكثير مما تحبه ، وكنت حريا أن تحبه بمزيد من القوة والعمق لو ان حبه لك خفت حدته قليلا !

وتخيل انطون ان الجدة عادت من الخارج وان أول ما صنعته انها بددت تلك العتمة الحبيبة الى النفس ، وما تفيض به من حرارة وايناس ، فأوقدت المصابيح الشديدة وصاحت بهما فى استنكار كعادتها :

- لماذا تجلسان هكذا فى العتمة ؟ وهذه النار المتأججة ! ان الحرارة هنا شديدة لا تطاق !

وبسرعة يروح كل منهما يرفع الوسائد الصغيرة من وراء

ظهره ويعيدها الى مكانها المرسوم من حجرة الجلوس • أما الجدة فتتناول صحف المساء الملقاة حيثما اتفق فوق أحد المقاعد ، وسرعان ما « ترتبها » فى مكان خفى عن الانظار كالعادة !

ويعقب ذلك قرقعة مألوفة ، وصليل الأوانى الخزفية ، لأن الجدة تصنع الشاى • وبعد الانتهاء من صنعه ، تملأ قدر الماء كعادتها كل ليلة لاعداد الماء الساخن الذى تملأ به الزجاجات لتدفئة أسرة النوم •

وكالعادة كل ليلة أيضا ، تتوقع الجدة من انطون بعد تناول شايه وبسكويته ان « ينسحب » الى حجرته بعد أن يذهب الى المطبخ ليأخذ زجاجة الماء الساخن • ولكن الوقت لم يكن قد جاوز الثامنة مساء بكثير • **ولم تكن الجدة قد عادت بعد • وليس من المنتظر ان تعود قبل ساعتين • وفى وسعه هو وجده أن يتحدثا ما طاب لهما الحديث أو يصمتا ما طاب لهما الصمت ، فصمتهما مأنوس كحديثهما أو أشد أنسا • اما الجدة فلا تعرف للصمت معنى ، الا اذا كان المرء يطالع أو يكتب** • اما فى غير هاتين الحالتين فهى تنتظر من كل انسان أن يتحدث فى شىء ،أى شىء ، حتى ولو لم يكن ثمة ما يستدعى الكلام • ولهذا السبب أيضا كانت تستخدم الراديو أقل استخدام ممكن ، لسماع نشرات الاخبار على الخصوص والنشرة الجوية • أما الكلام فلم يخلق له الراديو ، وانما خلقت له ألسنة الناس !•• فى حين كان الجد ينتهز فرصة خروجها من البيت ليدير مفاتيحه ويتلمس البرامج الموسيقية الجميلة من بروكسل أو لكسمبورج • وما أشد ما كان يأسى على انه لا يستطيع التقاط اذاعات عمان والقاهرة !

وفى ذلك المساء كان مدار حديثهما عن سفر أنطون الى الأردن • وكلما أوغلا فى مناقشة الموضوع بدا لهما ممكن التنفيذ • وارتفعت روح أنطون المعنوية ، حتى أنه صاح :

– لم تبق الا سنة واحدة ! أتظن ياجدى انه سيكون فى وسعى بعد ذلك أن أحتفل بأعياد الميلاد فى بيت لحم نفسها ؟

– ربما • ولكن والدتك قد تستاء ويتأذى شعورها • ولا تنس أيضا موقف جدتك من هذا التفكير !

– آه ! لقد حظيت « ماما » بعيد الميلاد فى الكويت عندما راقها هذا !

– ولكنها لم تمكث هناك سنة كاملة • اسمع ! هيا بنا نتصل بها الآن تليفونيا ونحاول الاتفاق معها على المسألة مبدئيا ••• !

وكانت ماريان فى شقتها الخاصة ، وقد أدهشها أن تتلقى حديثا تليفونيا من والدها ، وكان أول ما خطر لها أن سوءا أصاب أمها أو أنطون • ولكن والدها صرف عن ذهنها هذا الخاطر بالخوض مباشرة فى الموضوع :

– ماذا ترين فى قضاء أنطون سنة العمل التدريبى فى الأردن ، وربما كان هذا فى مدرسة المكفوفين ببيت لحم ؟

وأجفلت لأول وهلة ، ثم شعرت بضيق فقالت :

– وهل لابد لنا من البت فى هذه المسألة الآن ؟ لن تكون بنا حاجة الى ذلك الا فى السنة التى بعد التالية !

– هذه المسائل يستغرق تدبيرها وقتا طويلا ، والفكرة مستولية علينا أنا وأنطون •

– أهى فكرتك ؟

– بل فكرة أنطون • ولكنها تبدو لى فكرة طيبة •

– أتعنى انه هو الذى فكر فى هذه الخطة التى تبقيه بعيدا عن البيت سنة بطولها ؟

– انه ليس طفلا يا ماريان • ثم انه فى مقدورك عند القيام باحدى أسفارك الصحفية الى الشرق الأوسط أن تعرجى على القدس لتريه •

– لست أحب أن أذهب الى القدس مرة أخرى • وأنت تعرف شعورى لأنك أنت أيضا لا تحب هذا • فلماذا يريد أن يذهب الى هناك ؟ لقد كان الاتفاق فيما بيننا أن يقضى فى الأردن عطلة محدودة قبل أن يتسلم عمله الذى سيشرع فيه هنا • وينبغى أن يكون هذا حسبه •

– انه يشعر بالحنين الى وطنه ياماريان !

– ان وطنه فى الوقت الحاضر ها هنا !

– وهل نسيت انه ابن بطرس منصور ؟ ان وطنه فلسطين !

– لم يعد لهذا الوطن الآن وجود •

– لا • بل الضفة الغربية لم تزل قائمة ، حيث نابلس ، ورام الله ، وبيت لحم ، وأريحا ، والخليل • وفى امكان المرء أن يحن الى الجزء ، ان أعوزه الحنين الى الكل !

وعندئذ قالت ماريان فى صبر نافد : « ليس فى وسعنا أن نناقش هذا الموضوع عبر أسلاك التليفون ، فأبقه حتى أحضر يوم الأحد • »

– ولكن أنطون لن يواتيه النوم مالم يعرف أنك توافقين على فكرته من حيث المبدأ !

وتوسل اليه أنطون قائلا : « دعنى أكلمها ! »

فقال لها أبوها : « أنطون يريد أن يكلمك بنفسه • »

– أرجوك ياأماه أن تقولى نعم ! أرجوك !

– هل تكره انجلترا الى هذا الحد ؟

– أنا لا أكره انجلترا •• أنت تعلمين تمام العلم أنى لا أكرهها ! ولكنى أريد أن أرى وليدا وأمينا وعمى فريدا وسائر الأقارب • انى ان ذهبت اليهم فى نهاية العام القادم سأكون قد سلخت بعيدا عنهم أربع سنين ؟

– كثيرا ما يظل الناس بعيدين عن أوطانهم عشرين سنة ، أو ثلاثين ••• بل العمر كله أحيانا !

– لا أستطيع يا أماه ! هـــذا فوق مقـــدورى • لأموتن لو فعلت ! أرجوك ياأمى الحبيبة أن تقولى نعم !

وشعرت ماريان على الفور أنها خسرت الجولة ، فقالت : « ليكن • مادام هذا مطلبا عزيزا عليك الى هذا الحد • والآن دعنى أكلم جدك من فضلك • »

– أوه • أحبك يا أمى ! أحبك • أحبك !•• ها هو جدى •

وقالت ماريان لأبيها : « لعلك أدركت انى آنقدت لرغبته ، ولكننى غير راضية النفس • فأنا واثقة أنها غلطة •• »

– لست أدرى كيف يمكن أن تكون كذلك ياعزيزتى •

– دعنا من الكلام فى هذا الآن • وسأحضر للغـــداء يوم الأحد ان شاء الله •

– ان شاء الله • طابت ليلتك ياعزيزتى •

ووضع « ملبى » المسماع ، ونظر الى حفيده وابتسم كل منهما لصـــاحبه ، ثم قال ملبى : « سيكون كل شىء على مايرام •• انها فى الوقت الحاضر غير متحمســـة للفكرة ، ولكننا سنُدخل الطمأنينة على نفسهـــا يوم الأحد عنـــدما تحضر • »

فصاح أنطون : « بل هذا رائع • رائع جـدا ! كم كنت أتمنى لو جئتم معى ، انت وماما وجدتى •• فنعود كلنا معا الى الوطن •• »

أما ماريان فلم تتحرك من جوار التليفون بعد أن وضعت المسماع ، بل دفنت وجهها فى يديها ، واندفعت تبكى ••

- ٦ -

أما « الزبيث » فكانت صريحة فى معارضتها لمشروع سفر أنطون الى الأردن • وآذى شعورها أن يفكر أنطون مثل هذا التفكير ، وأغضبها أن يكون جده روبرت ضالعا معه فيه ، وأن تكون ماريان من الضعف بحيث لا تقف فى وجه هذا المشروع وقفة حاسمة ! •• لقد كانت الجدة موقنة أن أنطون لو عاد الى الأردن وقضى هناك سنة كاملة فسيكون فى ذلك القضاء المبرم على كل مابذل فى السنوات الاربع من جهود فى سبيل تأقلمه بالطباع الانجليزية ، وسيتعين الابتداء فى تلك الجهود من جديد ، حينما يرجع الى انجلترا • **ولكن هذا الذى ساورها لم يستطع أن يغير من الوضع شيئا ، لأن الأم والجد كليهما لم يجدا غضاضة فى شعور أنطون بعروبته وحرصه على تجديدها ، ولا تثريب عليه ان هو غلب عروبته الموروثة عن أبيه على ميراثه عن أمه •**

وكانت الجدة تتمنى لو أنه أبدى شيئا من الاهتمام بالفتيات وقد صار الآن فى عامه الثامن عشر • فمن أعجب العجب أن شيئا من أعراض الفتيان فى تلك السن لم تظهر عليه • وهو أمر يدعو للرثاء ، لأنه لو تعلق بفتاة لطيفة لاستطاع هذا الهيام أن يثنيه عن الرحيل الى الأردن ! •• وداعبها الأمل فى أن يلتقى فى حفلات عيد الميلاد القادم التى يقيمها زملاؤه فى المدرسة بفتاة لطيفة من هذا الطراز الجميل الرقيق المهذب • ولعلها تكون شقيقة أحد هؤلاء الزملاء •

ولكن عيد الميلاد أقبل ثم ولى من غير أن يجد فى الأمر جديد •

ولم يشعر قلب أنطون بشيء من الخفقان ، اللهم الا خفقان اللهفة والتمنى أن يقضى عيد الميلاد التالى فى بيت لحم !

لكن الجدة لم تيأس ، بل تمنت حين يأتى الربيع ويكون أنطون قد اقترب من تمام الثامنة عشرة ، أن تتحرك فيه نوازع الحب .. نعم ، فلابد أن يقع فى هوى فتاة ما عما قريب ، سيما وأن منظره وفتنته لابد أن يجتذبا الفتيات الانجليزيات ، ومن طبائع الأشياء أن يستجيب قلبه الشاب لمحاسن احداهن !

وراحت مسز ملبى تطيل التفكير فى تلك الفتاة الموعودة ، وفى مرجوها أن تكون ابنة احدى الأسر التى يعرفها آل ملبى ، وأول صفاتها أن تكون « سيدة » بمعنى الكلمة ، يلتقى بها أنطون فى احدى الحفلات العائلية الصغيرة ، أو احدى حفلات الكنيسة ، أو احدى الأسواق الخيرية التى تقيمها الجمعيات الكثيرة التى تسهم فيها مسز ملبى بنشاطها الكبير . **ولسوف ينشأ الحب بينهما — فيما تتخيل — من أول نظرة . وعلى مهل تتطور العلاقة بينهما الى خطبة . ثم بعد سنة أو سنتين يعقد قرانهما فى الكنيسة . وسيكون حفلا بهيجا لن تدخر الأسرتان وسعا ولانفقة فى اضفاء الأبهة والمرح عليه .** وفى الوقت المناسب سيرزق العروسان الشابان بطفلين أو ثلاثة . وهكذا يستقر أنطون بعد قلق ، ويخلد الى حياة انجليزية بمعنى الكلمة ، ويتبخر من ذهنه كل أثر لخيالات الصبا التى تحفزه للتفكير فى العودة الى وطنه العربى !

ولما لم تستطع مسز ملبى الخوض فى حديث هذا الحلم العزيز عليها مع زوجها روبرت ، انتهزت أول فرصة ففاتحت ابنتها ماريان فى ذلك . ولكن ماريان أم وليست جدة .

فلم تكن متعجلة مثل أمها على أن يصل ابنهـا ـ وهو فى السابعة عشرة من عمره ـ حباله بحبال فتاة تستأثر به مدى العمر • وقالت لأمها بصريح العبارة ، ان الطبيعة ستأخـذ مجراها فى أوانها المناسب من غير أن تعنيا نفسيهما بالقلق والتفكير فى الأمر قبل الأوان •

وكانت لهجة ماريان حازمة ، ولا تخلو من نفاد الصبر والضيق • ولعلها كانت مدركة ـ فى أعماق سريرتهـا ـ أن نقصان الجانب الغزلى عند ابنهـا أنطون ، راجع فى المحـل الاول الى أن قلبه مشغول بحب كبير أخذ عليه مجامعـه • **وذلك الحب ليس موضوعه امرأة ، وانما موضوعه حلم مسرف فى الخيال ، ولكنه مسرف فى الجمال والسحر • انه حلم العودة الى الوطن الذى تسرى دماؤه فى عروقه وخلاياه !**

* * *

ولكن شاء القدر عقب هذا الحديث بين الجـدة والأم بوقت قصير ، أن يتعلق أنطون بفتاة كان يقابلها منذ بضعة أسابيع، فى الخفاء !

وكانت ظروف التقائه بها حرية ان تروع جدته ، لأنه لم يتعرف بها فى كنيسة ولا حفل ولا جمعية ، بل تعرف بها فى •• الطريق العام !

ففى ذات يوم من أيام أغسطس الرطبة الحارة ، شـعر أنطون بعد الظهر بالاختناق ، فوضع فى جيبه كتابا من كتب الاقتصاد ، وانطلق الى المتنزه العام ، ينشد نسمة عليلة من الهواء • وكان عدد الرواد قليلا فى تلك الساعة ، وصف المقاعد الخشبية المواجهة لطاحونة الهواء خاليا ، فتخير المقعد الأوسط ، وجلس عليه مسترخيا بضع دقائق ، ثم أخـرج

كتابه من جيبه ، وشرع يطالعه فى غير استغراق .. واذا به يسمع صوتا انثويا يقول له :

– عفوك !

فرفع بصره ، واذا بفتاة سوداء الشعر ترتدى ثوبا عليه رسوم أزهار فاقعة اللون ، تقف بجوار مقعده . ولفت نظره كثرة الكحل فى عينيها ، وغزارة أصباغ شفتيها ، وبروز صدرها الناهد بروزا غير مألوف فى بيئته ، تحت صدار ثوبها الضيق .

– عفوك ! هل هذا معطفك الواقى من المطر ؟

وأشارت الى معطف واق من المطر من البلاستيك أحمر اللون ، فى كيس من البلاستيك أحمر اللون أيضا . ولم يكن قد ألقى اليه باله حين جلس ، فقال لها : « لا . انه ليس معطفى . »

– اذن فهو معطفى أنا .

وابتسمت ابتسامة مشرقة ، فشعر بحدة ارتباكه وقد خفت ، فقد ذكرته هذه الابتسامة بابتسامة ابنة عمته نادية . واستطردت الفتاة : « لقد تركته هنا وذهبت أتمشى قليلا عند البحيرة ، وفجأة تذكرت أنى نسيته ، فعدت . ولكنى عندما رأيتك جالسا خشيت ألا يكون هذا هو المقعد ، وأن يكون المعطف لك . فما أشد انتشار هذا النوع من معاطف المطر الآن . »

– ان لدى معطفا منها بالفعل . ولكنه ليس قرمزيا ، بل لونه أزرق داكن . ولكنى لم آت به معى .

وجلست الفتاة على المقعد ، وبعد لحظة صمت قالت له :

– لست أحسبك انجليزيا .

– أمى انجليزية .

– ولكنى أحسب أباك اسبانيا ·
– لا ·
وأخرجت من حقيبة يدها البيضاء علبة سجائر وقداحة ، وبعد أن أشعلت سيجارتها قدمت اليه العلبة ، فقال لها : « شكرا لك · أنا لا أدخن · »
ومدت يدها الى الكتاب ، فلما قرأت عنوانه العلمى بدا على محياها الاستهوال ، وأخذت تحدثه عن عمله ، فلما عرفت أنه طالب بالمدارس الثانوية ويهم بدراسة العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، زاد عجبها · وعرفته باسمها : « اسمى روزا روزادو · »
– اسم جميل ·
– ان جدودى أسبان ، وهذا هو السر فى اسم روزادو ··
– وأنا اسمى منصور · أنطون منصور ·
– ياله من اسم ! أهو فرنسى ؟
– بل عربى !
– عربى ؟! من أى البلاد أنت اذن ؟
– من فلسطين ·
فأطفأت سيجارتها ثم قالت : « ولكنك قلت ان أمك انجليزية · فأنت اذن نصف عربى فقط ! »
– وهل هذا يعتبر فى نظرك علامة سيئة أو حسنة ؟
– لست أبالى بجنسيات الناس ماداموا ظرفاء · ولكنك قد قضيت هنا فيما يبدو زمنا طويلا ·
– أربع سنوات · فقد فقدت أسرتى كل شىء تقريبا عندما دخل اليهود (اللد) فى يوليو سنة ١٩٤٨ · وبذلك خسرنا بيتنا وبساتين برتقالنا ورأس مالنا وكل شىء · وقد قتلت هذه الكارثة أبى · كنا قد مضينا فعشنا فى (أريحا) سنة – فلنا فيها بيت وضيعة – ولكن قلب أبى كانت قد

حطمته الصدمة ، فلم يلبث أن مات .. وجئت أنا مع أمى الى انجلترا .

– يؤسفنى جدا أن يحدث لكم هذا .

– شكرا لك . ولكن دعينا من هذه الأحاديث المحزنة ، ولنتحدث قليلا عنك . ماذا تفعلين هنا فى المتنزه وحدك ؟

– وحدى ؟ ولماذا لاتخرج الفتاة للنزهة وحدها ؟

– لست أدرى . ولعل السبب أن الفتيات فى بلادى لا يتجولن فى الخلوات وحدهن . ومع هذا لا أعتقد أن فتيات انجليزيات كثيرات يذهبن الى المتنزهات بمفردهن .

– وما أدرانى . بعضهن يفعلن ذلك ، وبعضهن الآخر لا يفعلنه . وكل شىء يتوقف على مزاج الفتاة وشخصيتها ، وحالتها العصبية . وأنا شخصيا آتى دائما الى هنا فى الأيام التى يغلق فيها المتجر أبوابه مبكرا لأستنشق شيئا من الهواء الطلق ، لأنى أقضى أيام الأسبوع داخل المتجر محرومة من نسمة منعشة . فوالدى يدير متجرا لملابس السيدات ، مع أفراد أسرتنا : أبى يشرف على الجانب المالى والتجارى ، وأخى على عمليات الشراء ، وأمى على التعديلات التى تطلبها العميلات ، وهى لا تبارح الجزء الخلفى من المتجر . أما أنا فأقوم بالبيع فى المتجر بمفردى .. لقد غادرت المدرسة عندما بلغت الخامسة عشرة ، **ولست أدرى كيف تطيق أنت البقاء فى المدرسة حتى هذه السن ؟!**

– اننى أحب الدراسة .

– أما أنا فأحب الحياة !

وضحكت ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها الضيق القصير عن ركبتيها انحسارا شديدا ، واستطردت :

– وليس المرء فى حاجة الى المدارس كى يمارس الحياة . فهى فى حد ذاتها مدرسة كبرى .

– لست أدرى ماذا تعنين بالحياة ؟ نحن جميعا نحيا الى أن نموت !

– لا تصدق هذا الكلام ! ان بعض الناس لا يحيون بل يتخبطون هنا وهناك وهم أنصاف موتى !

– ما هى الحياة اذن فى رأيك ؟

– يالك من شاب مضحك ! ان الحياة الحقيقية هى التمتع بالمباهج .. وأن تشبع رغبات شبابك . وهذا شىء تعرفه أنت جيدا بالطبع !

– المشـكلة الكبرى أن هـذا الشىء بالذات هو الذى لا أعرفه !

وبدا عليه الارتباك لحظة ، ثم ابتسم فجأة وقال باندفاع :

– عليك أنت أن تعلمينى !

فابتسمت ونظرت اليه نظرة غزل وتدلل ، وقد اطمأنت الى أن الحديث قد انحرف الى المستوى الذى كانت تنشده ، **فراحت تتقاذف معه أطراف الكلام ، كما يتقاذف اللاعبان كرة (البنج بونج) .. فكان يلتقط الكرة أحيانا ، وأحيانا أخرى يفلتها** ، غير أن هذا الأخذ والرد استغرق وقتا طويلا جدا .. ثم نظر أنطون الى ساعتـه وعجب لتأخره وعدم احساسه بمرور الوقت ، وقال لها معتذرا عن عدم استطاعته البقاء :

– نحن نتعشى فى السابعة

– وأين تقيم ؟

فأخبرها بعنوانه ، واقترحت عليه أن يسيرا عبر المتنزه فى ذلك الاتجاه ، الى أن يصلا الى محطة السيارات العامة . ونهضا ، فحمل لها مظروف معطفها ، وسارا فوق الحشائش النامية ، والفتاة تتهـادى بجواره فوق كعبيهـا العاليين ، وأردافها الممتلئة ترتج تحت ثوبها الضيق .

وكان كثيرا ما رأى مثيلاتها فى الأفلام ، ولكن لم يخطر بباله أنه سيسير بجوار احداهن فى يوم من الأيام ! وكان احساسه بها غريبا ، لأنه لم يسر بجوار فتاة من أى نوع من قبل ، حتى ولا بنـــات عمته !.. وعجب ماذا عسى أن يقول « لندلى » لو أنه رآه . ثم تساءل عن سنها ، وخطر له أنها تقاربه فى العمر .. وأحب أن يعرف على وجه التحديد ، فسألها :

— متى عيد ميلادك ؟

— فى يونية . شهر الورد . ولهذا سمونى روزا . وأنت ، متى عيد ميلادك ؟

— فى أكتوبر .

وأراد أن يستدرجها ، فاستطرد : « فى أكتوبر القـــادم سأتم الثامنة عشرة . »

— اذن فأنا أكبر منك بأربعة أشهر !

— عجبا . لقد ظننتك أصغر منى !

— والمضحك أننى ظننتك أكبر من سنك الحقيقيـــة . حسبتك فى العشرين . ولذا عجبت لأنك لم تزل تلميذا فى المدرسة .

ووصلا الى محطة السيارات العامة ، على الطريق الرئيسى المجاور للمتنزه . وفى فترة الانتظار خطر له أن يسألهـــا متى يقابلها ، ولكنه خجل وسكت . فلما أقبلت السيارة العامة عليهما ، ولم يقل شيئا ، قالت له : « **ما رأيك فى أن نلتقى مرة أخرى ، مساء الجمعة ، فى منتصف التاسعة.. فى نفس المكان ؟**

— واذا كان الجو ممطرا ؟

— فى هذه الحالة يا فتاى العزيز ندخل أى دار للسينما !

وغمزت له بعينها غمزة تواطؤ ، فاحمر وجهه ودق قلبه دقا عنيفا ، وقال : « ما أحب هذا الى نفسى !٠٠ لقد كنت أفكر فيه ولكننى لم أجسر على التصريح ! » ٠

وقفزت الفتاة الى سلم السيارة العامة بكعبها العالى وثوبها المحبوك ، ثم جمعت شفتيها كأنها تقبله فى الهواء !

وفى طريق عودة أنطون عبر المتنزه ، وجد نفسه يعيش فى حلم ، وقد تبخرت من عقله كل موضوعات الاقتصاد السياسى التى كان مشغولا بها من قبل !٠٠ وحلت محلها كلمات الفتاة عن الحياة ، والاستمتاع بالهوى ، وقضاء لبانات الشباب ٠٠ وان معظم الناس يتخبطون فى الدنيا أنصاف موتى !٠٠ وخيل اليه أن تلك كانت حاله الى أن التقى بروزا التى ستعلمه كيف يحيا !

ولما وصل الى البيت ، وجد جده فى الحديقة الأمامية الصغيرة منصرفا الى العناية بأشجار الورد القليلة ٠ فقال له الجد معاتبا : « لقد تجاوزت الساعة السابعة ٠ »

ـ انى آسف جدا ياجدى ، ولكننى لم أفطن لمرور الوقت ٠

ـ وما هذا الذى بيدك ؟

وعندئذ فقط فطن أنطون الى أنه لم يزل يحمل بيده معطف الفتاة ، فقال بارتباك : « لقد وجدته فوق مقعد بالمتنزه ٠ »

ـ ولكن ما هو ؟

ـ انه معطف مصنوع من البلاستيك ٠ معطف واق من المطر ، من الطراز الذى شاع كثيرا فى المدة الأخيرة ٠

فقال جده باشمئزاز : « معطف قرمزى ؟! كان من المستحسن على كل حال أن تمضى به الى مركز الشرطة ٠ فلا تنس أن تفعل ذلك غدا ٠ »

ـ بل سأذهب به الى هناك بعد العشاء مباشرة ٠

وبعد العشاء مباشرة مضى أنطون بالمعطف القرمزى الى « لندلى » ، فقد كان متلهفا أشد التلهف على مكاشفته بالمغامرة العجيبة التى واتاه الحظ بها ، وابتدره بقوله : « **احتفظ لى عندك بهذا الشىء الى يوم الجمعة .** »

ـ ما هذا ؟

ـ كنت أتنزه هذا المساء مع فتاة ، ووجدته فى يدى على سنبيل الخطأ بعد انصرافها ، ولا أستطيع أن آخذه معى الى البيت .. فجدى وجدتى كما تعلم .. ويوم الجمعة سألقاها مرة أخرى فأرده اليها .

وحملق لندلى فى وجهه ، ثم قال : « هل قلت حقا ما خيل الى أنك قلته ؟ »

فابتسم أنطون ابتسامة عريضة وقال : « لكل شىء أوان كما تعلم . »

ـ وأين عثرت عليها ؟

ـ أنا لم أعثر عليها . هى التى عثرت على وأنا جالس على مقعد فى المتنزه العام أطالع كتابا فى الاقتصاد السياسى !

ثم اندفع خارجـــا ، وترك لندلى فاغر الفم ، والمعطف القرمزى ـ دليل المغامرة الخرافية ـ لم يزل فى يده !

- ٧ -

٥

وبعد نصف ساعة من ركوبها السيارة العامة ، كانت الفتاة التى دعت نفسها باسم « روزا روزادو » جالسة فى حانة تروى تفاصيل مغامراتها بحماسة على مسامع صديقتها العزيزة « ألس ماير » • وكان للآنسة ماير هذه صدر بارز على غرار صدور نجوم السينما ، وعينان سوداوان يثقلهما الكحل ، وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ، أى أنها أكبر من صديقتها « روزا روزنبرج » ـ فهذا هو اسمها الحقيقى ـ بسنة واحدة • وتعمل « ألس » فى قسم الأشرطة والاسطوانات بمتجر لبيع أدوات الموسيقى ، وتخال نفسها مثقفة • وتأمل أن تتزوج من « لين » شقيق روزا الذى يشاركها فى الميول الثقافية والميول الصهيونية ، وقد تعرفت اليه عندما حضر لشراء بعض الاشرطة والاسطوانات • **وكان العامل الأكبر فى جاذبيته بالنسبة لها انه يحلم بالهجرة الى (تل أبيب) قلب الصهيونية النابض ، فلم يكن فى ذهنها شىء أعز لديها من الرحيل الى « الوطن » ، الى « اسرائيل » ، مع الرجل الذى تحبه !**

ومن أسف أن والدى « لين »كانا لا يشاركان ابنهما أحلامه الصهيونية ، فقد ولدا ونشآ فى لندن ، ويعتبران كل بلد غير انجلترا أرضا أجنبية فى نظرهما ، والقومية فى اعتقادهما شىء ، والدين شىء آخر ، وقصارى نظرهما الى نفسيهما انهما لندنيان يدينان بالعقيدة الموسوية •

وأما ابنتهما روزا فلم تكن تعير هذه المسألة اهتماما ، فلا الدين يعنيها ولا الوطن • ولندن فى نظرها مكان لطيف لأنها

ألفته · ولذا كانت « ألس » و «لين» يعتبرانها «خفيفة العقل» أو «ضحلة» ، ويأملان أن تحب يوما ما شابا صهيونيا متحمسا فتتحمس هى أيضا بالتالى للصهيونية · ولكنها الليلة وهى جالسة أمام ألس تحتسى جرعات كبيرة من شراب « الجين » القوى وتروى لها قصة اصطيادها لتلميذ غرير فى المتنزه العام ، سببت آلاما شديدة لصديقتها ، لأنها زادت ابتعادا عن الأمل المنشود لها ··

ـ لقد قلت له انى بلغت الثامنة عشرة فى يونية الماضى ، فقال لى انه كان يحسبنى أصغر من ذلك سنا ! وقلت له ان اسمى « روزا روزادو » وان أجدادى من أصل أسبانى !

ـ هل جننت ؟

ـ لو اننى قلت له ان اسمى « روزا روزنبرج » لكان من الجائز أن ينفر منى ، ولم أكن مستعدة للمجازفة بذلك · ولكنك لا تستطيعين تقديرهذا الاحساس لأنك لم ترى جماله، ولأنك أيضا لا تعرفين جنسيته !

فقالت الآنسة ماير بمرارة : « لعله عربى ؟ »

فنظرت اليها روزا بدهشة وقالت : « رباه ! كيف تسنى لك أن تعرفى انه عربى ؟ »

ـ عندما قلت لى انك ادعيت لنفسك تلك الدماء الاسبانية ، أدركت أنه فى الغالب من أصل له صلة ببلاذ الاندلس · ولكن أهو عربى حقا ؟

ـ تقريبا ·· انه فى الواقع فلسطينى · وقد روى لى كيف اضطروا ـ هو وأسرته ـ للخروج من بلدهم فى سنة ١٩٤٨ ، وكيف خسرت أسرته كل شىء بسبب ذلك ، وان هذه النكبة قضت على حياة أبيه بعد ذلك بوقت قصير · والحقيقة انى أسفت كثيرا له ··

ـ أسفت له ؟ انهم الذين بادؤونا بالحرب والعـــدوان ! أنصحك يا روزا الا تذكرى شيئا من هذا لأخيك !

ـ لست أبالى • فهو جذاب جدا • وسوف أقابله مرة ثانية يوم الجمعة •

ـ آه ! انتظرى الى أن يكتشف انك يهودية !

ـ سوف لا أخبره !

ـ ولكنه لابد أن يكتشف الحقيقة فى النهاية •

ـ وهبى أنه عرف ، فمـــاذا فى ذلك ؟ ليس من موجب اطلاقا فى نظرى للعداء بين اليهود والغرب !

ـ لا تكونى بلهاء الى هذه الدرجة يا روزا ! لا تقـــابليه بعد اليوم • **فانه ـ عاجلا أو آجلا ـ سيكتشف أنك يهودية ، وعندئذ سينقلب حبه لك الى كراهية ومقت • ثم ما جدوى هذه المغامرة على كل حال ؟**

ـ ماذا تعنين ؟

ـ انه حديث السن جدا • وحتى لو لم يكن حديث السن جدا فلن يمكنكما الزواج على كل حال !

ـ ومن الذى يفكر فى الزواج ؟ انى أريده صاحبا وحبيبا ألهو وأتمتع بشبابى معه بعض الوقت • وهذا كل شىء ! ثم أنه صارحنى باعتزامه الذهاب الى الاردن فى نهاية السنة • آه لو رأيته ! أنه لطيف بصورة لا يتخيلها العقل •• وساذج جدا • وبرىء • **واعتقد أنه لم يسبق له تقبيل فتاة فى حياته كلها ! تصورى انه قال لى ان على أن اعلمه كل شىء عن الحب ، وعن الحياة المرحة اللذيذة ؟ !**

وضحكت روزا فى سعادة ، وأردفت : « وأراهنك على انه سيتعلم بسرعة فائقة • فهو يبدو ذا استعداد هائل فى هذه الناحية •• فشكله يدل على ذلك » •

ـ يدل على ماذا ؟ على الذكاء ؟

ـ اوه ٠٠ بل على الموهبة الجنسية !

فقالت لها ألس محذرة : « ستزجين بنفسك فى المتاعب يوما ما من غير أن تشعرى » ٠

ـ ولماذا ؟ لقد حظيت بالاتصال بفتيان كثيرين جدا من قبل كما تعلمين ٠ وبعضهم كانوا من ذوى الخبرة الواسعة جدا فى هذا الميدان ، ولكننى كنت اعرف دائما متى أوقفهم عند الحد الذى اريده أنا !

ـ آه ! ان الفتيان المجربين ـ كما تسمينهم ـ جانبهم آمن من جانب هؤلاء السذج المبتدئين ٠ لأن المجرب لا يندفع بجهل وحماسة فائقة كالساذج ٠ والمسألة كلها فى جملتها ذات طابع جنونى فى نظرى ٠ فما أكثر الفتيان اليهود من حولك الذين تستطيعين الاستمتاع معهم ، وهم أولى بالاستمتاع بك من هذا العربى ٠ ماذا مثلا عن ذلك الفتى الذى التقيت به فى المرقص يوم السبت الماضى ورقص معك طول الوقت ؟ ما اسمه ؟

ـ دافيد ماركس ! أنا لا أريده.فهو مغرور أكثر مما ينبغى، ويخيل اليه ان كل فتاة واقعة فى غرامه ٠ وهذا هو السبب فى أننى رفضت ان اعطيه موعدا لأخرج معه ٠ **ولكن هذا الفتى يختلف عنه فى كل شىء ، فهو خجول ٠٠ ولكنى سوف أعلمه الجرأة فى الغرام !**

ـ هذا ما يخيل اليك ! ولعله هو الذى سيعلمك درسا لا تنسينه !

ولمعت عينا روزا ، واكتسى وجهها بابتسامة مشرقة وقالت : « آه ! كم سيكون لذيذا أن أتعلم منه اذن ! » ٠٠ وبعد لحظة تنهدت واردفت : « انه جميل ! ظريف ! فاتن ! ولكنك لا تدركين هذا لأنك لم تريه ٠ عدينى أنك لن تخبرى « لين » ٠ عدينى ! »

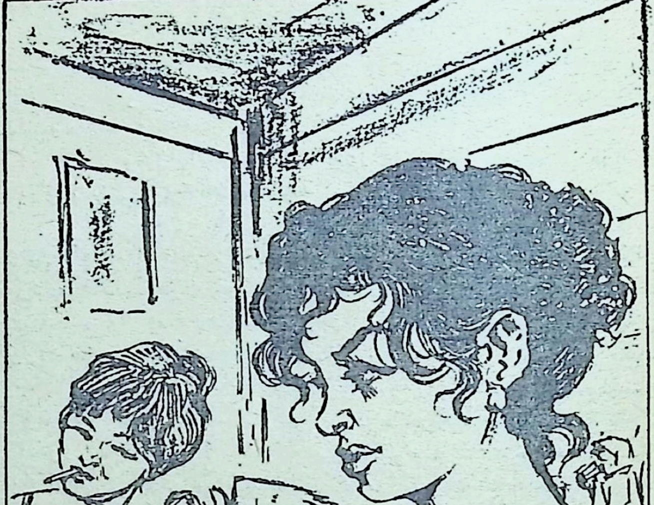

– آه ! انتظري الى ان يكتشف انك يهودية !
– سوف لا أخبره !

ـ لا تنزعجى . سوف لا أخبره . ولكن هذا لا يغير من الواقع ، وهو أن المسألة كلها ليست على ما يرام . وستندمين عليها يوما ما .

ـ أندم ؟ ولماذا أندم ؟ أنا انوى أن احظى بمتعتى معه . ولن يحول بينى وبين هذه المتعة أحد !

***

وفى الموعد المحدد ، يوم الجمعة ، وصلت الفتاة الى المكان المعهود ، فاذا أنطون جالس ، والى جواره دراجة ! وعندما أبدت دهشتها بصددها ، صارحها بأنه وجد عقبات فى سبيل الخروج من البيت ليلقاها ، اذ قال بعد العشاء آنه يريد التوجه الى بيت مدرسه الخاص السابق برهة هذا المساء ليستوضحه بعض نقاط النظرية الاقتصادية ، واذا بجده يقول على الفور آنه يريد أن ينتهز هذه الفرصة للتنزه معه على قدميه بعض الوقت فى ذلك الاتجاه ، فلم يجد بدا من ان يزعم انه سيذهب على دراجة ليمر أولا ببيت زميله لندلى الذى قضى معه فترة العطلة السابقة فى سويسرا .. واضاف انطون :

ـ وكان هذا صحيحا يا روزا ، لأنى كنت قد أخفيت عنده معطفك الواقى من المطر ، ولابد لى من احضاره . وكل ماهنالك انى لم أكن عازما على الذهاب بالدراجة ، بل بالسيارة العامة .

وتناولت روزا معطفها من يده قائلة : « ولكنى لا أفهم لماذا اخفيت المعطف عند زميلك ؟ »

ـ لأنى لو أخذته الى البيت عندنا لكان على ان اجيب عن عدة أسئلة : فأذكر لجدى وجدتى كيف تعرفت بك ، وكيف أننا سنتقابل مرة أخرى ، وهى اسئلة لا احبها .

فاستاءت روزا بعض الشىء ، وقالت بامتعاض : « أليس فى وسعك أن تغادر البيت اذن من غير أن تقول لهما الى أين أنت ذاهب بالضبط ؟ »

– ليس هذا سهلا ، لأنهما يحبان بطبيعة الحال ان يعرفا كل شيء ٠

– انا شخصيا لا أقدم أى تفسيرات عن تحركاتى ٠ حسبى أن أقول انى خارجة !

– لعلنى لو كنت أعيش مع أمى لم اكن مضطرا لهـذا ، ولكن جدى وجدتى من الطراز القديم كما تعلمين ٠

– يبدو هذا ٠٠ أرى أن السماء ستمطر ٠٠

وفتحت المظروف واستخرجت معطفها الواقى من المطر ، وساعـدها هو على ارتدائه ٠٠ ثم قالت بتذمر : « **لولا انك احضرت معك هذه الدراجة لكان في وسعنـا ان ندخل دارا للسينما** » ٠

– ليس فى وسعى على كل حال أن أتأخر فى الخارج الى موعد انصراف السينما ٠

– لم يكن هناك اذن ما يبرر الحضور ٠ أليس كذلك ؟

– أليس يكفى أن نتمشى قليلا ؟

فنظرت اليه نظرة محنقة ، ولكنها تقدمته صوب أجمـة الشجر الكثيفة فى ركن المتنزه ٠ وكان الهواء ثقيلا ، ومحملا ببوادر مطر ، ووجدت روزا صعوبة فى السـير على العشب الكثيف بكعبها العالى وحذائها المكشوف ، لأنها كانت قد رتبت نفسها على قضاء الليلة فى ركن خلفى متوار من دار للسينما ، كى تحظى منه بما تشاء من العناق واللمسات الغرامية الساخنة ٠

وتوغلت به بين الشجر ، ثم نظرت حولها وقالت له : « فى وسعنا أن نجلس هنا » ٠

– ولكنى لا ارى مقاعد ٠٠

– وماذا يعيب فى الجلوس على الارض ٠٠ هكذا !

وبجوار شجرة بلوط صغـيرة جلست ، أو بمعنى ادق اضطجعت على الارض فوق كومة من الاوراق الجافة ، وأسند

أنطون دراجته الى شجرة بعيدة ثم جلس على الأرض منتصب القامة بجوارها ، **وهو يعجب كيف تقدم فتاة « محترمة » على شيء كهذا . فالمكان قذر ، وهناك مجموعات من النمل ..**

وبسرعة خلعت روزا صندلها ذا الكعب العالى وهى تقول بلهجة تأنيب :

– لقد كاد المشى يقتلنى .. والآن اقترب منى قليلا !

وقبل ان يتحرك كانت هى قد التصقت به وألقت برأسها على كتفه . ولكنه حسب أن كل ما ترمى اليه هو أن تتخذ من كتفه وسادة ، فلم يحرك ساكنا .. فقـــالت له فى اغراء : « ها أنت ترى المكان خاليا الا منا نحن الاثنين .. »

– فعـــلا ..

ولم يحرك ساكنا أيضا . وكانت تنتظر على الاقل – مهما كانت درجة براءته – أن يمد ذراعه فيطوق عنقهـا وينحنى فيقبلها . وانتظرت لحظة ، ثم قالت له بصوت جاد : «أليست لديك أية فكرة عما يصنعه الفتى بفتاة فى خلوة ؟ »

فارتبك امام هذا السؤال المبـاشر المفضوح ، وضحك ثم قال : « هـــذه مسألة جديدة تماما بالنســبة لى .. وكل ما يساورنى الآن أن انال منك قبلة .. ان كان هذا ممكنا ! »

فرفعت وجهها اليه وقالت بهدوء : « ولمـاذا لا تنالها اذن ؟ »

فطوقها بذراعه بغير قوة ، وقبل خدها . وكاد يبتعد عنها وقد فرغ من « مهمته » تلك ، واذا بها تتناول وجهه بين يديها وتلتهم شفتيه التهاما بقبلة ضارية ، وقد دست لسانها بين شفتيه ، فكادت أنفاسه تلهث من الدهشة والمفاجأة ، واصابه دوار !

وأخيرا رفعت فمها عن ذلك المنهل الذى شربت منه بشراهة وقالت : « كم أنت لذيذ الطعم ! ولكنك طفل . طفل كبير !

– اوه . انا آسف جدا ان كنت خيبت ظنك .

وعبثت اصابعها داخل حقيبة يدها واستخرجت سيجارة أشعلتها وجذبت منها نفسا قويا ، ثم قالت له : « أهذه أول قبلة تنالها من فتاة ؟ »

– لم أقبل فتاة قبلك اطلاقا .

– ألم تحدثك نفسك بتقبيل فتاة ؟ !

– كلا .. الى ان التقيت بك لم أفكر فى ذلك . لم يخطر ببالى .. فالحقيقة ان أمور حياتى كلها كانت مضطربة جدا منذ غادرنا فلسطين .

– أحسب هذا هو السبب فعلا . لقد مرت بك تجارب سيئة.

– سيئة جدا . فظيعة . ولم تزل تتراءى لى الكوابيس الى اليوم حول هذه التجارب المروعة .

– ولكن هذا كله قد انتهى الآن ، وفى وسعك أن تريح أعصابك وتتمتع بحياتك ، وقد صارت لك صديقة !

فرد على ابتسامتها بابتسامة وقال : « نعم . هذا شىء رائع حقا . فانى لم أستطع منذ فارقتك أن أفكر فى أى شىء سواك ! »

– يجب اذن ان تفكر فى طريقة نجتمع فيها معا على صورة أوفق من هذه ، وأنسب ، وأدعى للانطلاق على سجيتنا . ما رأيك فى يوم الأحد !

فهز أنطون رأسه بوجوم ، وقال : « لا فائدة من المقابلات فى عطلة الأسبوع ، لأن أمى تحضر لدينا ويجب أن أكون بالقرب منها . واذا لم تستطع الحضور مساء السبت ، ذهبت لمقابلتها فى المدينة بعد انتهاء الصلاة فى الكنيسة صباح الأحد ، ثم نخرج للنزهة وقضاء الوقت معا » .

– أتذهب الى الكنيسة ؟ هل أنت متدين ؟

– لست أدرى هل أنا متدين أم لا . ولكنى أحب الذهاب الى الكنيسة . ألا تحبين انت الكنيسة ؟

– أنا ؟ انا لست أرثوذكسية !
– طبعا ، فانت كاثوليكية ، لأنك من أصل أسبانى ·
– أنا لست منتمية لأى كنيسة انتماء حقيقيا !
– لقد بدأ المطر يشتد · يجب أن ننصرف الآن من هنا ·
– نعم · وأنا أيضا يجب أن أعود على كل حال ·
ونهض وأنهضها · وكانت متأكدة انه سينتهز فرصة التصاقها به هكذا عندما وقفت كى يقبلها ، مستفيدا مما تعلمه من قبلتها الساخنة ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، وتركها حانقة واتجه صوب دراجته كى يحضرها ·

وعند موقف السيارة العامة أعطته الفتاة رقم تليفونها ، وافترقا من غير أن يتفقا على موعد آخر ، فقد قال لها انه يجب أن ينصرف الى الدرس ، ثم هو لا يستطيع أن يتقيد من الآن بموعد لأنه لا يعرف متى سيكون الظرف مناسبا للقاء ، وقد اقترب الامتحان ··

واتفقا على أن يتصل بها تليفونيا عندما يستطيع تدبير مكان وزمان مناسبين للخلوة السعيدة التى تحلم بها ··

- ٨ -

وكان انطون يدرك تمام الادراك أن هذه الفتاة روزا ليست من الطراز الذى يمكن أن يلتقى به فى دوائر آل منصور أو آل ملبى . وهو يعلم تمام العلم أنها من النوع الذى تطلق عليه جدته وصف « السوقية » . أما أمه فلم يكن متأكدا ماذا عسى أن يكون رأيها . وخطر له فجأة أنه فى الواقع يعرف عن تفكير جدته أكثر مما يعرف عن تفكير أمه . فهو على علم بطريقة تأثرها بأشياء كثيرة ، أما أمه فخيل اليه انه لا يعرف عن رأيها فى معظم الأمور الا أقل القليل !

وقال لنفسه : « ليس فى وسعى أن أخبرهم ، لأنهم لن يستطيعوا فهم حقيقة الموقف .. « لندلى » وحده يستطيع أن يفهم ذلك لأنه يميل للفتيات وصحبتهن ، من كل نوع ، ولا يقيم وزنا على الاطلاق للمقتضيات الرسمية فى التقديم والتعارف وما الى ذلك . ولكن لندلى لا يحيط أسرته علما بمغامراته ، ويعمد الى الكذب والخداع فى علاقاته تلك ! »

روزا ! ما أحلاها، بشعرها الغزير الحالك السواد ،وعينيها السوداوين الواسعتين ، والابتسامة التى تذكره كثيرا بابنة عمه نادية . لقد كان فى هذه المقابلة خجولا مرتبكا ، ولكنه فى المرة القادمة .. لن يتهيب ، ولن يستغرب الموقف ، وسنيبلى بلاء حسنا !

سيتصل بها تليفونيا فى الأسبوع القادم ويحدد معها موعداً ، ثم يذهبان معا الى السينما كما اقترحت هى . وفى

الظلام الدافىء الذى يكتنف قاعة السينما لن يشعر بالخجل الذى شعر به فى العراء . سيجلسان فى الصف الاخير وتتشابك أيديهما و .. و .. يتبادلان القبلات ! لقد رأى الكثيرين يصنعون مثل هذا فى السينما . وكثيرا ما تباهى صديقه لندلى بأنه صحب فتيات الى السينما ولم يروا شيئا من الفيلم المعروض ، لأنه كان يمثل معهن فيلما خاصا جدا !!

***

وعاد الى البيت فألفى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة مشغولا بمهمته الليلية التى يسميها « الانتهاء من قراءة التايمس » ، فلما رآه جده داخلا طوى الصحيفة وسأله : «هل تمكنت من استجلاء النقاط الغامضة مع مستر جونز ؟ »

– نعم . وشكرا لك . أين جدتى ؟

– فى الداخل تصنع الشاى .

– الجو حار جدا لا يصلح لتناول الشاى . ما أشبه هذا بجو اريحا الخانق .. لقد ارهقنى جدا ، ولذا اعتقد أنى سآوى الى فراشى فورا ، ان لم يكن لديك مانع .. لأنى أشعر بصداع . ولابد أن الرعد هو السبب فيما اعانيه .

فأجابه جده وهو يستخرج غليونه من جيبه ويشرع فى حشوه :

– ربما ..

***

وعندما أوى روبرت ملبى الى مخدعه بعد ساعة ، خاليا الى نفسه ، استلقى على فراشه وراح يحدق فى الظلام ، مفكرا فى الشخصين اللذين رآهما يخرجان معا من الغابة الصغيرة وهو يتمشى هذا المساء .. وكان هذان الشخصان : تلك الفتاة ذات الشعر الفاحم والمعطف القرمزى الواقى من المطر ، وقد تأبط ذراعها .. ابن ابنته !

كانت الفتاة تضحك له ، وكان انطون سعيدا منتشيا

بقربها ، حتى انه لم يلمح جده قبل ان يتوارى بسرعة وراء شجرة ، ثم يتسلل الى أقرب حانة فيطلب كأسا مزدوجة من الويسكى ، ليتغلب على المباغتة المذهلة التى منى بها ٠ وما ان تلاشى الشعور بالمفاجأة حتى حل محله شعور بالاستياء الشديد ٠٠ لماذا فعل به انطون هذه الفعلة ؟ لماذا كذب عليه منذ البداية فى شأن هذا المعطف القرمزى القبيح الذى زعم له انه وجده على أحد مقاعد المتنزه ؟ ولماذا ادعى انه حمله الى مركز الشرطة ؟ لعل الصحيح أنه حمله الى بيت زميله لندلى ، ثم استرده منه هذا المساء ، فقد قال انه ذاهب الى هناك عندما خرج اليوم ٠ **ولكن لماذا كل تلك الاكاذيب والخدع ؟ ٠٠ ان هذه أول مرة يشعر فيها بالاستياء والتأذى من حفيده٠وهاهو الآن يحملق منفردا بنفسه فى الظلام ويحاول أن يجد تعليلا لسلوك أنطون ٠ وبدأ ينتحل له المعاذير :**

— لم يكن فى وسع انطون أن يخبرنى بأمر هذه الفتاة ، لأنها قنيصنة تصيدها من الطريق ٠ وهو فى قرارة نفسه يعلم انها شابة غير مناسبة له وغير لائقة لنا ٠ ولأنه يعلم — فيما لو أخبرنا — انه سيكون مضطرا لمكاشفتنا بكيفية تعرفه اليها ، ولن يكون ذلك مستساغا ٠

ثم شرع بعد ذلك ينظر الى هذه العلاقة فى ضوء عملى بحت :

— ولكن ماذا عساه يصنع مع مثل هذه الفتاة ؟ **انه فتى وسيم ، وما أكثر الفتيات اللواتي يتمنين مصادقته من بنات الاسر ، فى محيطه ومحيطنا ٠ وانه ليلقى الكثيرات منهن كل يوم ، فما حاجته الى التخفى فى الآجام والغابات مع هذه المخلوقة المبتذلة ؟**

وانتقلت أفكاره الى ابنته ، والدة انطون : « وماذا عسى أن تقول ماريان فى هذا لو أنها علمت به ! وهل ينبغى أن

تعرف ؟ انه لمن المستحيل مكاشفة ماريان واخفاء السر عن الزبيث .. **وان لم يكن من المستبعد أن تشجع ماريان ابنها على مثل هذه العلاقة – بصرف النظر عن كنه الفتاة نفسها وصفاتها – طمعا فى المباعدة بينه وبين فكرة قضاء سنة التمرين فى الاردن . ولعلها فى هذا على حق » .**

ومرة أخرى عاد الى علاقته هو بهذه المسألة : « ولكن لماذا أخفى أنطون على أنا هذه العلاقة ، ولو كلفه ذلك الاخفاء الكذب ، وأنا صديقه وصفيه الحميم ؟ .. هل أشعرته فى أى يوم من الأيام بما يدفعه الى الحذر منى واخفاء خصوصياته عنى ؟ أم لعل السبب أننى فى مقام والده بعد وفاة بطرس منصور ، ولذا فهو يستحى من مصارحتى بمثل هذه الشئون؟ ثم ما العمل الآن ؟ هل ألزم الصمت وأترك الأمور تجرى فى أعنتها ؟ أم أجابه الفتى بكل ما أعرفه ، وأقول له صراحة : « لماذا كذبت على ؟ لماذا خدعتنى ؟ ومن هذه الفتاة السوقية؟ وما هى نواياك حيالها ؟ » .. لا . لا . ان ذلك كله سخيف جدا ، فنحن الآن فى سنة ١٩٥٣ . حمانا الله وكان فى عوننا ! انه حكم الزمن .. وليس من الجائز احراج الفتى بهذه الصورة القاسية ، فذلك قد يدفع به الى علاقة أوثق بتلك الفتاة .. فبعد أن يكون مكتفيا بأحضانها فى الحديقة ، يندفع الى التقلب بين أحضانها فى الفراش ! **ثم ان ذلك من شأنه أن يسدل ستارا حديديا بينى وبينه الى الأبد . فمن الخير اذن أن ندع المسألة تأخذ مداها بدون تدخل .. ولنرقب وننتظر ما يتمخض عنه الغد .. من غير قلق ، على حد تعبير أبناء هذا الجيل .. : « دع القلق ... واستأنف الحياة ! » .**

- ٩ -

كانت « ألس ماير » مخلصة فى وعدها الذى قطعتـــه على نفسها بألا تبوح بسرها لروزا . ولكن من الأسرار نوعا معينا تدخل فى تكوينه « أحماض كاوية » ، تحفر لنفسها مسارب تتسرب عن طريقهـا من الخزائن التى تودع فيها داخـــل السريرة .

والحق أن ألس كانت فى حالة « انسجام » تام مساء ذلك اليوم من أيام السبت ، وهى جالســـة مع «لين» (شقيق روزا) فوق شرفة الفندق الواقع على شاطىء النهر فى (ريتشموند)، تحتسى كأسها الثانية من « الجين » .. تلك الكأس الثانية التى تقول ألس دائما انها تجعلها فى حالة « انسجام » تام !

ومن عادة « لين » أن يأخذها فى سيارته الصغيرة فى نهاية كل أسبوع - فى حالة اعتدال الطقس - ويترك السيارة فى رحبة الفندق ، ويجلسان فى الشرفـة مطلين على النهـــر ، ويشربان بضعة أقداح مترعة من الشراب القوى ، ثم ينتقلان الى قاعة المطعم بالفندق فيتناولان عشاء طيبا . وكان من أهم ما يحبب « لين » الى « ألس » انه ينفق فى صحبتها بسخاء . وبعد العشاء يستقلان السيارة الى تـــل (رتشموند) الذى تكسوه الخمائل ، وبه حديقة واسعة . وهناك يتركان السيارة ويأخذ « لين » من حقيبة السيارة معطف مطر وبطانيـــة ، فيفرش البطانية على الأرض فى مكان منزو بين الأشـــجار

الملتفة ، واما المعطف الواقى من المطر فانهما يلتحفانه معا فى حالة هطول الأمطار ، وينصرفان وهما فى حالة « الانسجام » — من الخمر والطعام الجيد الذى يدفىء أوصـــالهما — الى ألوان من « العناق » و « اللمسات » الحامية الوطيس • وهذا العناق « الســاخن » هو العنصر الرئيسى فى برنامج الليلة باستمرار •

وكانت « ألس » تزهو دائما بأنها تعرف فى جميع الأحوال أين تقف ، وأين توقف « الطرف الآخر » عند حده ، وان كانت تعترف ان المسألة كلها محفوفة بالمجازفة ، وان المجازفة تبدو فى أحيان كثيرة مفزعة ، ولكنها تتنهــد وتحمــد الله على « السلامة » فى آخر لحظة ! ولكنها تعلم ان الحزم — مهما كان قاسيا على نفسها — فهو لازم وواجب ، **لأنها بفضل هذه الخطة تطمع فى ارغام « لين » على الزواج بها يوما ما ، كى يتخلص من هذه « التحريمات » المؤلمة • فان عاجلا أو آجلا سيصرخ لين :**

— لم يعد فى وسعنا الاستمرار على هذا النحو !

وهى واثقة انه فى حماســة الحرمان ســيعلن خطبتهما رسميا ! •• وهى تتوقع أن يحدث هذا الاعلان فى أى مساء من أمسيات السبت •

وكانت تأمل كثيرا أن يتم هذا فى هذه المرة بالذات ، لأن « لين » كان « مشتعلا » للغاية منذ غادرا الفندق ، ولم تكف يده عن تحسس أعطافها اللدنة فى المواضع الحساسة وهــو يقود السيارة ، قبل أن يصلا الى فندق ريتشموند كالعادة ، مما حرك مشاعرها • وحين تتحرك مشــاعر امرأة نحو رجل ما فلن تقوى طويلا على الكتمان •

وفى منتصف كأس « الجين » الثانية قالت له بغموض : « لن تستطيع أن تخمن من هو آخر خلان أختك روزا ! » ··

ولم يثر فضول « لين » ، لأن أخته روزا تصاحب عـــددا لا حصر له من الخلان ، الواحد بعد الآخر ، وقال بلا مبالاة :

ــ ليست لدى أية فكرة طبعا · ولمـاذا أهتم بأصـــحاب أختى ؟ ·· انها لم تكن جادة فى صلتها بأى واحد منهم ·· وانما هى ضمات ولمسات عابرة فى ركن مظلم من السينما أو فى المقعد الخلفى من سيارة أحدهم ··

وضحك لين وهو يقرص موضعا فى جسم « ألس » ، وقال: « أنا أعرف أختى الصغيرة ·· وحبها لهـــذه « المسألة » ! »

ــ سواء كانت جادة أو غـــير جادة ، فسيدهشك ، بل سيذهلك ، أن تعرف هذا الصاحب الأخير ·· !

فبدا عليه الاهتمام وقال فى توجس : « لا تقـولى لى انه متزوج ! » فقهقهت ألس وقالت : « متزوج ؟ ! بالعكس ! انه لم يزل تلميذا فى المدرسة ·· عمره ١٨ سنة ! بل أقـــل من ذلك !١» ·

ــ هل انقلبت أخيرا الى « خاطفة أطفال » ؟ ولكن لا شأن لنا بهذا ، ما دام هذا اللون من المتعة يروقها ! هيا اشربى بقية كأسك كى ننهض الى قاعة المـائدة ··

فامسكت « ألس » بكأسها ولكنها لم تشربها ، بل قلبتها فى يدها وقالت بلهجة ذات مغزى : « انت لم تفهم غرضى بعد ! » ·

ــ بل فهمت ! روزا تصاحب تلميذا صغيرا · وماذا فى ...

ذلك ؟ هى حرة فيمن تختارهم لمتعتها الخاصة !!
ـ ولكنه لاجىء .. من فلسطين !
ـ ايه ؟ ماذا تقولين ؟ هل هى التى قالت لك هذا ؟
ـ وكيف كنت خليقة أن أعلم ؟
ـ لابد أنها جنت !
ـ هذا بالضبط ما قلته لها أنا !
ـ وماذا قالت لك ؟
ـ قالت ما معناه أن اليهود والعرب ينبغى ألا يتباغضوا ، وكانت تشعر بمنتهى العطف عليه وعلى قومه !
ـ تعطف عليه ؟ على عربى ؟
ـ لأن أسرته فقدت كل ممتلكاتها عندما اضطرت للهجرة من اللد .

وشربت ألس كأسها وقالت له باسمة : « أفلا ننهض ؟ » ، ولكنه فى هذه المرة كان هو الذى تباطأ ، وبدا وجهه شاحبا جدا من فرط الغضب ، وقال لها بعنف : « أمامنا ما هو أهم ! لابد أنه يصب فىأذنيها دعايته المسمومة ضد الصهيونية وضد اسرائيل ! »

ـ ولكن مالنا ولهذا ؟ اننا لا نستطيع شيئا،فهيا بنا نأكل .

ونهضت ، فلم يجد بدا من النهوض بحركة عنيفة ، فأسقط كوبا على الأرض لشدة تخبطه وهو يقول : « ألا نستطيع شيئا حقا ؟ سترين ما سأفعله !! »

وشعرت « ألس » بالخوف الشديد ، لأن روزا لن تغتفر لها هذه الخيانة . ولكنها هزت كتفيها وقالت لنفسها : « ما كان لها أن تبوح لى بهذا السر على كل حال ، وهى تعرف انى صهيونية متحمسة مخلصة لمبادئى وعقيدتى ! أوه . كنت أتمنى لو عقلت لسانى ولم أفش سرها ، ولكن الكأسين جعلا الكتمان مستحيلا .. ثم لمسات « لين » .. وكل شىء !

***

وصمم « لين » على أن يصفى الموضوع مع روزا هذه الليلة بالذات • ولم يخض فى أى موضوع آخر على مائدة العشاء ، ولم يحاول مرة واحدة أن يمد يده خلسة تحت مفرش المائدة ليتحسس ركبتى « ألس » كعادته ••

وبعد لقيمات قليلة كف عن الطعام ، وقال : « أشعر بانزعاج شديد • لن أصلح للذهاب معك الليلة الى الحديقة • أعصابى فى غاية التصدع • ويجب على أية حال أن أذهب الى البيت مبكرا هذه الليلة • »

ــ ولماذا ؟

ــ كى أكون فى انتظار هذه العاهرة الصغيرة عند عودتها !

ــ ولكنى لا أعتقد أنها تقابله فى أيام السبت •

ــ أنت لا تعرفينها اذن ! انها لا يمكن أن تدع يوم سبت يمر من غير أن تتمرغ فى أحضان فتى يروقها ! ولم أرها تخلف عادتها هذه سبتا واحدا منذ تركت المدرسة !

ومدت « ألس » يدها من تحت مفرش المائدة ، ووضعتها على فخذه ، محاولة استدراجه ، وقد مالت الى الأمام بشدة فوق المائدة ، فبدت له من فتحة صدرها العارية مفاتنها التى كان يتحرق عادة الى اجتلائها ، ولكن سحنته المربدة لم يبد عليها التأثر بما يلمس ولا بما يرى ، فقالت : « هبها تسمع منه دعاية ضد الصهيونية ، ففى مقدورك أن تصحح لها تفكيرها بسهولة بعد ذلك ، من غير أن تفسد علينا لذتنا الأسبوعية بهذه الصورة » •

ــ يا لك من حمقاء ! أليست امرأة ؟ هل تعتقدين أن الفتاة المفتونة بشاب يمكن أن تعير سمعها لما يقوله أخوها ، اذا كان مناقضا لما يقوله خليلها فى لحظات الانسجام ؟

– أرجوك . لا تكن مفرطا فى قسوتك على روزا ! انها مسألة هينة جدا .. هينة للغاية ! انه تلميذ صغير !

– لا فائدة من هذا الكلام كله ! هذه مسألة خطيرة جدا . ويجب وضع حد لها . وسأضع حدا لها .

– لست أدرى كيف يمكن هذا ! ماذا ستفعل ؟

– سأروعها ! سأفزعها بحيث لا تجسر بعد ذلك على الاتصال به .

– انها ستكرهك الى الأبد ! لن تغفر هذا لك !

– لا حيلة لى فى هذا . ومن ذا الذى يبالى بالحب أو الكره ؟ ان فى الدنيا أمورا أهم من هذين بكثير ..

- ١٠ -

والواقع أن روزا روعت ارتياعا شديدا ، حتى أنها بعد خطة التحدى الغريزية التى اتخذتها لأول وهلة ازاء أخيهـا ، دفاعا عن حقها فى الحرية الشخصية فيما يتصل بعلاقاتها بالجنس الآخر ، على حسب تقاليد بيئتها ، ثابت الى خطة أخرى مناقضة لها تماما ، **فتعهدت بألا ترى « أنطون » بعد ذلك أبدا ، فيما عدا مقابلة أخيرة تودعه فيها • بيد أن أخاها ظل ثابتا على موقفـه الحازم ، مصمما على ألا تراه حتى ولا تلك المرة ، وقال لها :**

ـ خبرينى أين ستقابلينه يوم الاثنين وسـأذهب أنا اليه وأشرح له الموقف • وسأعرف كيف أشرحه له جيدا !

وكانت قد اتفقت مع « أنطون » على اللقاء على ذلك المقعـد المواجه للبحيرة ـ فى المتنزه العام ـ فى منتصف التاسعة . وكانا قد التقيا يوم الأربعاء السابق عند محطة السيارات العـامة ، وتوجها على الفور الى دار قريبة للسينما • وكانت « الحفلة » ناجحة جدا ، فلم يريا شيئا من الفيـلم لفرط انهماكهما فى « عرض خاص » بهما ، وبلغ من هذا النجاح أنهما اتفقـا على المقابلة عند البحيرة يوم الجمعة ، وذهبا فى هذه المرة الى الغابة •

ولكن الخلوة فى الغابة هذه المرة كانت مختلفة تماما عن أول خلوة لهما هناك • لقد زايل أنطون حياؤه تماما ، حتى لقد شعر الاثنان أنه سيصعب عليهمـا الصبر على التباعـد مدة عطلة الأسبوع ـ حتى يوم الاثنين الذى تواعدا على اللقـاء فيه أمام البحيرة ، ليكررا زيارة الغابة ـ وقد بات أنطون لا يرهب الغرام

فى العراء . والحق أن افتتان كل منهما بالآخر ، أو بالمتعة التى يجدها بين أحضـــانه بمعنى أدق ، كان بالغ التأجج ، ولكن لم يكن من ذلك الصبر مفر حتى يوم الاثنين .

وهاهو أخوها «لين» ينتزع منها هذا الوعد الفظيع بألا تراه ولو تلك المرة الأخيرة ، ولكنها صممت بينها وبين نفسها على أن تذهب للقائه تلك المرة ، ولو كان فى ذلك هلاكهـا ، ولذا كتمت عن أخيها مكان اللقاء !

وخرجت يوم الاثنين من البيت فى ساعة مبكرة جدا ـ قبل خروج أخيها ، حتى لا يتبعها ـ وظلت فى المتنزه زهاء ساعة تنتظر حضور أنطون ، وهى متوجسة أن تكون الخائنة الواشية « ألس » قد باحت أيضا بمكان التلاقى ، فتفاجأ بأخيها « لين » وقـد جاء متسللا الى هنـاك ، ولذا حرصت على التوارى خلف مجموعـة من الأشـجار ، وهى فى حالة يرثى لهـا من التوتر العصبى ، الى أن حضر « أنطون » قبل الموعد المضروب ببضع دقائق .

ولكم أدهشه أن يراها تبرز له فجـأة من وراء الأشـجار ! ولكن الدهشة لم تلبث أن أخلت مكانها للفزع عنـدما رأى الامارات البادية على محيـاها وهى تقترب منـه ، وسألها : « ما الخبر ؟ هل هناك ما يروعك ؟ » .

ـ نعم . كل شىء . كل شىء على غـير ما يرام . هيا بنـا نمضى الى الغابة .. وهناك سأشرح لك كل شىء .

وتبعها الى الغابة وهو يغالب القلق ، متصنعا المرح،وسألها : « ما المسألة ؟ ولمـاذا تسرعين هكذا ؟ »

ـ كى نختفى .

ـ نختفى ؟ ممن ؟ ومم ؟

ـ من أخى ...

وزادت من سرعتها ، فلم يسعه الا أن يلاحقها · وفى جوف الخميلة الملتفة هدأ من روعها قليلا بعد أن تلفتت حولها واطمأنت الى أن أحدا لا يتعقبها · وسألها مرة أخرى : «ولماذا يجب أن نختبىء من أخيك ؟ » ·· ولكنه لم يترك لها فرصة للجواب ، بل جذبها اليه على الأرض المعشوشبة ، وأغلق فمها بقبلة منهومة أصابت رأس « روزا » بدوار ، وظلت بعدها عدة ثوان مبهورة الانفاس ، لا طاقة لها على الكلام ، فقال لها :

– لقد قضيت هذه الأيام على أحر من الجمر من شدة الشوق الى الاجتماع بك مرة أخرى ، أيتها الفاتنة الحلوة روزا !

وتشبثت به فى وله ، وشرعت تبكى وهى تقول له : « آه يا حبيبى أنطون ! كم أنا شقية معذبة بسبب حبك ! »

– ما المسألة ؟ ما الذى يزعجك ؟

– لقد أرغمنى أخى على أن أقطع صلتى بك ، وقال لى اننى لو حاولت مقابلتك بعد الآن فسوف يتعقبنى أو يكلف من يتعقبنى ، الى أن يعرف محل اقامتك والمدرسة التى تدرس بها ·· وسيضربك !

– يضربنى ؟ ولماذا ؟ هذا شىء عجيب · ثم ان ضربى ليس مسألة سهلة الى هذا الحد · ففى وسعى أن أقاتل قتالا مشرفا عند اللزوم · ولكن ما هى المسألة من بدايتها على كل حال ؟

فقمعت روزا دموعها ثم سألته بصوت خافت : « هل تحبنى حقا يا أنطون ؟ »

– طبعا · وأنت تعلمين ذلك · هل نسيت بسرعة ما كان بيننا فى المرة الماضية ؟

– ألا يمكن لأى شىء أن يغير من هذا الذى بيننا ؟ أعنى لو فرض واكتشفت أننى لست تلك التى تظاهرت أمامك انها هى·· وان اسمى ليس حقيقة «روزاتو» .. وانه ما من قطرة دم اسبانى واحدة تجرى فى عروقى ، واننى اختلقت ذلك كله ··

فتناول احدى راحتيها وطبع عليها قبلة حانية وهو يقول : « يالك من فتاة مضحكة ! هل اختلقت كل ذلك حقـا ؟ » .. فأومأت برأسها ايجابا ... فضحك وقـال : « وان لم تكونى « روزا روزادو » ، فمن أنت اذن ؟ »

ـ أوه ! ستكرهنى ان قلت لك من أنا فى الحقيقة !

ـ ربما كرهت الاسم ان كان فظيعا ، ولكن ذلك لن يحملنى على كراهيتك . هيا . هيا . قولى ما هو .. انه بلا شك اسم من تلك الأسماء البلهاء المضحكة ..

فقالت فى صوت ينم على اليأس : « روزنبرج . اسمى روزا روزنبرج . وأخى « لين » صهيونى متعصب . وهذه هى المسألة من أولها الى آخرها . وقد أبلغه شخص ما بالعلاقة التى بيننا !»

فأسقط يدها من يده وحملق فيها غير مصدق أذنيه : « هل أنت يهودية ؟ » .. **ومرة أخرى أومأت برأسها ، وقـد ثبتت عينيها فى عينيه ، والجزع اليائس مستول عليهـا ، وقالت بصوت يكاد لا يسمع :**

ـ لا حيلة لنا فيما ولدنا فوجدنا عليه آباءنا !

ولمـا وجدته صامتا لا يجيب ، أردفت : « ان كان لا يهمنى انك عربى ، فلماذا يهمك أن أكون يهودية ؟ » .. فدفن وجهه بين يديه ، محاولا اقصاء المشاهد التى تزاحمت أمام ناظريه ، وراحت أصوات الطائرات السوداء الصغيرة تطن فى أذنيـه ، وهى تزداد اقترابا وانقضاضا !

وأحس فجأة ببرودة تسرى فى أوصاله ، وارتجفت أعضاؤه ؛ وحاول أن يرغم نفسه على النظر اليها وهى مسترخية بجواره على الأرض ، وشعرها الفاحم الغزير الجميل يحيط كالهـالة بوجهها الجميل الشاحب ، وعيناها السوداوان الكبيرتان كأنهما بحيرتان من الدموع .. تراءى له هذا كله ، وبقدر ما كان كله

عزيزا عليه منذ لحظات قليلة ، لم يعد الآن يرى له معنى ٠٠ أو يحرك ساكنا !

واستجمع شتات ارادته ليقول شيئا : «**المفروض فى الظروف العادية ألا يهمني شيء من هذا ٠ أى لو أن اليهود لم يغتصبوا وطنى ، ولم يفعلوا بنا ما فعلوا ٠ أما وقد عرفت الآن حقيقتك، فمن المستحيل علينا أن نستمر فى علاقتنا هـذه** ٠ والذنب ليس ذنبك طبعا ، ولكنه حظنا العاثر ٠٠ فلن يكون فى وسعى أن أرى فيك بعد الآن « روزا روزادو » التى أحببتها ! »

وأعياه أن ينظر اليهـا ، فأرخى نظراته وثبتهـا على كعب حذائه ، وعلى خنفساء صغيرة سـوداء كانت تدب على الأرض ببطء وسط تيه من الأغصان الجافة والأوراق الميتة٠٠وأسراب من النمل تدب أيضا فى ذلك التيه ٠٠ انه التيه ٠٠ التيه ٠٠ التيه ٠٠ فى البرية !

ونظرت اليه روزا وقد قسا قلبها وتحجر ، **وعندما تكلمت كانت ألفاظها وعباراتها أشبه بالشواظ الملتهب ٠٠ بل أشبه بالبصقات ٠٠ تلك البصقات التى رمت بها المرأة الاسرائيلية المجندة أباه يوم الرحيل المشئوم عن اللد** ٠٠ وقالت له بمرارة:
« انه التعصب ضد الساميين! »

فنظر اليها بأسى وقال : « هذا مستحيل طبعا ٠ لأن العرب أيضا ساميون ! »

— وان يكن ٠٠ فأنتم تكرهون اليهود على كل حال !

— ليس لأنهم يهود ٠ كلا ٠ فقد كنا لا نكرههم قبل النكبة ٠ وكان فى فلسطين يومئذ يهود كثيرون ، وفى مدرستنا كان اليهود يدرسون مع المسلمين ومع المسيحيين جنبا الى جنب بلا تفريق فى المعاملة ٠ ثم جاءت النكبة ، وتغير كل شيء!

ونهضت قائمة على قدميها ، وهى تنضو الأوراق الميتة عن

ثوبها المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذى تتخيره واسعا جدا فى نصفه الأسفل ، لأغراض لا تخفى ! .. كذلك نهض أنطون وراح ينفض الشوائب عن ثيابه ، وهو ينظر اليها بشرود .. أهذه حقا هى الفتاة التى رآها تبرز من خلف الأشجار منذ أقل من نصف ساعة ، فقفز قلبه لمرآها ورقص رقصة الحبور واللهفة والحنين ؟ أهذه هى الفتاة التى كان منذ دقائق معدودة يرشف الرضاب المستطاب من بين شفتيها اللدنتين وهو يحسب ان لذات الدنيا ألقت اليه مقاليدها ؟

لكم يبدو له كل هذا الآن وكأنه حلم أو سراب ! فهاهى ترنو اليه كسيرة الخاطر ، ساخطة عليه لأنه آذى احساسها ، ولكنه – يا للعجب ! – لا يستطيع أن يشعر نحوها بأى شفقة أو رحمة . فكل ما يحسه ازاءها هو الاستنكاف والقنوط .

وفيما هما يعودان الى الأرض المكشوفة فى المتنزه ، قالت له : « **لم يدر بخلدى فى وقت من الأوقات ان هذا اللقاء سيكون لقاء الوداع . أو أن الوداع سيكون على هذه الصورة . وكنت أؤمل دائما أن أجد ثغرة أستطيع أن أنفذ منها الى استمرار علاقتنا رغم كل شيء ، غير مبالية بغضب شقيقى . لأنى كنت أخالك لن تبالى بأننى يهودية ما دمت تحبنى حقا** » .

– **يؤسفنى ان هذا مستحيل !**

وعندما صارا فوق الممر المفروش بالرمل ، قالت له : « لا تأت معى الى محطة السيارة العامة . لا حاجة بك الى ذلك . فمن الخير الا يرانا أحد جهارا ، فربما كان « لين » كامنا لنا هنا أو هناك . فقد أقسم أن يقتلك ضربا لو وقعت عينه عليك ! »

– أنا لا أخشى أخاك !

ووقفت لا تتحرك ، ثم قالت بصوت متحشرج : « هو الوداع اذن ؟ »

– نعم !

ـ ليكن اذن ما تشاء ! وداعا !

وأدارت له ظهرها فجأة من غير أن تمد يدها أو يمد يده ، وراحت تحث الخطى الى محطة السيارات العامة ، من غير أن تنظر خلفها .. ولم يرقبها أنطون وهى منصرفة ، بل سار على مهل وهو مطرق الى الأرض . كان الأسى يملأ قلبه ، ممزوجا بالحنق والضيق الشديد . وراح يتساءل هل سيجد فى نفسه الشجاعة الكافية كى يخبر وليدا بهذه المغامرة ؟

واذ ذكر وليدا **استولى عليه فجأة حنين جارف الى الأردن .. الى فلسطين . وساوره ندم صارم لأنه فى الأسابيع القليلة الأخيرة لم يفكر فى فلسطين ! .. لقد أجلت هذه العلاقة الحسية المشبوبة أفكاره الوطنية عن ذهنه ، فانزوت فى مؤخرة رأسه !**

أجل ! لم يستطع فى هذه الأسابيع أن يفكر فى شىء سوى روزا ، واستولى عليه احساس بالاثم والخزى من نفسه . وأحس أن وليدا لو عرف عنه هذه السقطة لاحتقره أشد الاحتقار .. لا لأنه أحب فتاة هذا الحب الشديد ، بل لأنه سمح لهذا الهوى أن ينسيه الهدف الأكبر ، بل الأوحد ، لكل عربى فلسطينى جدير بهذا الاسم .. وذلك الهدف هو تحرير فلسطين .. وهو يتمثل بالنسبة لهما فى طريق بئر سبع ..

وعندما اقترب من الدار ، رأى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة يتصفح «التايمس» .. **وخامره احساس غلاب ، ولكنه احساس أورثه راحة شديدة ، بأنه سيعترف له الآن بكل ما أخفاه عنه من قبل !**

- ١١ -

أكب أنطون على الدرس والاستعداد للامتحـــان ، عسى أن يجد فى ذلك ما يصرفه عن التفكير فى هذه العلاقة المؤسـفة ، ولا سيما بعد أن سرى جده عنه ، **وصارحـــه بأنه كان يعرف ما يجرى وراء ظهره منذ البداية تقريبا ، وكاشفه بأنه رآه مع الفتاة بعد أول خلوة لهما داخل الغابة ، ولكنه آثر الصمت والانتظار الى أن يبوح له شخصيا من تلقاء نفسه بما هناك !**

وأدى أنطون امتحانه بنجاح ، وطلبت منه والدته أن يمضى جزءا كبيرا من عطلته معها · وسره ذلك ، فأمه لا ترهقه عاطفيا بصحبتها ، لأنها مشغولة فى الغالب بأعمالها · وهو لا يشعر بأنه يعرف عنها الكثير · بخلاف جديه اللذين يقضيان الوقت كله معه ولا يدعان له خلوة أو استقلالا بالمعنى الصحيح · ومع هذا التباعد ، كان ثمة شىء عميق بينه وبين أمه ، شىء أعمق من الرابطة التى بين الأم وابنها الوحيد · وهذا الشىء يقوم فى جوهره على التجربة المشتركة والمحنـــة المشتركة : محنـــة الهجرة ، والمسيرة المميتة فى البرية ، واعباء النكبة وآثارها ، بما فى ذلك آثار الاغتراب فى أريحا ·· ووفاة عائلهما الحبيب بطرس منصور ·

وفى الأيام الأولى التى قضاها فى مسكن أمه الخاص ، بوسط لندن ، كتب أنطون الى وليد يقص عليه ما كان من أمر روزا :
« ان جدى يعتقد انى كنت قاسيا على الفتاة، جائرا فى معاملتها· ولعلنى كنت كذلك ، ولكن ما حيلتى فى ذلك ، ولم يكن هذا

البتر الحاسم الا اجراء ضروريا لا محيص عنه . **لقد كانت الحقيقة المفاجئة التى تكشفت لى صدمة عنيفة ، أعادت الى وجدانى المأساة الكبرى بكل ما فيها من مرارة وقسوة وعذاب .. لم أعد أحس الا بأن تلك الفتاة واحدة من ذلك الجنس الذى اغتصب أرضنا ، وألغى وجود وطننا ، وشردنا بلا رحمة ، وبلا حق ، وبلا ضمير !**

« وأنا لم أبح بهذه المسألة المحزنة لأحد سوى جدى وسواك. وكنت قد أخبرت زميلا لى فى الدراسة ببداية هذه العلاقة ، ولكنى كتمت عنه نهايتها ، واكتفيت بقولى له اننا افترقنا لتعذر الاتفاق بيننا فى الطباع ! .. والحقيقة.انى كنت عاجزا عن الدرس أو التفكير فى أى شىء ، وانا فى تلك الدوامة التى جرفت حواسى فجأة . تصور أنى لم أكن قادرا حتى على التفكير فى فلسطين ؟ ! ..

« **أما الآن ـ وقد انجلت هذه الغاشية ـ فأنا فريسة ندم شديد وخجل أشد ، لأن مثل تلك العلاقة الحسية استطاعت أن تستولى على زمامى الى هذا الحد ، أعنى الى حد نسيان قضية فلسطين وخطة بئر سبع . والى حد انى خدعت جدى وكذبت عليه ، وهو الذى أحبه حبى لأبى الراحل .**

« وأعجب مافى الأمر أنى لم أستبشع الكذب والخداع وأنا فى غمرة ذلك الهوى الجارف ، بل وجدتهما أمرين طبيعيين جدا . أما الآن فانى لا أتصور كيف أقدمت على ذلك .. وبهذه المناسبة لم يخطر ببالى ـ فى هذه السنوات الأربع ، وأنا بعيد عن الاهتمام بالفتيات ـ أن تكون لك علاقة بفتاة . أما الآن وقد حدثت لى هذه المغامرة ، فانى أتساءل : أليست لك فى الأردن فتاة تهواها ؟ وان كان ذلك صحيحا ، فهل تعرف كيف تهتم بعملك وخططك الوطنية

وأفكارك ومطالعاتك كالعادة ، وأنت فريسة هذا الهوى !

« ومنذ أيام كنت واقفا مع والدتى فوق جسر لندن ، ننظر الى ما يسمى « البركة » من تحتنا ، حيث تفرغ سفن قادمة من شتى أنحاء المعمورة حمولتها ، فتتلقفها منها سيارات النقل لتمضى بها الى كل مكان فى انجلترا • ورأينا سفينة سويدية تفرغ حمولة من الأخشاب ، والى جوارها سفينة بيضاء صغيرة حديثة جدا ، وتساءلنا من أين عساها جاءت ، **واذا بنا نتبين أنها سفينة اسرائيلية محملة بالموالح • وفى الحال انصرفنا ونحن فى منتهى الألم ، لأننا لاحظنا وجود كميات كبيرة فى الأسابيع الأخيرة من البرتقال « اليافاوى » فى متاجر لندن • وقد يكون جانب منه مجلوبا من مزارع آل منصور بالذات !**

« وتحاول أمى أحيانا أن تشرح لأصحاب المتاجر وللبائعين حقيقة الموقف • وقد حدث من هذا القبيل ذات مرة أننا ذهبنا معا لنشترى بعض الأزهار لتزيين شقة ماما ، ولكن الأزهار التى اختارتها والدتى كانت من نوع فادح الثمن وتسمى « جلاديوليس » ، ولذلك سألت عن مصدرها فقيل لها انها من « اسرائيل » ، فقالت أمى للمرأة التى تتولى البيع : « ان فداحة الثمن سبب للاحجام عن الشراء • ولكن كونها من اسرائيل سبب أدعى للامتناع عن شرائها ، فاسرائيل كما تسمونها ليست سوى فلسطين المحتلة • **وأنا شخصيا أرملة فلسطينى كان واحدا من بين مليون عربى لاجىء طردوا من ديارهم واغتصب اليهود وطنهم ، من غير أن يفكر أحد فى مصيرهم ، ولا حتى فى تعويضهم • مع أنه ما من مال ـ مهما عظم مقداره ـ يمكن أن يعوض الناس عن وطنهم وشخصيتهم القومية » •**

« ودهشت المرأة لهذا الذى سمعته ، وقالت انه لم تكن

لديها أدنى فكرة عن هذه الأوضاع · بل لقد استعملت كلمة « فظيع » فى نعت ما حدث من اليهود · ولكن عندما مررنا من هناك بعد أسبوع، وجدنا أزهارا جديدة من نوع «الجلاديوليس» فى المتجر ، ووجدنا أكداسا من البرتقال « اليافاوى » أيضا فى قسم الفواكه التابع للمتجر نفسه !

« وأنا اعتقد أن معظم الناس هنا فى انجلترا لايعرفون حقيقة الصهيونية · ولكن الأدهى من هذا أنهم لا يبالون حتى لوعرفوا تلك الحقيقة المرة ، لأن اليهود هنا منبثون فى كل مكان ولهم اتصالات كثيرة ، أما العرب فهم بعيدون عنهم ولايعرفون عنهم شيئا الا بالسماع ، أو عن طريق التخيل ، باعتبارهم سكان صحراء ورعاة ابل ! أو على الأكثر أهل مغامرات على طريقة أفلام ابن الشيخ !

« أجل ، ليس من السهل على الانجليز أن يحسوا باحساس العرب ، لأكثر من سبب ، وفى مقدمة هذه الأسباب : الجهل !·· أما اليهود ، فلهم نفوذهم فى صفوف الصحفيين والكتاب وملوك السينما وممثليها ، وبين الرسامين والموسيقيين ، وهم يتضامنون فيما بينهم على الدعاية لسلالتهم ، وابقاء العرب وراء الستار !

« وانها لظاهرة عجيبة أن يسود الجهل بالغرب على هذه الصورة والى هذا المدى المذهل ، فى الوقت الذى صغرت فيه رقعة العالم ، وصارت القاهرة وبيروت ودمشق على قيد ساعات قليلة من الطيران التجارى من لندن ·· وفى الوقت الذى ربطت فيه الاذاعات والصحف أرجاء المسكونة ·

« قريبا ياوليد سأكون معك ، فسيسمحون لى بقضاء عيد الميلاد القادم فى (رام الله) ، وسأذهب الى (بيت لحم) لزيارة أمين ، فان كنت فى رام الله عند حضورى ذهبنا الى

بيت لحم معا . وأنا فى الحق عاجز عن التعبير لك عن مدى تلهفى على العودة الى فلسطين .. »

***

وبسرعة جاءه رد وليد على هذه الرسالة ، وبشىء من التطويل ليس معهودا فى وليد : « سرتنى أنباء عودتك المرتقبة فى شهر ديسمبر ، وأرجو أن تخطرنى بموعد وصول طائرتك، وسأحاول أن أدبر وصولى الى هناك فى يوم ٢٢ ديسمبر أو بعده بقليل ، لأننى منذ ٨ أكتوبر - وهو بداية الفصل الدراسى - وأنا أدرس فى جامعة بيروت الأمريكية ، وعطلة عيد الميلاد عندهم تبدأ فى ٢٢ ديسمبر ، ومدتها أسبوع واحد .

« وسأقضى معظم العطلة فى (الخليل) مع أقاربى ، ولعلنا نحظى بقضاء بضعة أيام معا هناك ، وان كان من غير المنتظر أن نتمكن من مغادرة تلك المنطقة فى هذه المرة الى حيث تعلم .

« **أما سؤالك عن الفتيات ، فاعلم أنى لا أهتم بشأنهن اطلاقا ، فأنا شديد الانهماك فى دراساتى ، وفى ذهنى مسائل كثيرة جديدة فضلا عن هذا كله . وانى لآسف لأن بدايتك فى الحب كانت متعثرة على هذا النحو** . وأتمنى لك حظا أسعد فى المرة التالية ، وان كنت أنصحك بتأجيل هذه «المرة التالية» الى ما بعد عام التدريب ، حتى تتجنب التعقيدات التى تدخل الاضطراب على أى شىء يمكن أن نقرر المضى فيه .

« لقد أطلقت شاربى منذ التحقت بجامعة بيروت الأمريكية، وقد أرفقت بهذا الخطاب صورة حديثة لى ، حتى يتسنى لك التعرف على شخصى عندما ترانى فى المطار ! .. مع السلامة »

« **وليد حسين** »

- ١٢ -

قضى أنطون أسابيع كثيرة يتعلم على يدى جده روبرت طرق التدريس للعميان والتفاهم معهم ، وطرق التفاهم مع الصم والبكم عن طريق الاشارات واللمس باليد . واقترض من صديقه مستر جونز - وهو مدرسه الخاص السابق - عددا كبيرا من الكتب فى التربية وعلم النفس ، كان يطالعها بنهم ويردها ليقترض كتبا غيرها . وكان مستر جونز يوجهه أيضا الى مطالعة كثير من الكتب التى ساعدت على تشكيل ذهنه وتوسيع آفاق تفكيره .

ولم يكن يزعجه عاطفيا فى تلك الفترة سوى والدته . وكم تمنى لو أنه استطاع أن يصنع شيئا لارضائها ، ولكن ارضاءها كان فادح الثمن جدا : لأنها لا ترضى بأقل من تخليه عن تصميمه على قضاء تلك السنة فى الأردن . وكانت هذه الفكرة قد ازدادت الحاحا على ذهنه ، منذ منى بتلك الصدمة العاطفية فى علاقته بروزا . وكانت أمه قد وافقت على خطته مرغمة أو شبه مرغمة ، الا أنها قالت له - بصريح العبارة - أنها تتمنى لو غير رأيه قبل فوات الأوان . ولكنه رد عليها بأنه يعلم سلفا أن رأيه قاطع ونهائى ، ولن يطرأ عليه تعديل .

وسألها ذات يوم فى ضراعة : « لماذا تقفين هذا الموقف المناهض لسفرى الى موطنى ؟ » .. ولم تستطع أن تقول له : « لأنك كل مابقى لى من بطرس ، فان عدت الى الأردن فمكثت هناك تلك السنة بطولها ، فمعنى ذلك أنك خرجت من حياتى

عاما كاملا ، أو ربما الى الأبد » ، ولكنها اكتفت بأن تقول له ببساطة : «لأننى سأشعر بالوحدة والوحشة بدونك » ، فقال لها بحرارة : « ولكننى سأكتب اليك باستمرار . وسيكون فى وسعك أن تأتى لتمضية فترة من الوقت معى هناك ، عندما تظفرين بعطلة من عملك الصحفى المكتبى » .

وباصرار قالت له : « لن أستطيع العودة الى الأردن . لن أستطيع » ، فأجابها فى ابتئاس : « لكم تشعرينني بالشقاء ، وتجعلين الذهاب عسيرا على جدا ، مع أنك تعلمين أنه لامناص لى من ذلك » .

— انى آسفة جدا لايلامك ياعزيزى . وأنت بطبيعة الحال صاحب الرأى الأخير فيما ينبغى أن تصنع ، وان كان ذلك لايروقنى ، ويجشمنى عناء نفسيا شديدا . فكن أمينا مع نفسك ، واصنع ما يوحيه اليك عقلك وضميرك . ولكننى فى الوقت نفسه لايسعنى من جانبى الا أن أكون أمينة مع نفسى . وبوحى من هذه الأمانة أصدقك القول ان رحيلك يسبب لى ألما شديدا .

***

وقبيل عيد ميلاد « أنطون » الثامن عشر كانت أمه قد حدثته برغبتها ورغبة جديه فى اقامة حفل له ، لأنه سوف لا يكون حاضرا فى أعياد الميلاد ورأس السنة ، ولا فى عيد ميلاده التاسع عشر . وسيكون هذا الحفل آخر حفل يحضره قبل امتحان الفصل الدراسى الثانى والأخير فى مدرسته . وهو الامتحان الذى يرجو أن يتفوق فيه كما تفوق فى امتحان الفصل الدراسى الأول . وقد شجعهم على ذلك أن يوم عيد ميلاده يوافق يوم السبت ، وهو يوم مناسب جدا لدى الانجليز لاقامة الحفلات الخاصة ، وسيكون فى وسعه أن يدعو من يشاء من أصدقائه وزملائه الطلاب .

وضحك أنطون ليـــدارى عزوفه عن تلك الحفلة قائلا : « الحقيقه اننى بغير أصدقاء بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولست راغبا فى أن تقام لى حفلة فى هذه المناسبة ! » ٠٠ واشتـــد الجدل بينه وبين جدته وأمه ٠٠ الى أن تدخل جده فى المناقشة، وأنقذ الموقف بقوله : « **لمـــاذا لاندع الفتى يختــــار طريقـــة الاحتفال بعيد ميلاده على النحو الذى يهواه ؟ فهذا عيد ميلاده « هو » بعد كل شىء !** »

وراحت ماريان تنظر الى أبيها تارة والى ابنها تارة أخرى ، فى استياء واضح ، ولكنها غلبت على أمرها فسألت أنطون :

– قل لنا ماذا تفضل أنت ؟

– أفضل أن نتناول العشاء معا فى البيت كالعـــادة ، نحن الأربعة فقط ، ونقتسم فيما بيننا زجاجة من النبيذ الفوار ٠

ولكن الجد قال بلهجة حاسمة : « ليكن ، ولكننى أصر على أن يكون شرابنا فى تلك الليلة الشمبانيا دون سواها »

***

ويبدو أن ماريان كانت مصممة فيما بينها وبين نفسها على فرض شىء من الجو الاحتفالى الاجتماعى على تلك المناسبـــة ، فقامت – من غير أن تخبر أحدا بعزمها – بتوجيه الدعوة الى زوجين من أصدقائها هما آل براون ، لقضاء السهرة فى البيت بعد العشـــاء فى ذلك اليوم ٠ وكان « ديزموند براون » هو مدير الاعلانات فى دار صحافة الشرق الأوسط التى تعمـــل بها ماريان ٠ **وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وسيم الشكل ، واسع الاطلاع فى شئون الشرق الأوسط ، وفى خلقـــه لطف وايناس – فى نظر ماريان على الأقل – أما زوجته « سوزى » فليست على مستوى عال من الثقافة ، ولكنهـــا دمية جميلة جدا ، ومن ذلك النوع من النساء الذى يستخدم للزينة !**

وكانت ماريان قد دعيت مرارا كثـــيرة فى بيت هـــذين الزوجين ، وهو بيت صغير أنيق ، وسبق لها أن دعتهما كثيرا

فى بيت والديها . ولكن لم يسبق لأنطون أن التقى بهما لأن حضورهما الى بيت آل ملبى كان فى المدة التى قضاها أنطون فى معسكرات التدريب . فخطر لها أن هذه هى المناسبة اللائقة لدعوتهما ، للاجتماع به والتعرف اليه ، وأن وجودهما سيزيد من بهجة السهرة ويخرجها عن المألوف .

ولم يرحب أنطون بالفكرة عندما علم بها فى يوم عيد ميلاده ترحيبا حارا ، ولكن جده سرى عنه قائلا : « لا عليك يابنى . فلن تجد نفسك مطالبا بالاجتهاد فى تخير الأحاديث مع مسز براون ، لأنها لا تفقه أى نوع من أنواع الحديث . أما زوجها فيجيد الكلام ولا يجيد الاصغاء . وستكون على خير حال وأنت ملتزم الصمت ، تصغى لما يقول الزوج وتملأ عينيك من الزوجة الحسناء ! »

وقطبت الجدة حاجبيها وزجرت زوجها ، طالبة منه أن يستغفر ربه لما تفوه به من الاغتياب ، واتهمته بأن الشمبانيا صعدت الى رأسه !.. فلم يسعه الا أن يسكت ويطرق ، واتجه الى المذياع فأدار مفاتيحه ، واذا بالباب يطرق ويدخل الضيفان .

واستقبل أنطون الضيفين بتحفظ شديد ، ولفت نظره اسراف الزوجة الشابة فى استخدام الحلى الصناعية البراقة ، واغراقها فى التضمخ بالعطور النفاذة ، واسرافها فى اغداق ابتساماتها التى تكشف عن صفين من الأسنان الجميلة . أما « ديزموند » – الزوج – فلم يشعر نحوه أنطون بارتياح ، رغم أناقته الشديدة ، وابتسامته وتحذلقه فى تخير ربطة عنقه !

ونشطت الجدة لصنع القهوة ، ودعا الجد مسز براون لتناول شىء من الشمبانيا . فقالت بجذل كالأطفال : « شمبانيا ! انكم توسعون على أنفسكم كما أرى ! » .. فقال

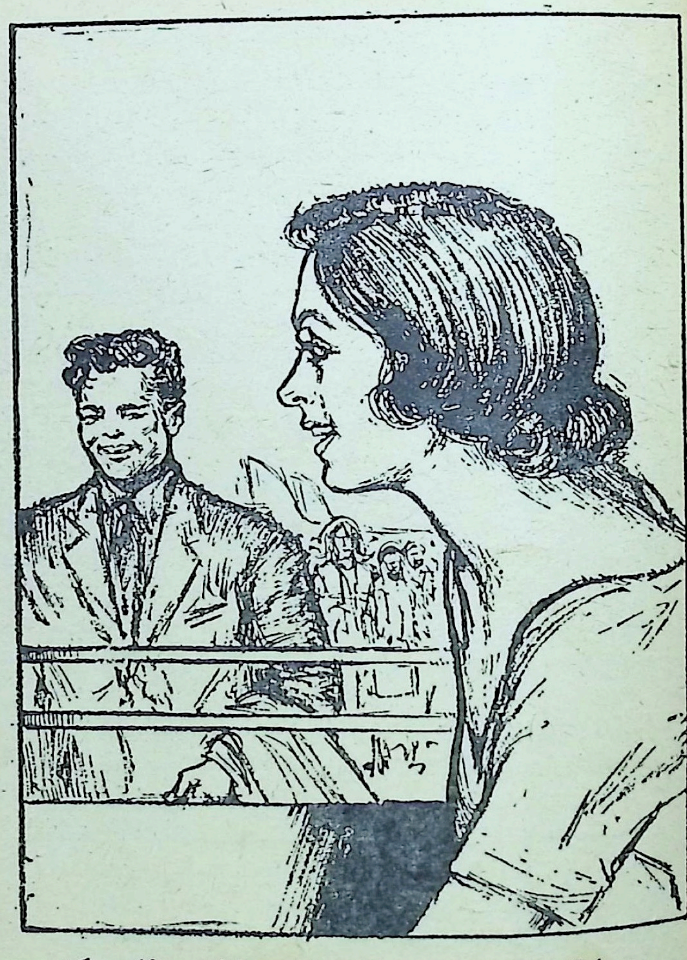

« وما أشد المفارقة بين ذلك الحب الطاهر الذى يكنه لثريا ، وما كان يكتوى به من الشوق الحار الى عناق روزا .. ! »

ملبى وهو يملأ لها كأسها : « ان الفتى يبلغ الثامنة عشرة مرة فى العمر ! »

وانتهزت ماريان هذه الفرصة فقالت تذكرها : « ولا تنسى أيضا أن « أنطون » سيرحل الى الأردن بعد انتهاء الدراسة ليقضى هناك سنة كاملة » .

وكان تعليق سوزى عبارة عن ابتسامة أخرى مشرقة — وان كانت خالية من المعنى ! — أما زوجها ففتح الله عليه بعبارة أراد أن يدل بها على سعة اطلاعه على مسائل الشرق الأوسط ، فقال : « سمعت أنك عائد الى أشد بقاع الأرض انخفاضا ؟ »

فأجابه أنطون بفتور : « سأذهب الى (أريحا) فيما أعتقد لمجرد الزيارة الخاطفة . ولكنى فى الغالب سأقيم مع عمى فى (رام الله) قبل أن أذهب لتولى مهام عملى فى (بيت لحم) . »

— ولماذا لا تطير مباشرة الى بيروت ثم تستقل طائرة الصباح الى القدس ؟ أليس هذا أبسط وأسهل ؟

— بل انى أفضل الطيران الى عمان ، ثم أذهب الى رام الله عن طريق أريحا بالسيارة . فالسفر الى أريحا فى الصباح الباكر متعة نادرة . ثم انى متفق مع صديق لى على أن يلقانى فى المطار ثم نذهب معا لتناول « الفول » فى أحد مطاعمها قبل استئناف السفر .

وهتف جده بحماسة : « الفول ! ما أحلى الفول بالأرغفة المستديرة العربية الرقيقة ، سواء أكلناه بالزيت والليمون ، او بالزبد الطازج ! »

واقبلت الجدة فى هذه اللحظة الى المطبخ حاملة أدوات القهوة ، وأخرج ملبى زجاجة من كونياك « كورفوازييه » الفرنسى المعتق ، وتولى أنطون توزيع القهوة والكونياك ، فى حين راحت ماريان تشرح لضيفتها الحسناء « سوزى براون » صعوبة الحياة فى أريحا ، وكيف كانت تستجلب السمك

فى صناديق من الثلج من (العقبة) .. فصاحت سوزى :
– العقبة ؟ ما هذا الاسم ؟
فقال ملبى : « انها ميناء على البحر الأحمر . **فاليهــود قد اغتصبوا ساحل البحر الأبيض لأنفسهم ، والأردن ليس بهـا بحر سوى البحر الميت .** »
– وماذا عن بحر الجليل ؟
فقال زوجها بحذلقة : « بحر الجليـــل يوجـــد الآن فى اسرائيل . »
فقال أنطون بحزم وهو يقدم له آنية السكر :
– **بل قل فلسطين المحتلة !**
فقال ديزموند بمزيد من الحذلقة : « اسرائيل أمر واقع ، سواء أحببنا هذا أو لم نحببه . والأولى أن نكون واقعيين !» ..
وكان يتكلم وقد وضع ساقا على ساق ، وهو يهز قدمه أثناء الكلام ، وابتسامته المتكلفة متقنة جدا وأنيقة مثل رباط عنقه تماما . وشعر أنطون بازدياد بغضه له . وتساءل بينه وبين نفسه : ترى هل يكرهه جده كذلك ؟ ولكن الجـــد لم يكن يبغضه فى الواقع ، وان كان يضيق به ضيقا شديدا ، ويراه ثقيل الظل ، ويشعر بالغيظ لاهدار الكونياك الجيد على مثل هذا الرجل السخيف !
ويبدو أن الشمبانيا التى شربها أنطون على العشاء بكثرة ، زادت من ثورة غضـــبه ، وجعلته أشـــد اندفاعا وجرأة .. فقال على سبيل التحدى : « **بل ان الواقعية تقتضى منا أن نسمى الأشياء بأسمائها !! ووطنى الذى ولدت به اسمه فلسطين . وبهذا الاسم عرف من آلاف السنين . ويوما ما – ليس ببعيد – سيعود هذا الاسم الى الوجود من جديد !** »
وغمغم ملبى بالعربية : « ان شاء الله . » .. فقال ديزموند بسخافة : « أشك كثيرا أنك سترى هذا اليوم ! »

.. فطار عقل أنطون ، واندفع يقول : « ان جيل الفلسطينيين ممن فى سنى سيرون هذا اليوم ، لأننا سنعمل على تحقيقه ! » .. ثم ارتفع صوته وهو يعلن بضراوة :

– ستتحرر فلسطين على يد الفلسطينيين !

فارتسمت على وجه ديزموند علائم التفكه الممزوج بالتهكم ، وقال له وهو يكسر جفن احدى عينيه : « على يد جيش التحرير الفلسطينى ؟ »

– أجل . وسيعمل هذا الجيش السرى فى داخل اسرائيل نفسها . سيكون لنا هناك طابور خامس !

– أهو التسلل الجماعى ؟

– ليس جماعيا . بل تدريجيا . وقد يستغرق ذلك منا بضع سنين .

فالتفت ديزموند الى كأس الكونياك وراح يديرها بين يديه ليدفئها ، ثم قال : « أخشى أن تستغرق فعلا هذه العملية سنوات تتجاوز المدة المقدورة لحياتك ! »

وتدخل ملبى فى الحديث قائلا للضيف : « ينبغى أن تسمح للشباب بأحلامه الخاصة . ألم تكن لك أحلامك وأنت فى الثامنة عشرة ؟ » .. فقال ديزموند بلهجة جافة : « عندما كنت فى الثامنة عشرة – سنة ١٩٣٩ – كانت الحرب قد اندلعت ، ولم يكن لدينا وقت للأحلام ! »

وتكلف أنطون التثاؤب فجأة ، ثم ضحك وقال : « آسف جدا . ولكن يبدو أن الشمبانيا هى التى أصابتنى بالتثاؤب . فاسمحوا لى بالانصراف . » .. ثم صافح الضيفين ، **وأمسكت سوزى يده بين كلتا يديها وقالت :**

– ينبغى أن نلتقى مرارا كثيرة بعد عودتك من الأراضى المقدسة . وأتمنى لك سفرا سعيدا .

وأسرع هو بالفرار من هذا الجو .. !

- ١٣ -

وما أن أوى أنطـــون الى حجرته ، حتى أحس بازدياد وطأة النعاس عليه ٠ فانتزع ثيابه انتزاعا واندس فى الفراش — من غير أن ينظف أسنانه كعادته قبل النوم — وكان يقول لنفسه : « **كان خطأ منى أن أحتسى هذه الشمبانيا اللعينة ، فان الخمر تفك عقدة لسانك ، فتقول مالا تريد أن تبوح به لانسان !** »

٠٠ واستيقظ فى اليوم التالى متأخرا ، وهبط الى الطابق السفلى ليجد جدته قد غادرت البيت الى الكنيسة ، أما جده فقد قالت له أمه انه خرج ليتمشى قليلا ، ثم أردفت : « لقـــد أوشكت الساعة أن تدق الحادية عشرة ٠ »

— آسف جدا ، فقد أصابنى صـــداع شـــديد ، من تأثير الشمبانيا فى الغالب ٠

ووجد افطاره موضوعا على ركن من المـــائدة ، وكانت ألوانه منتقاه من بين أطعمته الصباحية المفضلة : وهى اللبن الزبادى ، والزيتون الأسود ، والجبن والتفاح ، فأكل بضع زيتونات ثم ذهب الى المطبخ ليصنع لنفسه قدحا من القهوة التركية ، ثم عاد ليشربها وهو يقضم تفاحة ، وعندئذ أقبلت أمه فجلست قبالتـــه وقالت : « **أريد أن أنتهز فرصة انفرادنا فى البيت لأتحدث اليك ٠** » ٠٠ فنظر اليها نظرة ثابتة وقال : « بشأن ما قلته أنا بالأمس ؟ »

— بشأن هذا الحديث عن التسلل الى الأرض المحتلة ٠ ألهذا تريد أن تعود الى فلسطين ؟ أهى الأحلام الرومانسية اليافعـــة عن التحرير على يد طلاب المدارس ؟ أهذا ما تدبرانه ، أنت وصاحبك وليد ؟

فحول أنطون عينيه عن عينيها وقال :
– أنت تعلمين لماذا أريد أن أعود • لقد أرهقنى الحنين الى وطنى ، وليس لى ها هنا أصدقاء بمعنى الكلمة •
– لقد كنا متفقين فى البداية على أن تقضى هناك عطلة صيفية بعد انتهاء دراستك الثانوية ثم تعود لقضاء سنة العمل التدريبى هنا ، فلماذا غيرت رأيك وأصررت على قضاء تلك السنة هناك ؟ مع ما فى ذلك من انفصال عن أسرتك ؟
– عمى فريد وزوج عمتى خليل وأبناؤهما هم أسرتى كذلك •
– ولكنهم ليسوا لصقاء بك كوالدتك وجديك •

واحتسى بقية القهوة التى كان يستطيبها غاية الاستطابة حين شرع فى تناولها بعد أن صنعها بعناية ، لكنها صارت الآن ولا طعم لها ، بعد أن بردت ، كما تغير طعم فمه – بما طرأ عليه من مرارة – واستطردت أمه : « لم يواتنى النوم طول الليلة الماضية من شدة قلقى عليك ، بعد أن أطلقت الخمر لسانك بما يدور فى ذهنك • ولم يكن عهدى بك أن تتكلم على هذه الوتيرة • **وهالنى ما سمعته منك عن التسلل ، وتكوين طابور عربى خامس داخل الأراضى المحتلة ، بين سمع اليهود وبصرهم! أنطون ! ألست ترى هذا كله خيالا ؟** »

فجعل يحدق فى صحفته ، وهو يعبث بسبابته بنوى الزيتون الأسود الذى أكله من قبل ، وهو يعاهد نفسه على ألا يقرب الخمر بعد ذلك ، سواء كانت شمبانيا أو غير شمبانيا • وأدرك صواب التعاليم الاسلامية التى تحرم الخمر على المؤمنين بالاسلام ، وهو لا يعرف مسلما متدينا فى فلسطين يقربها ، ولا يحسب وليدا يمكن أن يمسها بيده فى يوم من الأيام !

وثاب من شروده ليسمع والدته تسأله بحدة : « **هل سمعت**

ما قلته لك ؟ انى أريد منك أن تقسم لى على أنك لن تتورط فى مثل هذه المخاطر ان أنا سمحت لك بقضاء تلك السنة فى الأردن ! »

فغمغم قائلا : « انى لم أعد طفلا • »

– بل انك من بعض الوجوه لم تزل طفلا • وما كنت تقوله بالأمس لا يعدو أن يكون تخليط أطفال • لقد أخجلتنى بما تشدقت به أمام الضيفين • ومن حسن الحظ أن الجميع قدروا أن ذلك ليس تفكيرك السوى ، وأن الخمر هى التى عبثت بعقلك فقلت ما قلت •

– وهو ظن صائب •

– اذن أنت لم تكن جادا فيما قلته عن الطابور العربى الخامس ؟

– بل انى أراها فكرة طيبة للغاية ، وهى ليست من اختراعى •

– قد تكون طيبة حقا لو أنه أمكن تحقيقها ، ولكن ذلك غير مستطاع • ولو كان أبوك حيا لقال لك هذا •

– لست أذكر بالضبط كل ما قلت •

– لا بد لك من أن تعدنى بألا تقدم على حماقة من هذا القبيل ان أنت ذهبت الى الأردن !

– ماذا تعنين بالحماقة ؟

– اى عمل تدرك أننى لن أقرك عليه • أقسم لى على هذا !

فنظر اليها وقد بدأ غضبه يتحفز فى داخله ، وقال :

– ولماذا القسم ؟ ألا تثقين بى ؟

– أما بعد الذى كان الليلة الماضية فلا !

– هذا ارغام وارهاب لاحق لك فيه !

ـ بل لى كل الحق ، لأنى أمك • ولأنك ابنى الوحيد ، والبقية الباقية لى فى هذه الدنيا • أنك تسمى ذلك ارغاما وارهابا • أما أنا فاسميه باسم آخر : أنا أسميه طلبا مشروعا أوجهه اليك بأن تلتزم جادة اللياقة والاتزان فى تصرفك • **فاما أن تقسم لى على هذا ، أو لا سفر !**

ثم نهضت وغادرته يعبث بنوى الزيتون فى شرود ، الى أن دخل عليه جده بعد بضع دقائق فقال له بمرح : « ما رأيك فى قدح من القهوة يا أنطون ؟ » ، فنهض أنطون واتجه الى الموقد ليصنع القهوة ، ولاحقه جده وهو يحشو غليونه بالتبغ ، ثم قال له : « لقد حدثتنى أمك بما دار بينكما من نقاش منذ برهة • وهى شديدة الانزعاج بشأنك ، فهلا أرحت بالها ؟ »

ـ ليس أحب الى من هذا ، ولكنها ترغم أنفى بذلك القسم الذى تطلبه منى ارغاما •

ـ انما تطلبه منك لتطمئن عليك • بل انى أنا أيضا مثلها ، أريد أن تؤكد لى أنك لن تقدم على أى عمل طائش •

فقال أنطون فى نفسه وهو يتنسم عبير القهوة الممزوجة بالحبهان : « حتى أنت ؟ » ، ولكنه كتم ما بنفسه وهم بأن يناقش جده قائلا : « وما العمل الطائش ؟ من الذى يقرر هذه الصفة ؟ » •• لكنه اكتفى بقوله له وهو يضع القهوة أمامه :

ـ أقدم لك التأكيد الكامل لهذا الشرط •

ـ شكرا لك • يجب أن تقدم مثله لوالدتك أيضا •

ـ سأحاول •

ـ تحاول ؟

ـ لأنه يستحيل على ذلك تحت التهديد • ثم أن بى صداعا

من أثر الليلة الماضية ، وأريد أن أخرج للسير ساعة ، ان لم تكونوا بحاجة الى هنا .

– قد تكون أمك بحاجة الى مساعدتك لها فى اعداد الغداء .

– سأسألها .

واتجه الى حجرة الجلوس فألفى أمه جالسة عند النافذة تقرأ ، فقال لها : « أتريدين منى أن أساعدك فى تقشير البطاطس أو ما الى ذلك ؟ » .. فأجابته ببرود ، من غير أن ترفع بصرها عما تقرأ : « لا . وشكرا لك . »

– فى هذه الحالة أود أن أخرج للنزهة لمدة ساعة ، لأن بى صداعا .

فأجابته وهى تقلب الصفحة من غير أن تنظر اليه :

– عد فى الساعة الواحدة .

– أوه . أرجوك ألا تسخطى على .

فلم تنظر اليه ، ولم تجب .

* * *

ولم يعودا الى هذا الحديث الا فى المطار قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام ، وكان الوقت مساء ، فتوسلت ماريان الى ابنها للمرة الأخيرة :

– عدنى أنك لن تقدم مع وليد على حماقة طائشة ! عدنى يا حبيبى ، أرجوك !

فتناول اليد التى وضعتها فى ضراعة على ساعده ، ورفعها الى فمه وقال : « كم أتمنى ألا تقلقى بسببى أو تنزعجى لمجرد أننى سكرت قليلا فى ليلة عيد ميلادى الثامن عشر ، وتفوهت بكلام فارغ ! »

– هذا اذا ظل ذلك الكلام فارغا ، لا نية وراءه للعمل به !

– ماذا تخالين ؟ ماذا يسعنى أنا ووليد أن نفعل لتحرير فلسطين المحتلة ؟

وفى هذه اللحظة عاد جده من كشك الكتب والصحف فى المطار وقد اشترى صحف المساء وطائفة من المجلات ، فسأله أنطون : « ألم تساورك الرغبة فى القدوم لزيارتى هناك ؟ »

ـ لست أحب أن أعود الى فلسطين وهى محتلة مغتصبة !٠٠ ولكن اقرىء عنى السلام تلك الشجرة العجوز عند الكنيسة فى بيت لحم ٠ وأبلغ القدس عنى تحية حب ٠

ولم تكن جدته معهم فى ذلك المساء ، لارتباطها بجلسة فى احدى اللجان كالعادة ، ولأنها خشيت أن تخونها أعصابها فى المطار ٠٠ وقد ودعته فى البيت بالعناق والبكاء وتوسلت اليه أن يكتب اليها كثيرا ٠ أما فى مطار لندن فلم يبك أحد ٠ لاهو ولا أمه ولا جده ، بل قبلتـه أمه وضمتـه اليها لحظة ثم أطلقته قائلة : « **انتبه لنفسك يا حبيبى !** »

أما جده فصافحه قائلا : « على بركة الله وفى أمان الله ! وعد الينا سالما ٠ »

ـ ان شاء الله !

وعندما حلقت الطائرة به ، قالت ماريان لأبيها :

ـ أليس عجيبا أن يعود الى بيت لحم بالذات ! ٠٠ لكأنى به عاد الى بطرس ٠٠٠

الكتاب الثالث

العـــودة

- ١ -

أحس أنطون بفرحة طاغية لم يشعر بها من قبل والطائرة تدخل به سماء (عمان) من فوق التلال الصحراوية الجرداء ، حتى لقد نازعته نفسه لأول مرة فى حياته الى الغناء والصياح ، لينفس عمـا فى أعمـاقه من الجيشان ·· فان هى الا لحظات قلائل حتى يرى وليدا ويعانقه ويتحدث اليه بعـد كل هـذه الفترة الطويلة التى امتدت أربع سنين · **لقد افترقا تلميذين ، وهاهما الآن يلتقيان وقد غدا وليـــد شابا ذا شارب كث · وعجز أنطون عن تصور شكله ، فاستخرج من حافظة نقـوده صورة وليد الشمسية التى كان قد بعث بها اليه ، وجعـــل يتطلع متأملا تفاصيلها ··**

وخيل اليه ان دهرا طويلا قد انقضى قبل أن يفتـــح باب الطائرة وقد هبطت على الأرض وجرت فوقها مسافة طويلة ، ثم بدأ الركاب فى النزول ، فصافحت وجوههم أنسام الفجـر الرطبة قبيل شروق الشمس · ولم يستطع أنطون أن يتبـين وجه صديقه بين زحام المنتظرين ، ولكنه راح يلوح بيـــده ، موقنا من أن وليدا سيتبينه !

وعبر أنطون المسافة بين الطائرة ومبنى المطار ، وأقبـــل الموظفون على فحص جوازات السفر ، وصافحت أذنيه من كل صنوب تلك الألفاظ العربية ، فراح يتلقفها فى سرور واشتياق بعد طول انقطاع عنها ·

ودخل مع الداخلين ، وانتظر مع المنتظرين أمام الحاجز الى أن يتم فحص الأوراق • واذا به يفاجأ بزوج عمته خليل داود مقبلا من باب جانبى وراء حاجز الحقائب ، ومن ورائه شاب وسيم ذو شارب أسود كث ، وفتاة فاحمة الشعر فى ثوب صيفى أنيق •• وانقض خليل داود عليه وضمه الى صدره وقبله على خديه ، وهو يهتف بعبارات الترحيب والتهنئة بالعودة الى الوطن ، **وألفى الشاب نفسه يحتضن زوج عمته ويصيح مثل صياحه بلغة عربية طلقة ، وقد انجابت عنه كل صلة له بانجلترا ولغتها وعادات أهلها وتفكيرهم ، ولم يقاوم دموعه التى انبجست من عينيه •**

•• ولم يدر هل كان فى وسعه أن يعرف وليدا من تلقاء نفسه أم لا ، لأن الشارب الأسود غير شكله كثيرا جدا ، ولكنه أحس بأن هذا هو وليد حقا حين عانقه وهتف بعبارات الترحيب ، وضحك تلك الضحكة التى يعرفها عنه جيدا •• وبعد أن خفت حدة هذا الاضطراب الذى غمره لأول وهلة ، فطن الى وجود الفتاة ، فتقدمت صوبه على استحياء ، وسألته :

– ألا تذكرنى ؟

وتردد أنطون قليلا ، فصاح وليد :

– أنت ولا شك تذكر « ثريا » !

وضحكت الفتاة عندئذ ، ففطن الى أسنانها غير المنتظمة • ولكن عدم انتظامها لم يعد الآن ذا بال ، لأنها فى هذه السنوات الاربع قد تغيرت على نحو ما ، فأصبحت ذات جمال ووسامة •• وابتسم أنطون وقال لها :

– لقد رأيتك فى الحفلة التى أقيمت احتفالا بعودة نصرى زوج بنت عمى من الأسر • واذكر انك كنت تتأهبين لدراسة الطب •

– وأنا الآن بالفعل فى كلية الطب بجامعة بيروت الأمريكية •

وفى هذه الأثناء كان فحص الحقـــائب قـــد تم · **وانطلق الجميع فى سيارة خليل لتناول الفول فى مطعم صغير لطيف بعمان · وكل شىء يبدو فى نظر أنطون وكأنه قطعة من الجنة·** وبعد الافطار صاح أنطون : « لكأنى أحلم حلما لا أريد أن أفيق منه ! » ·· فقال زوج عمته : « اننا جميعـــا فى دار السلام بأريحا لقضاء عيـد الميـــلاد · فأرجو ألا يحزنك الذهاب الى هناك · »

– اطلاقا ! لكم تشوقت الى أريحا والى دار السلام !

وتولى خليل قيادة السيارة صوب أريحـــا عن طريق وادى الأردن ، وما يحف به من تلال عظيمة ، وبطاح مترامية ، كان قلب أنطون يخفق لكل لمحة من لمحاتها · وخيل اليه انه وان لم يكف فى هذه السنوات الأربع عن التفكير فى هذه البقاع ، الا أن مدى سحرها قد غاب عن ذاكرته · وعنـــدما أخـــذت السيارة فى الانحدار عند جسر « ألنبى » ، اشتد الضغط على أذنيـــه فأصيب بصنمم وقتى من فرط الانخفاض عن مستوى سطح البحر · ولاحظ أن ثريا أيضا أخـــذت تسد أذنيهـــا بأصابعها ، فنظر اليها وتبادلا الابتسام ، ثم قال : « لابد من هذا الاحساس فى الأذنين والمرء فى طريق أريحا ، ولكن هذا كله ينسى متى وصل الانسان الى ذلك البلد الجميل · »

وسره أن تومىء برأسها ايجابا ، لأنه ود من قرارة نفسـه أن تحب ثريا أريحا ، وأن تتفق معه فى المزاج ، ســيما وهو يحس دفء ابتسامتها الودية ··

وسمع زوج عمته يقول : « سنبعث من أريحا الى والدتك ببرقية نخبرها بوصولك · ان الساعة الآن منتصف التاسعة ، ولكنها لا تتجاوز فى لندن منتصف السابعة · ولابد ان والدتك مستغرقة الآن فى النوم ، هى وجداك ! أما بعد الظهر فيجب أن تذهب لزيارة مستر شابلى عميد معهد العميان · وان كان

المفروض ألا تبدأ العمل هناك الا بعد عطلة عيد الميلاد . وستحب هذا الرجل كثيرا ، لأنه كان من أصدقاء جدك فى صدر شبابه ، ومن معارف أبيك عندما كنتم مقيمين فى يافا . أما صديقك « أمين » الأعمى فهو يقوم بالتدريس هناك الآن . وقد فهمت من مستر شابلى انك ستقيم معه فى مسكن واحد من مساكن المعلمين . »

وعندئذ سأل وليد : « أهى مدرسة المكفوفين القائمة على سفح التل المشرف على طريق الخليل عند مشارف بيت لحم ؟ »

– أجل . وهى أكثر من مدرسة وأكثر من معهد ، لأنها تعلم الفتيان المكفوفين الصنائع المختلفة ، وتدربهم على التكيف بالحياة الاجتماعية الايجابية . وأعتقد أن أنطون سيجد فى ذلك خبرة نافعة طريفة .

– والموقع مناسب أيضا كى يقوم بزيارة الخليل كلما شاء .

فقال خليل داود : « ان من يقومون بمثل هذا العمل لا يجدون وقت فراغ » .

– سنقنع بما هو ممكن .

قال وليد ذلك وهو ينظر الى أنطون نظرة جانبية ذات معنى، ولكن أنطونا كان فى شغل عنه بالنظر الى ثريا وهو فى حالة انتشاء . ولما فطن وليد الى ذلك ، ثبت نظره الى الأمام فى الطريق التى تتلوى هابطة صوب أريحا ، وقد علا وجهه القطوب ، ولم يفتح فمه بكلمة الى أن اقتربت السيارة بهم من غاية الرحلة .

وما ان وقع نظر أنطون على جبل التجربة حتى هتف : «هذا هو ! كما تصورته تماما طيلة هذه المدة ! » .. ثم التفت الى وليد وقال فى لهفة : « هيا بنا نرتقيه بعد الظهر على سبيل الذكرى » .

فذكره زوج عمته : « انك ستزور بعد الظهر مستر شابلى» .

ـ نرتقيه غدا اذن ! يجب أن يقضى وليـــد الليلة معنا ثم نصعد الجبل غدا صباحا فى ساعة مبكرة ، قبـل الشروق . وفى وسعنا أن نأخذ معنا طعاما فنفطر ونتغدى هناك فـــوق القمة . ما رأيك فى هذه الفكرة ؟

ـ فكرة عظيمة ! وأنا سأقضى الليلة فى بيت زوج عمتك بالفعل ، لأنه تفضل فـدعا ثريا ودعانى للمبيت ، كى نحضر الحفلة التى سيقيمها الليلة احتفالا بعودتك .

وانتهز وليد فرصة التفات خليل الى ثريا ليقول لها شيئا ، فهمس فى اذن صديقه : «وسيكون الغد فرصة طيبة للحديث !»

ووصلت السيارة الى بوابة (دار السلام) . وكان الخـادم الذى فتح البوابة لهم هو بعينه الذى عرفه أنطون في صباه ، وقد رحب بأنطون أجمل ترحيب بعباراته الساذجـة . ولمـا اقتربت السيارة من شرفة البيت ، رأى أنطون الأسرة بأكملها مجتمعة هناك ، فيما عـــدا نصرى .. وكان عمـه فريد أول المبادرين الى الترحيب به . وبوغت أنطـــون بازدياد الشبه بين عمه وأبيه ! .. فهو قد اكتسب شيئا من البدانة ، واندلع الشيب فى شعره ، فغدا أشبه ما يكون من الناحية البدنيـــة ببطرس . أما زوجة عمه « ماجدة » التى كانت مائلة الى البدانة طول عمرها ، فقد أصبحت الآن بدينة جدا حقا ، بيـــد ان ابتساماتها ظلت دافئة ، ومودتها دافقة .

وعمته « منى » ازداد وزنها أيضا ، ولكن فى الحـدود التى زادتها وقارا ، ولم تقلل من وسامتها الشديدة ، وقـد ذكرت أنطونا أيضا بأبيه .

ونادية ! .. ابنة عمه .. كأن السنوات الأربـــع لم تكن بالنسبة لها أكثر من أربعة أيام ، فجمالها كما هو ، ولم يظهر عليها أى أثر للسن ، وأطفالها الثلاثة يحفون بها ، ومن الواضح أن رابعهم سيبرز الى الوجود بعد وقت قصير !

وبنات العمة ازداد طولهن ، ولكنهن لم يزلن على حيائهن ، وان كانت كبراهن شديدة الاحتفال بالأناقة • وكففن عن عادتهن فى الضحك العصبى لسبب ولغير سبب !

وقبل أنطون يد عمته وزوجة عمه ، ونادية ، ثم أقبل الطاهى يوسف ومن ورائه زوجته لتقديم مراسم الترحيب بابن السيد القديم ، والدموع تترقرق فى عيونهما • وبعد ذلك قام يوسف بمعاونة خادم آخر بتقديم الأشربة الباردة ، فى حين كانت المروحة الكهربائية الكبيرة تحرك الهواء الساخن ، وقد استقر الجميع فى كراسى الخيزران الضخمة ، ورائحة أشجار الياسمين ، التى تحف بالشرفة ، تملأ الجو بعبير مترف.

ولما رأى أنطون ثريا ونادية جالستين معا ، نهض ووقف بجوارهما ، وقالت ثريا وهى تقلب عينيها فى الحديقة الجميلة المنسقة ، بما فيها من أشجار النخيل العالية ، ونبات « الجهنمية » وخمائل البرتقال : « ما أجمل كل شىء هنا ! لقد حضرت الى (أريحا) كثيرا ولكن لم يخطر ببالى ان مكانا جميلا كهذا يكمن متواريا عن الأنظار بعيدا عن الطريق • ان هذه الدار تستحق اسم دار السلام حقا ! »

وابتسم أنطون مسرورا ، وقال : « كان أبى يحب هذه الدار كثيرا ، ويهفو اليها دائما كلما ابتعد عنها ، فهى واحته التى ينشد فيها الطمأنينة والسلام • وكان يروى لأصدقائه دائما ، كيف شعر لأول مرة بالحب لأمى فى هذا الموضع • وفى هذه الدار أيضا قضى آخر أيامه ، ولفظ آخر أنفاسه » •

فقالت الفتاة ، متلطفة : « كنت أعرف هذا ، ولكننى لم أكن أعرف ذلك الجانب الرومانسى من قصة حب أبيك وأمك • ولا شك أن هذا يزيد من سحر المكان وجماله ! »

ونظرت بنت عمه نادية اليه نظرة ذات معنى وقالت : « لماذا لا تطوف مع ثريا لتريها أرجاء البيت ؟ »

ـ بكل سرور ، ان هى شاءت !

وعلى الفور نهضت الفتاة وسارت معه . وما ان دخلا من باب الشرفة وصارا وحدهما ، حتى نازعت أنطونا نفسه الى أن يتناول يدها فى يده ، ثم تذكر انها عربية ، وانهما فى فلسطين وليسا فى انجلترا ! وان حسبهما من اجتراء على العرف السائد ان يطوفا بالحجرات معا ، وليس معهما ثالث ..

وألفى البيت على حاله على حد ما يذكر . فالأبسطة العجمية الجميلة الفاخرة التى يعرفها جيدا ، لم تزل مفروشة فوق الأرض المبلطة بالرخام ، فى الحجرات الواسعة . وهذه حجرة المكتب الكبيرة الخاصة بالكتب ، وهذه هى كتل الأخشاب تملأ المدافىء لاستخدامها فى الليالى الباردة ، على نحو ما كانت تصنع أمه من قبل . **وها هى زهرية تتوسط مكتب أبيه الصغير فى حجرة النوم التى مات فيها . وعلى رأس السلم طالعته الصورة النصفية التى أوصى أبوه فنانا من القدس أن يصنعها لأمه فى باكورة زواجهما** . ولم تكن أمه راضية عن هذه الصورة فتركتها لخليل . وأسعده أن يجد زوج عمته قد احتفظ بها فى مكان الشرف المعهود عند رأس السلم . وقال لثريا :

ـ هذه أمى فى شبابها . وكنت فى الثالثة من عمرى عندئذ ـ فلست أذكر شكلها فى تلك الأيام ، وما كنت لأعرف انها لأمى ـ ولكن أبى كان يحب هذه الصورة . وزوج عمتى خليل يحبها أيضا .

وعلى هذا النحو مضيا يتجاذبان أطراف الحديث والتعليقات فى سهولة ويسر ، وهما يتنقلان بين الحجرات ، حتى وصلا الى حجرته السابقة ، ونفذا منها الى الشرفة الواسعة التى تطل على جبل التجربة . وعن كثب من سفحه كان يقوم معسكر للاجئين ضربت فيه الخيام صفا وراء صف ، فى ألوف يخطؤها الحصر !

ووقفا كلاهما فى الطرف الأقصى للشرفة ينظران الى خمائل البرتقال ، وقد عبقت الجـو أزهاره الفواحـة تحت الشمس الساطعة • وأخذت الفتاة تملأ صدرها من ذلك الهواء العطر ، منتشية بجمال المنظر ، وعندئذ قال لها أنطون : « ها هنا وقف أبى الى جوار أمى على انفراد لأول مرة ، حين صارحها بأنه يتمنى أن يتزوجها • ومن بعد ذلك اليوم صار هذا المكان أحب بقعة فى الدنيا الى نفسه • وكانت هذه الشرفة مكانهما المفضل هو وأمى ، الى أن أقعده داء القلب عن صعود السلم ، فصار ينام فى الطابق الأسفل ، ولا يبرحه • كم أتمنى لو أنه عرف أننى عدت الى هنا ! »

– بل لعله يعرف !

– لعله •

وبعد لحظة تردد قال لها : « هل فى وسعنا أن نلتقى أحيانا ؟ فى (رام الله) مثلا ، فى بيت عمتى وعمى ؟ »

– انى أتوقع فى مدة وجودى هنا – وكلما منحتنا الجامعة عطلة ، كعطلة الفصح مثلا – أن أزور بنات عمتك • ولكنك ستكون مشغولا بعملك فى بيت لحم •

– فى وسعى أن أتدبر وسيلة للذهاب الى رام الله بين الحين والحين •

ولاحظ انها مشيحة عنه بنظراتها فى ارتباك ، فقال : « **لو كنا فى انجلترا لكان من اليسير جدا أن نتفق على التلاقى لنقوم معا بنزهات على الأقدام فى المتنزهات والخلوات • أما هنا فالوضع مختلف جدا •** »

وعندئذ التفتت اليه وابتسمت ابتسامة عريضة ، وقالت : « نعم • جدا • ولكن بعض الناس يستطيعون تدبير فرص اللقاء من غير أن يصطدموا بالعرف السائد • وأنا واثقة اننا نستطيع تدبير ذلك لو اتفقت رغبتنا فيه • »

ـ ما أشد رغبتى فى ذلك • فهل أنت راغبة أيضا فى أن نلتقى ؟

ـ أجل • أما الآن فيجب ألا ننسى العرف السائد ، وعلينا أن نسرع بالعودة الى حيث يجلس الباقون •

ـ أعتقد هذا ، وان لم يكن فيه هواى !

وغادرا الشرفة عائدين الى الدار • وفى هذه المرة صنعا كلاهما شيئا واحدا على غير اتفاق سابق : فحينما كانا يمران فى الحجرات بفراش ، كان كل منهما يغض بصره ويسرع الخطو متباعدا عن الآخر بعض الشىء ، وان كان احساس كل منهما بصاحبه قد ازداد شدة وعمقا !

- ٢ -

وفوق قمة جبـل التجربة ، وبين أزاهير (الآذريون) البرية الصفراء العطرة ، استلقى وليد حسين على بطنه وراح يتحدث حديثا طويلا الى أنطون الذى جلس مسندا ظهره الى صخرة ، ومرسلا طرفه عبر الوادى العريض الذى ترتفع فى جوه أشجار النخيل الباسقة ، وأشجار الزيتون العريقة ، وتفترش أديمه — لاصقة بالأرض — بيوت أريحا البيضاء ٠

— لقد حدثت أمور كثيرة منذ غادرتنا ، ولكن الوضـع فى جوهره لم يتغير ٠ فالملك عبد الله قتل كما تعلم ، وابنه الملك طلال نزل عن العـرش وتولاه الملك الشاب حسين ٠ ولـكن فلسطين المحتلة لم تزل على حالها مغصـوبة محتلة ٠ **وفى كل عام تطفو القضية الفلسطينية على السطح فى جـدول أعمال هيئة الأمم المتحدة بجمعيتها العامة ، وينتهى الأمر دائما بتأكيد حق اللاجئين فى التوطن ، ثم يقف الأمر عند هذا الحد ٠ فـلا اللاجئون يستردون وطنهم ، ولا يبدو ان هناك أملا فى أن ترد اليهم هذه المنظمة وطنهم ٠ فلن يحـدث شىء حاسم فى قضية فلسطين الا اذا صـنع الفلسطينيون أنفسهم هـذا الشىء ٠** هذه حقيقة نعرفها جميعا ٠ ولكن المشكلة كلهـا تنحصر فى ايجاد الوسيلة المؤدية الى ذلك ٠ وما أكثر ما يقوله من يسمون أنفسهم بالعقلاء من أن العودة الى الوطن حل غير عملى ، واننـا يجب أن نكون « واقعيين ، عمليين » فنقبل الوضـع الراهن ، أى نقبل تحول ثلثى فلسطين العربية الى دولة لقيطة اسـمها اسرائيل ! ٠٠ فنوافق بذلك على ضياع شخصيتنا القومية ،

ونتحول من أمة متميزة مستقلة ، الى حشود من الأفراد مشتتين فى بلدان تستضيفنا • فالتنازل عن الوطن معناه ضياع القومية ولا مراء • **فهل في وسعنا أن ننسى الى الأبد أننا فلسطينيون ، ونمضى فى الحياة المشردة بقلوب مطمئنة ، حتى ينسى الناس قضيتنا الوطنية بعد أن نسيناها نحن ، ونتحول من شعب مظلوم الى شعب منسى ؟ !**

وكان صوته وهو يتكلم يقطر مرارة •• ثم اعتدل فى جلسته واكفهر وجهه من فرط الغضب وهو يستطرد قائلا :

— وهناك آخرون ينادون بأن دولة اسرائيل انما هى مرحلة عابرة من مراحل التاريخ ، وان هذا الاحتلال الغاصب سينجاب عن فلسطين بصورة طبيعية ، كما انجاب عنها سلطان الامبراطورية البريطانية • وأصحاب هذا الرأى من المؤمنين بالنظرة التاريخية الى الأمور • ويطيب لهم أن يقولوا لك ، **كيف انتهت امبراطورية الفرس بعد ازدهار ، وكيف انتهت امبراطورية الرومان بعد رسوخ وانتشار ، وكيف انتهت وريثتها الامبراطورية البريطانية وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها فى ليل أو نهار ، وكيف قام الرايخ الثالث وأوشك أن يسيطر هتلر على العالم أجمع ثم لم يلبث أن انهار •• فما علينا للتخلص من اسرائيل سوى طول الانتظار !** وهو كلام لا يقوله الا من يملكون كل شىء ، فهم فى أوطانهم مستقرون ، وفى ديارهم آمنون موفورون ، وما عليهم بعد ذلك أن يطالبوا المشردين المحرومين المغصوبين بالصبر والأناة الى أن تنقضى الحياة ، ولا خسارة على الناصحين ، ولا كسب للمنصوحين ، وانما الكسب فى الحقيقة لأولئك الذين من مصلحتهم استقرار الأمور وعدم نشوب القلاقل ، ولو دفاعا عن حق ، أو دفعا لعدوان على الحياة • وأحسب انك التقيت بالكثيرين من طراز أولئك الناس أثناء اقامتك الطويلة فى انجلترا •

ـ نعم • وكثيرا ما ضاقت أنفاسى بهم !

ـ هذا حالك وأنت مقيم فى النعمة والعافية ، بين أهل أمك فى تلك البلاد البعيدة ، فما بالك بالذين يعيشون فى الخيام البالية ولا مورد لحياتهم الا ما تجود به عليهم أكف المتصدقين تحت اسم « هيئة اغاثة اللاجئين » ، وانه لفتات لا يسمن ولا يغنى من جوع !

وسكت وليد قليلا ثم أردف :

ـ ان لى صديقا يعمل فى معهد المكفوفين الذى ستعمل به أنت ، واسمه « طالب حمادى » • وقد تعرفت به منذ سنتين، وكان يومئذ يعيش فى معسكر اللاجئين الكبير بالقرب من (بيت لحم) • وكنت قد ذهبت لزيارة ذلك المعسكر فى صحبة عمى مدير البنك • وطفنا بأرجائه ومعنا المشرف ومندوب لجنة الاغاثة ، وكان طالب حمادى أحد الذين تحدثنا اليهم لاستطلاع الأحوال ، فألفاه عمى شخصا ذكيا متوقد الذهن ، ثابت الجنان ، طلق اللسان • فأعجب به ، وسأله ، أفلا يحب أن يلتحق بعمل خارج نطاق المعسكر فيتسنى له أن يعيش بعيدا عنه فى ظروف أفضل من هذه الظروف ؟ وكانت سن طالب وقتئذ ثمانى عشرة سنة • فأجاب لأول وهلة بالرفض ، لأن قبوله سيترتب عليه انقاص مخصصات المعونة لأسرته ، بيد أن أباه انتهره وقال ان من الغباء افلات مثل هذه الفرصة• وهكذا حصل عمى لطالب على ذلك العمل فى معهد مستر شابلى • وفى العام الماضى تزوج من احدى فتيات المعسكر ، وهى لم تزل مقيمة به ، مع انه يقيم مثل سائر مدرسى المعهد فى المستعمرة الملحقة بالمعهد نفسه ، لأنها فضلت البقاء مع أسرتها •

ـ وكيف يستقيم هذا الزواج ؟

ـ انه ينتهز أى فترة فراغ مدتها ساعة أو ساعتان لينطلق

الى المعسكر على متن دراجته كى يرى زوجته ويجالسها قليلا ٠ وقد صارحنى بأن المعيشة فى المعهد تتوفر لها وسائل الراحة الى أقصى حد ٠ وان الغذاء فى نظره على الأقل ممتاز ٠ وان الجميع هناك يعاملونه أكرم معاملة ٠ ومع هذا فهو لم يزل يشعر باستمرار ان بيته الحقيقى فى ذلك المعسكر بين أبناء عشيرته ٠ **وهذا هو ما يسمى الآن بعقدة الالتجاء ٠ أو العقلية الخاصة باللاجئين ٠ وزوجته تنتمى الى هذه العقلية أيضا ٠ولذا ترفض أن تستقل بمعيشتها مع زوجها فى مسكن خاص ببيت لهم** ٠ وكلنا هنا تقريبا ننتمى الى هذه العقلية ، حتى من لا يعيشون منا فى المعسكرات ، مثلى أنا الذى أعيش فى بيت عمى مدير البنك ـ حين أكون هنا ـ أو فى مساكن الجامعة ببيروت أثناء السنة الدراسية ٠ وحتى انت ـ وقد عشت عيشة مختلفة جدا عن معيشة المعسكرات فى انجلترا ، بين والدتك وجديك ـ الا انك كنت تواقا طوال الوقت للعودة الى هذا البلد ..

ـ ان هذه الفكرة لم تفارق ذهنى لحظة واحدة !

ـ وكذلك الحال بالنسبة لى وأنا فى بيروت ، مع اننى سعيد جدا بالفرصة التى أتيحت لى كى أتلقى العلم هناك ٠ ولكن بيروت ليست وطنى ، ولا أشعر بقوميتى كما أشعر بها هنا ، فى الأرض التى كانت تسمى فلسطين ، ويجب أن تسمى بهذا الاسم على الدوام ٠

ـ ولكن ماذا عن صاحبك « طالب حمادى » ؟

ـ انه يتمتع بمزية بارزة بالنسبة لمشروعنا ، فهو من بئر سبع ، وهو متلهف أشد اللهفة على العودة اليها ، لأن له أخا لم يزل مقيما هناك ٠ وقد استطعت اقناعه بوجوب تكوين نواة للمقاومة الفعالة السرية هناك ، داخل الأرض المحتلة نفسها ٠ والى أخيه هذا سنتجه عند تسللنا ، وسيكون « طالب » معنا ٠

وتسارعت دقات قلب أنطون • فطريق بئر سبع لم تكن قبل ذلك سوى حلم من الأحلام ، أقرب الى الرمز منهـا الى الواقع ، ولكن ها هو الحلم يتحقق فى صورة مادية ، على حين غرة !

ونظر أنطون من فوق قمة جبل التجربة ، كأنه يريد أن يرى تلك الطريق الملتوية التى تبدأ من الخليـل وتتعرج فى مسيرها عبر حدود التقسيم ، وان هى الا بضعة أميـال حتى تكون قد أفضت الى بئر سبع • انهما على هذه الطريق سيدرجان معا • هذا هو الواقع الذى بات ملموسا لأنطون ، كواقع وجوده الآن على قمه جبل التجربة مع وليد ، وكواقع هبوطهما عنـه بعد قليل ليستردا دراجتيهما من الدير فى منتصف السفح •

وسأل أنطون وليـدا وهو يجتهد أن يبـدو غير مضطرب النفس بما جاش فى صدره من انفعالات عنيفة : « وهل يعرف طالب أرض تلك المنطقة جيدا ؟ »

— خير معرفة • فقد كانت لأبيه أرض زراعيـة فى الوادى من وراء (الظهيرية) ، وله فى القرية أبناء عمومة ، مما سيساعده على الوصول الى تلك المنطقة •

— وهل لم يزل الوصول الى هناك محفوفا بالصعاب ؟

— الغرباء عن المنطقة لابد لهم من ترخيص بالمرور ،وسيكون فى وسعنا أن نحصل على الترخيص بسهولة عن طريق عمى • أما طالب فقد يجازف بركوب السيارة العامة ان حضر أحـد أبناء عمومته حتى يتسنى له اثبات شخصيته عند اللزوم لدى الشرطة ، ذلك أن رجال الشرطة يقومون أحيانا بالتفتيش على الركاب ومراجعة هوياتهم — (بطاقاتهم الشخصية) — ليتأكدوا من عدم وجود غرباء بينهم ، فان وجدوا بينهم غريبا كان عليه أن يثبت قرابته لأحد من سكان (الظهيرية) ، ولذا يستحسن أن يكون معه أحد أقاربه بالفعل • وأنا شخصيا كثيرا ما ذهبت

مع عمى كلما حضر الى الخليل • وعلى كل حال لم يعد الأمر عسيرا كما كان فى سنة ١٩٤٩ ، ومع هذا ستكون انت بحاجة الى ترخيص •

ـ وما هى خطتك ؟

ـ خطتى أن أقضى العطلة كلها هناك فى فصل الصيف القادم، كى أتعرف على أرض المنطقة تعرفا تاما • سأقضى النهار بطوله فى الحقول مع عمى ومع سعيد ومع الجد ، وفى كل يوم سأوغل الى مسافة أبعد ، وأنا أعمل فى الزراعة ، من غير أن أتجاوز خط الهدنة • وسيقوم طالب برسم خريطة تفصيلية للمنطقة •

ـ وكم من الوقت ستقضيه فى بئر سبع ؟

ـ ربما قضيت هناك بضعة أسابيع ، أما أنت وطالب فلن تقضيا هناك سوى بضعة أيام ، لأن العطلة الصيفية فى معهدكم شبه معدومة •

ـ سيكون عليك اذن أن تعود وحدك !

ـ لن يكون هذا عسيرا ، لأنى فى هذه الحالة لن أكون مشغول الذهن بمصير من معى • هل تشعر أنت بتوتر أعصابك فى مثل هذا الموقف يا أنطون ؟

ـ أجل • ان المسألة برمتها تبدو لى الآن هائلة ، وقد أوشكنا على تنفيذها • وليس معنى هذا طبعا انى لا أريد أن أقوم بالمهمة ، فقد قضيت السنوات الأربع فى انجلترا وهى شغلى الشاغل !

ـ ان وصولنا الى بئر سبع سيكون له أكبر الأثر فى الفلسطينيين هناك ، ولا سيما حين يرون شابا مثلك جاء اليهم خصيصا من وراء البحار ، وثق أن من بين المسنين هناك من يذكرون أباك ومواقفه الوطنية •

ـ هل من المعروف عدد الفلسطينيين فى الأرض المحتلة ؟

ـ نحو خمسة وسبعين ألف فلسطينى يعيشون تحت نير

اسرائيل ، ويعاملونهم على أساس انهم « مواطنون من الدرجة الثانية » . وليست بئر سبع كما تعلم سوى البداية . مجرد نواة للمقاومة السرية التى يجب أن تنشأ فى كل قرية ومدينة فى الأراضى المحتلة لم يزل بها عرب . وقد آثرنا الابتداء ببئر سبع لأنها موطنى الأصلى وموطن طالب . ولابد لنا مستقبلا من وحدات من الفدائيين مدربين أحسن تدريب،على طول الحدود..

– الحكومات وحدها هى التى تستطيع هذا !

– وأى حكومة هى التى أعدت جيش ايرلندا الوطنى السرى الذى كافح الانجليز بعد تقسيم ايرلندا ؟ ومن الذى أعد جيش المقاومة الفرنسى عند تقسيم فرنسا الى محتلة وغير محتلة بعد الغزو النازى ؟

ثم نظر وليد فى ساعته وقال : « يحسن أن نعـــود الآن ، فقد وعدناهم فى الدير أن نعود فى الساعة الرابعة » .

- ٣ -

كتب أنطون عددا من الرسائل الى أهله فى انجلترا ، والى صديقه مستر جونز ، وأرسل بطاقات ملونة الى لندلى ٠ وكان معظم حديثه الى والدته عن ثريا : « لقد أعجبت ثريا كثيرا بدار السلام ، وقد طفت بها أرجاءها وشرفاتها ٠ ووقفنا وقفة طويلة فى الشرفة العلوية التى تطل عبر البستان على جبل التجربة. **وأحسست وهى واقفة هناك معى ان التاريخ يعيد نفسه ، كما حدث فى أول مرة وقفت أنت فيها هناك مع أبى** ٠٠ ولم تسنح لى الفرصة كى أراها بعد ذلك لأنها غادرت (أريحا) فى الصباح الى (رام الله) لقضاء عيد الميلاد مع ذويها هناك ٠ وفى نهاية الشهر ستكون قد غادرت رام الله عائدة الى بيروت لاستئناف دراستها ٠ كم وددت لو انها لم ترحل !

« ٠٠ وقد ذهبت لزيارة مستر شابلى فى يوم وصولى بعد الظهر ، فى صحبة زوج عمتى خليل الذى كان يقود السيارة ، وذهب معنا وليد ، وبذلك سنحت لى الفرصة كى أقدمه الى أمين الذى يحتفظ الآن بشارب أسود كث مثل وليد ، ويعلم الأشغال اليدوية للمكفوفين فى المعهد ٠ وقد طاف بى « أمين » أرجاء المعهد وملحقاته ، ومستعمرة المساكن التى يقيم بها المعلمون ، وأرانى الكوخ الصغير الذى سأشاركه فيه عندما أتسلم العمل ٠ وكل شىء فى داخل هذا الكوخ الصغير أبيض، أجرد ، والأرض الحجرية عارية والأثاث بسيط جدا وفى أضيق الحدود الممكنة ٠ فكل شىء هنا هو الحد الأدنى للوازم المعيشة الضرورية ، من غير نظر الى وسائل الراحة أو الترف بطبيعة الحال !

« وليس بيت مستر شابلى أحسن حالا من بيوت المعلمين . وكل ما يتميز به هو تلك الكمية الضخمة من الكتب التى يملكها ، وهو رجل طويل القامة ، نحيلها ، أشيب الشعر ، رقيق الجانب غاية الرقة ، يفيض دماثة وعطفا وحنانا على تلاميذه ومرءوسيه . **وأمين يقول ان الجميع هنا يحبونه لأنه فى الواقع انسان منكر لذاته كل الانكار . وهو شديد الاعجاب بالمهاتما غاندى . قال لى أمين ذات مرة ان هذا الهندوسى أشد مسيحية من الكثرة الغالبة ممن ينتسبون الى المسيح بالاسم والعنوان . بل انه يعتبر المهاتما غاندى أعظم ممثل للمسيحية فى العصور الحديثة .**

« والمعهد فى الحقيقة أقرب الى الجالية التى تعيش على أسلوب تعاونى مشترك منه الى المدرسة . بل ما أشبهه بمستعمرة من حيث انه يتألف من مجموعة من الأكواخ للاقامة، ومزرعة صغيرة ، وحديقة لانتاج الخضر التى تباع فى سوق البلدة ، وعدد من الورش ، ومصنع صغير للنسيج .

« ومستر شابلى لم يتزوج . ويزعم أمين أن ذلك أثر من آثار اعجابه بفلسفة غاندى . وفى المستعمرة أيضا سيدة انجليزية هى الآنسة « ريس » ، وتقوم بمهمة مدبرة البيت والأم لجميع من فى المستعمرة ، وهى التى تعنى بثياب التلاميذ المكفوفين ، وتشرف على أعمال الغسيل التى تقوم بها فتيات من اللاجئات المقيمات فى المعسكر القريب .

« **والآنسة ريس فى نحو الستين من عمرها فيما أعتقد ، وقد حسبتها لأول وهلة حادة الطبع ، ولكن أمينا قال لى أنها طيبة القلب ، وأن ما حسبته حدة طبع انما هو فى الواقع صراحة واستقامة فى التعبير** ، وانها ذات عقل عملى . وهذا الجانب من الخير أن يتوفر فيها ، لأن مستر شابلى رجل حالم ولا يصلح لمعالجة المسائل العملية . وقد أخبرتنى الآنسة

ريس أنها كانت تعمل تحت امرة جدى فى يافا ، وانها ترسل اليه بتحياتها ٠

« والتلاميذ المكفوفون منهم من يقيمون فى المعهد بالقسم الداخلى ، ومنهم تلاميذ بالقسم الخارجى يحضرون يوميا فيما عدا يوم الأحد ٠ وتتولى الآنسة ريس احضارهم فى عربة المدرسة ٠ ومستر شابلى هو الذى يلقى دروس اللغة الانجليزية عليهم ، وسأتولى مساعدته فى هذه الدروس على أمل أن أتولاها نيابة عنه بصفة شاملة فيما بعد ٠ »

***

والحقيقة أن ماريان لم تسترح لما ورد فى الخطاب بشأن الفتاة ، وان كانت تعرف عائلة « سابا » معرفة يسيرة ٠ وهى على يقين من أن ثريا فتاة مهذبة حسنة التربية ، يمكن أن تنجح فى « كشف الهيئة » أمام نظرات « الزبيث » الفاحصة ، وبمقاييسها الاجتماعية الصارمة ٠ ولكنها كانت تريد لأنطون ألا ينشىء علاقة تربطه ببلاده العربية ، وتجعل اقامته هناك تمتد مستقبلا الى أكثر من هذه السنة التدريبية ٠

ثم ماذا يكون الحال ومن المفروض فى ختام هذه السنة أن يعود أنطون الى لندن ليدرس فى مدرسة العلوم الاجتماعية والاقتصادية مدى سنتين على الأقل ، فى الوقت الذى لابد فيه للفتاة نفسها من قضاء مدة أطول من هذه فى اتمام دراستها الطبية بجامعة بيروت الأمريكية ٠ **فالصورة العامة لأطراف هذه العلاقة ، لا تبشر الا بأنواع من الفرقة والقلق والحرمان ٠٠**

وناقشت ماريان الأمر مع أبيها ، ولكن الرجل العجوز المجرب رفض أن يجاريها فى هذا القلق ، وقال انها تزعج نفسها بأمور لم تزل فى طى الغيب : « دعى الفتى يستمتع بهذه العلاقة الحالمة خلال السنة التى يقضيها هناك ، ولا تنسى أن مثل هذه العلاقة ستشغل ذهنه عن كل هراء من قبيل

التسلل وراء خطوط الهدنة مع صاحبه وليد . حتى اذا عاد الى لندن ، استغرقته حياة جديدة فى الجامعة ، وتنتهى هذه العلاقة نهايتها الطبيعية . عن طريق الذبول والتلاشى . فأكبر الظن أن عودته الى انجلترا ستصل أسبابه بأسباب الحياة الانجليزية ، فيتزوج فى النهاية فتاة انجليزية . ومتى تم هذا فهو لن يفكر فى العودة الى فلسطين . »

— أخشى يا أبى أن تكون متفائلا أكثر مما ينبغى . **فأنطون ابن أبيه أكثر مما تتصور . وقد ظلت انجلترا بالنسبة له « أرض المنفى » ، كما كانت حرية أن تكون بالنسبة لبطرس لو أنه كان هنا معنا تلك السنوات . فالعودة الى فلسطين فى احساس أنطون هى العودة الى الوطن . وميله الى هذه الفتاة ثريا راجع الى حد كبير الى أنها تمثل ببشرتها الحنطية طينة بلاده وشمسها** . فارتباطه بها هو ارتباط الجذر بالتربة التى ينمو فيها ويتأصل . ولذا اعتقد أنها ستجذبه الى الشرق بحيث يعسر جدا انتزاعه من هناك ليعود الى أحضاننا .

وهز روبرت ملبى كتفيه وقال بهدوء : « ليكن ما يكون . فالفتى ينبغى أن يحقق ذاته على الطريقة التى تستقر بها نفسه ويرتاح اليها تفكيره . »

— هذا شىء لا أمارى فيه . وان كان يسبب لى ألما شديدا . ولكننا لا نصوغ أولادنا على ما نهوى . وسأكتب اليه اليوم وأبعث اليه ببركتى . .

— ولا تنسى بركتى أنا أيضا . « أعطنا اليوم . خبزنا كفافنا . » يوما بيوم . وغدا يوم جديد يفرض نفسه ، ولا حيلة لنا فى تحويله أو التنبؤ به . هذه فلسفة لم تزل صالحة لتسيير أمور البشر فى كل حين .

***

ولم يكتب أنطون الى والدته شيئا عن تفاصيل حياته بعد ذلك ، وان كان قد وصف لها احتفالات عيد الميـلاد فى دار السلام ، وفى رام الله . ولم يذكر لها كيف حرص على لقاء ثريا قبل عودتها الى بيروت ، وكيف كانت يداهما تتشابكان خلسة فى الحين بعد الحين ، كلما أمنتا أعين الرقباء – أو على الأصح الرقيبات من بنات عمته – وأن ثريا لم تكن تجـذب يدها الا بعد برهة طويلة وهى ترمقه بابتسامة وضيئة .

والحقيقة أن بذور القلق العاطفى أخذت تنمو فى نفسـه بسرعة بعد أعياد الميلاد ورحيل ثريا . وكثيرا ما كان يختلط عليه الأمر وهو يحلم ، فيرى روزا بين ذراعيه فى قاعة السينما المظلمة . وقد التقمت شفتيه فى شفتيها كما كانت تفعـل ، فيستيقظ من نومه مرتجفا وتفيض نفسه بالأسى والشجن ، ثم يتضح له بعد قليل أن ذلك الأسى ليس حنينـا الى روزا بالذات ، وأن صورتهـا فى الحلم لم تحدث له الا اضطرابا جسديا عضويا ، أما حنينه العاطفى فالى الفتـاة المقيمة فى بيروت !

وكان يؤلمـه أن عطلة عيد الفصح لن تحل الا بعـد وقت طويل . ولا بد له من الصبر . ولكنه صبر يزيد عاطفتـه الوليدة اشتعالا ..

- ٤ -

شعر أنطون لأول وهلة أن « طالب حمادى » لا يمنحه ثقته ، رغم التزكية الحارة التى أضفاها عليه صديقه وليد ، فهو ينظر نظرة تشكك الى الدماء السكسونية التى تسرى فى عروقه مختلطه بالدماء العربية . ولذا لم يكن راغبا فى اشراكه معهما فى عملية بئر سبع ! .. يضاف الى هذا أن طالبا من أسرة فقيرة أشد الفقر ، وكاهله مثقل أشد الاثقال بمسئولياته العائلية . وقد علمته مرارة التجربة فى معسكر اللاجئين ألا يثق بالطبقة الغنية من الفلسطينيين ، لأن الظروف لم تقس عليهم الى الحد الذى يتضورون فيه جوعا أو يعيشون على فتات الصدقة كما يعيش ذووه مع ألوف من نظرائهم فى تلك الخيام . **وقد زادت هذه المرارة رسوبا فى نفسه بعد أن أودى سوء التغذية وبرد الشتاء وضآلة الكساء بحياة أبيه ـ على أثر التهاب رئوى فى ثانى شتاء قضته الأسرة فى ذلك المعسكر الرهيب** ـ وهذه النار المتأججة فى نفسه هى التى جعلته شديد التحمس لفكرة التسلل الى (بئر سبع) عندما فاتحه فيها وليد . فهذه الفكرة هى المتنفس الطبيعى الذى كانت تحتاج اليه نفسه الساخطة !

و « طالب حمادى » شاب طويل القامة ، عريض الكتفين ، وسيم المحيا ، لولا أنه دائم العبوس ، ضيق الصدر ، لا يميل للمجاملة . وقلما رآه أحد باسم الثغر منبسط النفس كسائر الناس . ولبث متحفظا جدا فى علاقته بزميله الجديد أنطون . وكان أول ما خطر لأنطون فى تعليل ذلك ، أنه يشعر بالغيرة

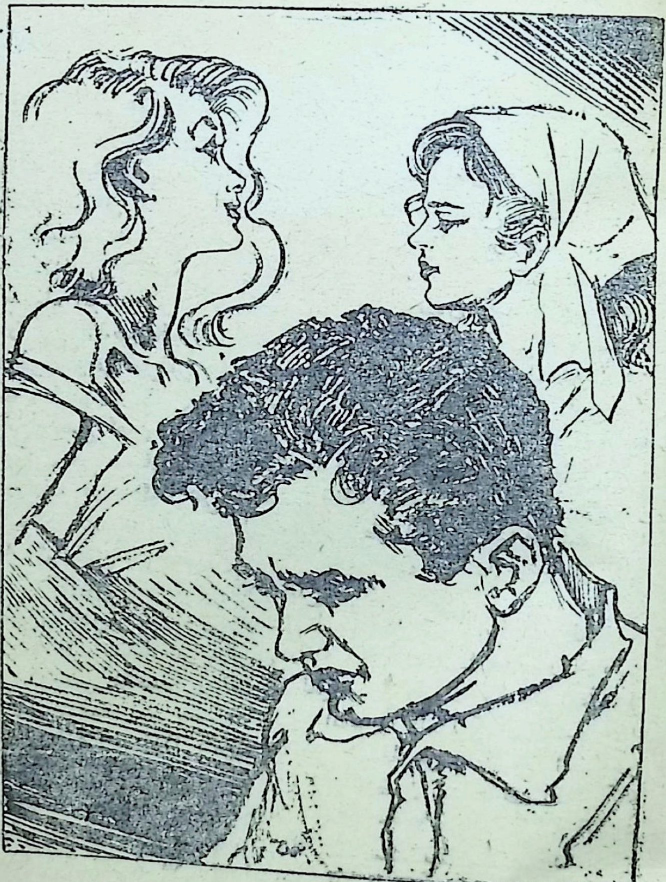

.. وفى المطار ، انتظر مع المنتظرين أمام الحاجز ..
وتقدمت منه « ثريا » على استحياء ، وسألته :
« ألا تذكرنى ؟ »

منه لأنه اقتحم عليه استئثاره بصديقه وليد . ثم بدأت الحقيقة تتكشف له رويدا رويدا . فلم يحاول بعدهما أن يكتسب صداقته ، واكتفى بصداقة صاحبه القديم أمين .

وأمين - على عكس « طالب » - دمث متواضع سهل القياد ، راض نفسه منذ زمن طويل على تقبل عاهته بغير تذمر ، وهو فياض النفس بالشكران والمودة على المعونة التى أسبغها عليه منذ صباه الباكر والد أنطون . **أما أنطون نفسه فهو أحب انسان فى الدنيا اليه ، وقد ظلت راسخة فى ذاكرته لمسة يد أنطون وهو قابض على يده طوال تلك المسيرة المشئومة من (اللد) الى (رام الله) تحت شمس الصيف المحرقة فى البرية .**

ولن ينسى أمين - ما عاش - اصرار أنطون على الاحتفاظ به الى جواره فى سيارة الأسرة عندما أقبل عمه فريد لاصطحابه . ثم اصراره بعد ذلك على استبقائه معه فى بيت آل داود ، وقد جدد هذا الاحساس لديه أن أنطونا أصر عندما شاركه كوخه أن ينقل سريره الى حجرة نوم أمين نفسها ليتسنى لهما السمر الطويل بعد ذلك الانقطاع !

ولكن أنطونا لم يخبر أمينا بما دبره مع وليد وطالب ، وان كان قد سأله عرضا عن رأيه فى انشاء طابور خامس داخل الأرض المحتلة ، تمهيدا لقيام حركة مقاومة مسلحة على نحو ما صنعه الفرنسيون أثناء الحرب العالمية الثانية على الغزو النازى . فاذا بأمين لايدرى شيئا عن الطابور الخامس أو حركة المقاومة الفرنسية . وكان أنطون قد عرف ذلك كله من مدرسه السابق مستر جونز ، فشرحه لأمين بحماسة أثارت اهتمام الشاب الأعمى ، بيد أنه لم يستطع أن يتصور نجاح المقاومة الفرنسية الا على أساس أن الحلفاء كانوا يمدونهم بالمساعدات والسلاح بطريقة أو بأخرى . ولكن هل هذه هى الحال بالنسبة لحركة المقاومة العربية داخل اسرائيل ؟ ..

انه يفهم بسهولة أن يتسلل العرب الفلسطينيون وراء خطوط الهدنة لزيارة ذويهم وديارهم خلسة ثم يعودون بعد اطفاء غلة أشواقهم الى مرابع طفولتهم ومراتع صباهم • فهذه في تصوره عملية عاطفية عائلية ولا يمكن أن تكون حركة سياسية عسكرية •• وقد قال أمين رأيه هذا بصراحة • وهو رأى أملته عليه ظروف نشأته وعاهته التى جعلته « مستطيعا بغيره » ، ولا يتصور قيام الانسان بأعمال خطيرة مستقلا بنفسه ، غير مستمد العون من أحد •

ومهما يكن من شيء فقد ظل أنطون وقتا طويلا ساهر العين والذهن بعد أن استسلم أمين للنعاس • وراح يقلب الفكرة كلها في ذهنه • وخطر له أن وليدا وطالبا ربما كانا مدفوعين الى هذه العملية بحافز انفعالى يريد أن يجد متنفسا عمليا للسخط والرغبة فى المقاومة ، من غير نظر الى جدوى تلك المقاومة • فهى أشبه بالصرخة التى يطلقها المكروب ولو كان يعلم أنه ما من سميع ولا مجيب !

وفكر فى أمر نفسه شخصيا ، وفى الدافع الذى يحفزه على المضى فى انفاذ تلك الخطة ، وتراءى له بعد امعان التفكير أنه انما يستجيب فى ذلك لصداقته القديمة بوليد ، ورغبة منه فى اثبات جدارته بتلك الصداقة • ولفرط ما « عايش » تلك الفكرة ، استولت عليه بحكم الألفة ، بصرف النظر عن مبرراتها الذهنية •• ولكن حاله اليوم غير حاله بالأمس • ولئن كانت فكرة التسلل هى منزعه العاطفى الأوحد يوما ما ، فلديه اليوم منزع عاطفى آخر يزداد يوما بعد يوما هيمنة عليه ، وهذا المنزع العاطفى يتمثل فى « ثريا سابا » !•• **وما أشد المفارقة بين ذلك الحب الذى يكنه لثريا ، وما كان يكتوى به سابقا من الشوق الى روزا • فشوقه الى روزا هو الشوق الى العناق الحار والمداعبات المثيرة ودفء الأنوثة الدافقة ، أما شوقه الى**

ثريا فلا يتمثل له الا فى الجلوس اليها ، والنظر الى عينيها ، والتحدث معها • ولكن هذا الشوق على خلوه من سعير الشهوة ليس أقل سيطرة عليه من شوقه الى روزا يوم كانت علاقتهما فى ابانها ، ان لم يكن أشد ، لأن هذا الشوق نابع من وجدانه لا من غدده الصماء ، ومن عقله وشخصيته كلها لا من أحاسيس المراهقة الرعناء •

ولكم كان يحلم أحلام اليقظة فيراها وقد طارت من بيروت الى بيت لحم لتقضى معه يوما فى النزهة ، حيث يجلسان فى ظل شجرة تين عجوز ويرسلان الطرف معا عبر المروج الفيحاء ، حيث ترعى الحملان البيضاء أعشابا مزدانة بالسوسن !

وسأله مستر شابلى ذات يوم عن حاله ، وهل يشعر فى المعهد بالايناس والاستقرار النفسى ، وألفى أنطون نفسه يبتسم ويقول انه على خير ما يرام هنا ، مثلما كان يبتسم وهو فى المدرسة بلندن متظاهرا بالتأقلم والسعادة ، وقلبه فى واد آخر !•• ان العميد على رقته البالغة لم يشعره بالألفة العقلية • ولكنه وجد تلك الألفة الصريحة مع الآنسة « ريس » التى شعر بعد انقضاء أسبوعين على الأكثر انها تميل اليه وتألفه ، وكثيرا ما كانت تسرى عنه بعض وحشته بدعوته للركوب معها الى القدس ، كلما ذهبت الى هناك لشراء مستلزمات المستعمرة من الأطعمة وما اليها ، وكان هو خالى البرنامج من الدروس التى يلقيها فى اللغة الانجليزية والقراءة بطريقة « برايل » •• فكان عندئذ يرحب دائما بتلك الرحلات التى تدخل التغيير على نمط حياته الرتيب فى ذلك المكان ، ويجد فيها فرصا طيبة للانصراف عن تفكيره المتصل فى ثريا سابا •

وكثيرا ما نازعته نفسه أن يكتب الى ثريا جانبا من الخواطر التى تدور بذهنه فى شأنها ، ويبثها بعض أحلامه وأمانيه

وأشواقه ، ولكنه كان دائما يمزق ما يكتبه اليهـا ولا يجسر على ايداعه صندوق البريد الجوي !

***

وأخذ موعد عطلة عيد الفصح يقترب رويدا رويدا ، ومعنى ذلك عودة ثريا الى رام الله · ومعناه فى الوقت نفسه عودة وليد أيضـــا ! ووليد مصر على أن الوقت غير مناسب على الاطلاق لانشـــاء علاقة حب ، ووجود ثريا فى حد ذاته أمام ناظرى أنطون برهان من أقوى ما يمكن على لزوم تلك العلاقة !

وشعر أنطون بحاجته القصوى للافضاء بحيرته الى انسان ما، بيد أنه ألفى من المستحيل عليه أن يناقش عاطفته نحو ثريا مع صديقه المكفوف أمين ، وليس له صـــديق سواه للأسف يسعه أن يفتح له قلبه فى هذه الفترة ·· **وفجأة ، ذات صباح مشرق من شهر أبريل ، رأى ثريا فى مدينـــة القدس ، تدس رأسها داخل نافذة السيارة التى جلس هو فيها ، فى المقعـــد المجاور للسائق ، ينتظر أوبة الآنسة ريس من مكتب البريد ، وعلى محياها ابتسامتها المشرقة !**

ووثب أنطون من الســـيارة وراح يسألهـــا بعد عبارات الترحيب الأولى عما أتى بها الى القدس قبل بداية عطلة الفصح، ومتى كان وصولها من بيروت · فأجابته أن عطلات كلية الطب تختلف من سنة الى أخرى ، وانها حضرت من بيروت منذ ثلاثة أيام · فقال لها فى شىء من الاستياء :

ـ لك هنا ثلاثة أيام ولم نتقابل لولا هذه المصـــادفة التى جاءت على غير انتظار ؟

وكم كانت دهشـــته حين قالت له انهـــا فكرت كثيرا فى الذهاب الى بيت لحم لزيارته ، ولكنها لم تستطع تدبير ذلك بسهولة ، وانهـــا ذهبت مرتين الى بيت آل داود على أمل أن

تراه هناك ، ولكنهم قالوا لها أنه لم يعد يزورهم منذ التحق بالعمل . فقال أنطون : « ان وقت فراغى قليل . وليس هناك ما يدعونى للتوجه الى بيت فيه بنات عمتى الحمقاوات . ولكن ماذا سنصنع الآن وقد أوشكت عطلتك على الانتهاء ؟ »

– أمامنا فى الصيف عطلة تمتد ثلاثة أشهر ، وسيكون من السهل علينا فى تلك الفترة أن نلتقى .

– لم تزل بيننا وبين الصيف فترة طويلة جدا .

– ليست طويلة الى هذا الحد .

– فى نظرى أنا على الأقل !

– فى وسعنا أن نقصرها بتبادل الرسائل !

وعندئذ أقبلت الآنسه ريس من مكتب البريد ، فقام بتقديم ثريا اليها . وكانت الآنسة ريس تعرف والدها الدكتور سابا . ولم تلبث ثريا أن استأذنت فى الانصراف ، ثم حرصت على استبقاء يد أنطون فى يدها وهى تودعه ، وقالت له باسمة :

– هذا وعد اذن ؟ ستكتب الى واكتب اليك !

– كم كنت متلهفا على هذا الوعد .

وتلاقت عيناهما فى نظرة طويلة ، ثم انصرفت . وفى الطريق الى بيت لحم سألته الآنسة ريس : « أهى فتاتك ؟ »

– أظن هذا . ولكن الفرصة لم تسنح لنا قط للالتقاء على انفراد . ولم أقابلها من قبل الا فى حفلات عيد الميلاد بأريحا ، وكانت شرذمة كبيرة من أعضاء الأسرة تحيط بنا على الدوام ! **ولست أدرى كيف يتسنى للشباب هنا أن يتعارفوا معرفة كافية لعقد الخطبة ، ودعى عنك عقد الزواج !**

– فى مثل هذه الظروف التقى أبواك ، وتسنى لهما أن يتدبرا أمرهما جيدا !

– لا وجه للمقارنة ، فقد كان أبى صديقا لوالد أمى .

– وهل فى نيتك أن تتزوج هذه الفتاة ؟

– ان تفكيرى لم يصل الى هذا المدى بعد • وكل مرادى أن أجد فرصة للانفراد بها أحيانا كى يعرف كل منا صاحبه ! ولو كنا فى انجلترا لوسعنى أن أخرج معها للنزهة علانية وأن أصحبها الى السينما وأزورها فى بيتها وأدعوها لزيارتى فى بيتى ••

– وشىء من هذا يحدث الآن هنا بالفعل بين الشباب المتعلم على الطريقة الأوربية • ولكنك عجول أيها الشاب ! ثم أنت كسول أيضا ولا تبذل جهدا كافيا ، **فالسعادة كالطائر لا بد أن تستدرجه الى شباكك والا فلا صيد ! والفتيات فى هذا البلد لا يسقطن من السماء على الرجال كما تسقط الثمرة عند تمام نضجها على الجالسين فى ظلال الأشجار • بل لا بد من جنى تلك الثمار بعناية وحذر فى أوانها المناسب • ومتى تم جنيهن ، قر قرارهن فى السلال** • وهى مزية لا يمكن أن تقال بصدق عن كثيرات من فتياتك الانجليزيات !

واستسلم أنطون للصمت والتفكير ، ثم سألها فجأة : « خبرينى يا آنسة ريس : ماذا تفعلين لو أن لديك رغبتين متعارضتين تماما ، وكل منهما عزيزة عليك ؟ الى أيهما تسعين ؟ »

– أهذه هى مشكلتك ؟ أهذا التعارض هو الذى يقعدك عن السعى للحصول على فتاتك ؟ هل هناك عاطفة أخرى تتنازعك ؟

– تقريبا •

– فى هذه الحالة اما أن تقعد مكتوف اليدين هكذا ، فتفقد الاثنتين معا ، أو تلتزم الحزم مع نفسك وتقرر بصفة قاطعة أيهما ألزم لك ، ثم تجمع همتك للفوز بها !

***

أما وليد فلم يقابله أنطون فى عطلة عيد الفصح الا مرة واحدة ، وباتفاق سابق على اللقاء فى رام الله ، اذ اتصل بأنطون تليفونيا في المعهد يوم وصوله ، والتقيا فى اليوم التالى • وعند وصول أنطون الى رام الله – معولا على قضاء نصف اليوم كله فى صحبة وليد – اتضح له أن وليدا لا يستطيع أن يمنحه من وقته سوى ساعة واحدة ! فقد اتفق مع شخص ما على أن يقله فى سيارته بعد ساعة الى الخليل ، حيث يبيت ليلته ، ويرحل فى الغداة بالسيارة العامة لزيارة عمه منير فى (الظهيريه) التى سيقضى بها بقية الأسبوع • ولذا سوف لا يتسع وقته هذه المرة للقاء « طالب حمادى » ، ولكن هذا اللقاء غير ضرورى ، فسوف يجتمع شمل ثلاثتهم فى الصيف ليرسموا تفاصيل خطة التسلل الى بئر سبع بأتم عناية •

أما فى هذه المرة فهو ذاهب الى الظهيرية كجزء من خطته البعيدة المدى التى شرع فى تنفيذها منذ سنوات ، وهى التعرف بأهالى المنطقة ، والارتباط بأواصر الألفة مع أفراد الحرس الأردنى الذى يراقب الحدود هناك ، توطئة للمستقبل ، لأنه قدر فى ذهنه أن الخطر من جانبهم سيكون أشد من خطر الحراس الاسرائيليين ، لشدة حرص الأردن على ايقاف التسلل لما يسببه من اضطراب ومتاعب • وكان تعليق وليد على هذا : « **انهم على صواب من وجهة نظرهم بطبيعة الحال ، ولكننا نحن أيضا على صواب من وجهة نظرنا ، لأن من حقنا كلاجئين أن نعود الى وطننا وديارنا ••• انه حق طبيعى ومقدس •** »

وكان لقاء أنطون ووليد فى مقهى صغير فى وسط البلدة ، ثم خرجا للسير معا تحت ظلال الأشجار وهما يتجاذبان الحديث • وسأل وليد صاحبه : « كيف حالك الآن مع طالب ؟ »

– لا علاقة لى به تقريبا • فهو لا يكلمنى الا للضرورة

القصوى • وما أقل فرص تلك الضرورة فى الواقع • ولاأدرى سبب شعوره العدائى نحوى ، أهى الغيرة ؟

— انه لايثق بالجانب الانجليزى فى تكوينك • ولم يكن ينبغى لى فى الواقع أن أصارحه بأن والدتك انجليزية •

— ولكن أباها يشعر نحو فلسطين بشعور العرب أنفسهم •

— من غير الممكن أن تحمل طالبا على تصديق ذلك !

— كم أتمنى لو أنه لم يشترك معنا فى مشروعنا •

— ولكننا بحاجة اليه • فهو دليلنا • وبمرور الزمن سيثق بك متى وجدك جادا فى حماستك للفكرة • أخبره على كل حال أنك قابلتنى واننى ذاهب الى الخليل والظهيرية •

وافترقا بعد ذلك ، وقد خامر أنطونا احساس — لايدرى مبعثه — بالضيق ، وكأن شبكة توشك أن تطبق عليه فلا تفلته • ان الصفاء بينه وبين صديقه لم يعد خالصا كذى قبل !

- ٥ -

وطوال ذلك الربيع كان أنطون يحدث نفسه بأن الصيف آت لاريب فيه • وأن وليـــدا وثريا ســيغادران بيروت فى منتصف يونية عائدين الى رام الله • وكانت ثريا قد كتبت اليه رسالة واحدة ، الا أنها كانت كافية جدا ، فقد أودعتهــا كل ما يمكن أن يقال ، وختمتها بقولها : « **احتفظ بى فى قلبك ياعزيزى أنطون مثلمــا أحتفظ بك فى قلبى !** » •• ووقعت رسالتها بتلك الكلمة الجريئة : « **حبيبتك ثريا** • »

•• وفى وسعه الآن أن يعيش مطمئن النفس الى أن كل شىء على ما يرام • وأن قلقه الذى شاب أحلامه وأمانيه العاطفية لم يعد له محل فى حياته • فقد أوشك الحلم أن يكون واقعا محسوسا • **وقد عول عند قدومها فى منتصف يونيــــة على أن يصحبها لزيارة بيت أسرتها • وأن يطلب الى أبيها والى والدتها أن يباركا خطبتهما رسميا** • ولئن كانت ثمة صعاب تكتنف سبيلهما ، فهى صعاب ما أهونها أمام العزم الذى استقر من الجانبين • وكل ما يصبو اليه الآن أن يحل اليوم الذى تتأكد فيه هـــذه السطور المقروءة بلمسة اليد ولمسة الشفاه !

وذات يوم ، تكررت مفاجأة اللقاء فى القـــدس فى شهر أبريل ، ولكن بصورة أخرى ، عندما رآها ذات يوم تجتاز فناء المعهد وفى صحبتها رجل لم تزل به آثار الشـــباب ، نحيف القامة ، يشبهها شبها شديدا ، فأدرك على الفور أنه أبوها • وكان أنطون يلقى درســـا فى الهواء الطلق تحت شجرة ، عندما رأى الزائرين يقتربان ، فاشتد وجيب قلبه ، وصرف

التلاميذ .. ثم تقدم للقاء ثريا والدكتور سابا • وكانت ثريا ترتدى ثوبا أبيض وحذاء أبيض اللون عالى الكعب ، وتبدو فى أوج جمالها • وصاحت به بعد أن قامت بتقديمه الى أبيها :

– لابد أن تعود معنا لتناول الغداء ، لأنى أريد أن أقدمك الى والدتى وسائر أفراد الأسرة •

– لست أدرى هل هذا فى المستطاع أم لا ، لأن لدى درسا سألقيه فى الثالثة بعد الظهر •

وعندئذ قال الدكتور سابا ان العميد صديقه ، وانه سيرجوه أن يمنح التلاميذ عطلة بعد ظهر ذلك اليوم • وبعد قليل كانت سيارة الدكتور سابا تقلهم ، وقد جلس الدكتور الى جوار السائق ، وجلست ثريا مع أنطون فى المقعد الخلفى ، وقد تشابكت يداهما خلسة • وقال لها هامسا : « **يجب أن نطلب اليهم اليوم الموافقة على اعلان خطبتنا •** » .. **فاحمر وجه ثريا وهزت رأسها ، وضغطت على أصابعه ضغطا شديدا •**

وخيل الى أنطون أنه لن يشعر ما عاش بمثل السعادة التى غمرته فى هذه اللحظة !

أما انطباعاته بعد ذلك فلا تتجاوز احساساته العابرة ببيت أنيق يتوسط حديقة واسعة الأرجاء ، فوق ربوة تشرف على واد عريض • وفى ذلك البيت وجوه باسمة مشرقة ، لأسماء سمعها ولكنه لايعتقد أن ذاكرته وعت شيئا منها • ولفت نظره منها على الخصوص ، وجه امرأة خيل اليه لأول وهلة أنها شقيقة ثريا الكبرى ، ثم اتضح أنها والدتها ، وقد رحبت به أحر ترحيب ، وأكدت له أن بيتهم بيته منذ الآن •

وتلت ذلك مأدبة غداء احتفالية خيل اليه أن الطعام فيها

كان أكداسا مكدسة . وبعد الغداء انتهزت ثريا أول فرصة مناسبة وتعللت برغبتها فى الطواف به بين أحواض الزهور وأشجار الفاكهة فى الحديقة ، كى تنفرد به هنـــاك ، حيث قالت له :

– لقد قلت لأبى اننا راغبان فى اعلان الخطبة ، فقـال انه لايمانع فى ذلك اذا كانت أسرتك لاترى مانعا من اعلانهـــا ، الا أنه لايريد أن يتم هذا الاعلان الا قبيل عودتى الى بيروت ، وعندئذ يقيم لنا حفلا كبيرا ، يدعو اليه جميع الأقارب والأصهار والأصـــدقاء ، ويحضره كذلك آل منصـــــور وآل داود ، وياحبذا لو استطاعت والدتك القدوم أيضا .

– يالها من فكرة بديعة . وان كنت لا أدرى بالضبط هل سيكون فى مقدورها أن تحضر فى ذلك الحين أم لا .

وألفيا نفسيهما تحت عريشة من نبات الجهنمية تواريهما عن أنظار من فى البيت ، فوقف والتفت اليها بنظرة رجاء . **ثم احتواها بين ذراعيه وأطبق بفمه على شفتيها ، ولكن شفتيها لم تنفرجا تحت قبلته على نحو ما كانت تفعل روزا . وعندما أفلتها من بين ذراعيه تنهدت وقالت بأنفاس متقطعة :**

– هيا بنا نعود اليهم قبل أن يفتقدونا .

– ولكنى أريد أن أعرف منك هل تحبيننى ؟.. هل ؟

– طبعا . طبعا . أنت تعرف هذا . وقد كتبته اليك !

فأطلق ضحكة سعادة صافية وتأبط ذراعها عائدين .

* * *

هذا كله لم يكاشف به أنطون صديقه وليد الذى زاره بعد بضعة أيام وهو فى طريقه الى الخليل · وتحت ظلال شجرة تين عتيقة فى طرف الضيعة الأقصى ، جلس « طالب » معهما ، وراجع الثلاثة خطة العمل ·· فقال لهما وليد انه سوف لايعود الى رام الله قبل تنفيذ المشروع · وان عملية بئر سبع سيبدأ تنفيذها فى اليوم التالى لوصول طالب وأنطون الى الظهيرية ، حيث سينتظرهما · والمراسلات قبل ذلك ممنوعة !

وكان من المقرر أن يحصل طالب على أجازة مدتها أسبوع فى شهر سبتمبر ، على أن يختار أسبوعا لا يكون القمر فيه بدرا · وأخرج وليد من جيبه مفكرة ، وبدأ الثلاثة يتناقشون فى التاريخ ·

وانتهز أنطون هذه الفرصة وراح يتأمل وجهى زميليه الجادين ، وشعر على الفور باختلافهما عنه · وان علة ذلك الاختلاف كامنة فيه هو وفى ظروفه · فهذه العملية التى ظل يحلم بها طيلة أربع سنوات ، لم تعد بالنسبة له الآن فى المقام الأول من الاهمية · لم يعد حريصا على الانطلاق نحو الظهيرية كما كان يتمنى منذ بضعة شهور · **فكل أمانيه اليوم محصورة فى البقاء قرب ثريا · وما من شىء بعد ذلك يعنيه · وكأنما عودته من أرض المنفى لم تكن الا من أجلها · أما طريق بئر سبع فبدأت تتخلى عن مكانتها كى تحتلها طريق أخرى ، هى الطريق الى ثريا !**

وفى الوقت الذى انصرف فيه صاحباه الى مناقشة أنسب موعد ، كان هو يسترجع بضاضة شفتى ثريا المطبقتين ، وزفرتها الصغيرة بعد ذلك ، وقد تحولت من طالبة طب واثقة بنفسها ، الى فتاة عاشقة مرتجفة الأوصال بين يديه !

وقطع عليه صوت وليد الجـاد حبـل تأملاته الحالمـة : « أليس هذا رأيك أيضا يا أنطون ؟ » .. فأسرع يقول له : « هو ما تقول . ويخيل الى أنه سيكون فى وسعى أن أحصل على عطلة فى نفس الوقت الذى يحصل فيه طالب على عطلته ، لأننا لا نعمل فى قسم واحد من أقسام المعهد ، بل فى قسمين مختلفين . »

فتجهم وجه وليد وقال : « ليس حديثنا الآن عن التواريخ . فقد فرغنا من هذا . وانما كنت أقول انك ينبغى أن ترحل من الخليل الى الظهيرية بمفردك ، وأن يسافر طالب اليهـا مع أقاربه الذين سيحضرون الى الخليل لاصطحابه . »

– **بمفردى تماما ؟**

– ليس تماما . بل سأرسل عمى منير لاصطحابك . وانما الغرض من هذا ألا تسافرا معا أنت وطالب .

– يؤسفنى أنى لم أكن مركزا ذهنى فى الحديث . ولكنى موافق طبعا على هذا الرأى .

فقـال طالب عندئذ بلهجة باترة : « لعلك – فى اليوم الموعود – أن تركز ذهنك ، لأنك ستكون بحاجة الى تركيزه ، مع كل خطوة تخطوها عند التسلل !

- ٦ -

ومن لندن كتبت ماريان :

« عزيزى أنطون

« أسعدنى أن أعلم أن الأمور جرت على نحو ما تمنيت ، بشأن ما بينك وبين ثريا · وكذلك سعد جداك بهذه الأنباء ، وليس هناك ما يمنع مطلقا من اعلان خطبتكما رسميا ، مادامت هذه رغبتك ورغبة آل سابا · أما عن اقتراحك أن أحضر بالطائرة لشهود ذلك الحفل فى أوائل أكتوبر فهو اقتراح قريب الى نفسى جدا ، وستكون مناسبة طيبة للاجتماع بسائر أقاربى الفلسطينيين مرة أخرى فى رام الله · والحقيقة أنه من الجائز أن أحضر الى عمان فى نهاية سبتمبر ، لأعمال تتعلق بالصحيفة ، ولم أشأ أن أذكر لك ذلك من قبل لأننى لم أكن متأكدة من التاريخ · وسأبرق اليك بموعد وصولى على أمل أن تتمكن من استقبالى فى المطار ، أنت « وكنتى » المستقبلة ثريا · جدتك وجدك يضمان صوتهما الى فى اهداء التهانىء اليكما معا · »

وفرح أنطون فرحا عظيما بهذا الخطاب · واطلع عليه ثريا ووالديها · وشاركه فى الفرح سائر أقاربه فى رام الله ، والآنسة ريس وأمين ، وكل من يعرفهم ·· فيما عدا وليد الذى لن يجرؤ على اخباره بموعد الخطبة الا بعد الانتهاء من عملية بئر سبع !

وعلى كل حال لم يعد الاجتماع بثريا مشكلة عويصة · فقد دبر الأمر مع مستر شابلى بمساندة الآنسة ريس كى يخليه

من العمل يوم الأحـد من كل أسبوع ، فيركب دراجته الى رام الله ويرى ثريا ، أما فى بيتهـا أو فى بيت آل داود ٠

ولم يكن انفرادهما أمرا كثير الوقوع فى تلك الزيارات ٠ ولكن الفتاة لم تكن تتوقع ذلك ، وأنطون كان يعلم أن الأردن ليست كبريطانيا ، وأن ثريا ليست كروزا ، وهو لا يتمنى الآن شيئا أكثر من جوارها ، ويجد فى ذلك سعادة لا يعذبه فيها الشعور بالحرمان ٠

وصار يجد عناء شـديدا فى ارغام ذهنه على التفكير فى وليد ، فاذا نجح فى ذلك تولاه احسـاس بالاثم لأنه خان ما عاهده عليه !٠٠ ولكن الأمر خرج من يده ، لأن ثريا صارت جزءا لا يتجزأ من حياته ٠ وكل شىء عداها هو وهم لا يستطيع أن يقنع نفسه بواقعيته ٠

واستمر الحال على هذا المنوال الى أن انقضى شهر يولية ٠ وفى أغسطس بدأ يشفق من اقتراب الموعد المضروب بينه وبين وليد ، وأحس كأن شبكة تكاد تطبق بأطرافها عليه ٠ ولكن الوقت أخـذ يمضى ، ويدنو بمضيه شهر سبتمبر ، ويزداد بهذا الدنو قلقه ، حتى أنه لم يجد محيصا فى النهـاية عن مناقشة الموضوع من حيث عموميـاته مع ثريا ، من غير أن يتورط فى افشاء السر الخاص بصاحبيه !

وذات يوم ، فيما هو جالس معها فى حديقة بيت والديها ، سألها عن رأيها فى التسلل عموما : « ولنا الحق كما تعلمين فى العودة الى ديارنا ٠ وهو حق طبيعى ومقدس ٠ ولئن كانت الدول الكبرى – وهيئة الأمم المتحدة – تأبى أن تساعدنا فى الحصول على ذلك الحق ، فما عذرنا أمام أنفسنا فى الامتناع عن محاولة تحقيق ذلك بأنفسنا ؟ »

– ان المسألة تنحصر فى امكان هذا العمل أو عدم امكانه ٠ فاذا كان التسلل ممكنا ، فجدواه مشكوك فيها ٠

ــ ولكن مارأيك اذا كان التسلل توطئة لانشاء حركة مقاومة سرية داخل الأرض المحتلة ؟

ــ كنت أفهم هذا لو أن الفلسطينيين كانوا أغلبية أو شبه أغلبية ، فى الأرض المحتلة ٠٠ أو حتى لو كانوا أقلية كبيرة ٠ أما وهم لا يتجاوزون السبعين ألفــا ، فالعملية غير متكافئة وغير منطقية !

فنظر اليها أنطون بأسى شديد وقال : « لو كنت وأهلك من اللاجئين لمـا قلت هــذا الكلام ! » ٠٠ فوضعت راحة يدها على ظاهر يده وقالت : « **أرجو أن تصدقنى حين أقول لك اننى لو كنت لاجئة لكان رأيى فى الأعمال العنيفة غير المنظمة ، وغير المثمرة ، هو عين رأيى الآن !** »

ــ ماأشبه هذا الكلام بكلام من يسمون أنفسهم ــ أو يسميهم الانجليز ــ بالعقلاء ، أو من يقبلون الأمر الواقع ويستسلمون للهزيمة ! لقد خسرنا الجولة الأولى فى هذه الحرب مع اليهود بسبب التقصير والخيانة ، وما لم نفعل شيئا ، سنظل خاسرين الى النهاية !

ــ ليس الى النهاية ٠ فعامل الزمن فى جانبنا !

ــ كثيرا ما قيل لى هذا من قبل ٠ ولكنى لا أستطيع الصبر مائة سنه ٠ بل لابد لنا من العمل العاجل ٠ وان كنت قــد تعتقدين أن ما أقوله تعبير عما يسمونه « عقلية اللاجئين ٠ »

ــ لا أكتمك أن هذا رأيى فعلا ٠

وعندئذ خيل اليه أن استمرار المناقشة غير مجد ، وتمنى فجأة لو أن وليدا بجواره كى يرفع من روحه المعنوية ويقوى من ايمانه ٠ فقد فل من عزيمته كثيرا أن يجد ثريا معارضــة لرأيه ، مثلها فى ذلك مثل أمه وجده وصديقه أمين ٠٠ وخيل اليه أن مستر شابلى يمكن أن ينير له الطريق ، فانتهز فرصة انفراده به بعد أيام ــ وهما فى طريقهما الى احدى القــرى

سيرا على الأقدام ، لزيارة أسرة لديهـــا ابن مكفوف يزعج بسخطه وتذمره ونوبات هياجه كل من حوله - فألقى عليـه فجأة سؤاله :

- مارأيك فى التسلل ؟

- وسيلة خرقاء . ولاسيما من الناحية الأخلاقية .

- ألا تعتقد أن من حقنا نحن اللاجئين أن نعود الى ديارنا ، ما وجدنا الى ذلك سبيلا ؟

- بلى ! هذا أمر لامراء فيه ، ولكن السبيل الى هـــذا ليس التسلل الفردى ، لأنه يحرج الدولة التى تستضيف اللاجئين . وليس من حقك أن تشكو من عدوان خصمك ان أنت سلكت سبيل العدوان !

- وهل من العدوان أن يحاول المرء العودة الى داره ؟

- نعم . اذا كانت الوسيلة منافية للقانون والنظام !

- وما العمل اذن ؟

- وجهة نظرى فى هذا هى وجهـــة نظر المهاتما غاندى . فالوسيلة المناسبة هنا هى العمل الجماعى السلمى المناهض للعدوان والعنف . **هل تذكر الزحف الكبير نحو الملح فى الهند ؟ انك بالطبـــع لا تذكره لأنك لم تكن قد ولدت بعـد . ان الحكومة الانجليزية فى الهند كانت تحتكر الملح ، وتفرض عليه ضرائب باهظة ، فقرر المهاتما غاندى أن يدعو الشعب الى الامتناع عن أداء تلك الضريبة ، باعتبار ذلك الامتنـاع جزءا من معركة العصيان المدنى .** وتزعم المهاتمـــا غاندى ألوفا من مواطنيه زحفوا الى شاطىء البحر ، حيث استخلص بيـــده حفنة من الملح - وهو عمل لا يعدو فى قيمته أن يكون رمزا ! - وعلى هذه الصورة أتمثل معسكر اللاجئين الكبير فى الأردن ، أو سائر المعسكرات الموجودة فى هذه البلاد ، وقد غادرهـــا سكانها جميعا وتدفقوا فى مسيرة كبرى قوامها **جيش عرم من**

الجياع المهلهلى الثياب ، زاحفين وهم عزل من السلاح نحو الحدود التى فرضت عليهم عسفا .. رجالا ونساء وأطفالا ، وجهتهم ديارهم المسلوبة .. وقد لا يتمكنون من تجاوز الحدود ، أو قد يصلون الى الشقة الحرام . ولكنهم سيهزون ضمير العالم !

– ولكن مدافع اليهود الرشاشة ستحصدهم من أوكارها فوق قمم التلال ، ومن الطائرات !!

– وهل يعقل أن يحصدوا ألوفا من العزل من السلاح فى مثل ذلك الموكب الرهيب ؟

فصرخ أنطون : « **انهم لا يتورعون عن ذلك . ولن يعدو الأمر فى نظرهم أن يكون مذبحة أخرى من سلسلة مذابحهم !** »

وهكذا انتهى ذلك الجدل أيضا الى الاخفاق ، ولم يجد أنطون من يسانده فى موقفه .

- ٧ -

وفى أواخر سبتمبر ، قبل الموعد المتفق عليه ببضعة أيام ، قال أنطون لثريا انه قد أزمع الذهاب لقضاء بضعة أيام مع وليد وعائلته فى الخليل ، وقد تستغرق هذه الزيارة أسبوعا على الأكثر . ووقع منها هذا النبأ موقعا غير حسن ، لأن عطلة الصيف قد آذنت بالانتهاء ، وعندئذ ستعود الى بيروت ، فلا يتسنى لها أن تراه الا فى عطلة عيد الميلاد .. وقالت له : « لا ينبغى لك أن تطيل الغياب ، فلابد لنا من اعداد العدة لحفلتنا كما تعلم . »

وكانا جالسين فى ركن منعزل من حديقة آل سابا ، فطوق كتفيها بذراعه ، فحولت وجهها اليه .. فطبع على شفتيها قبلة ناعمة ، ثم قال : « ما أسعدنى ! كم وددت لو لم يكن لزاما على أن أذهب الى الخليل ! فلا أمنية لى سوى قضاء كل دقيقة من المدة الباقية معك ! »

– لماذا اذن تذهب الى الخليل ؟ ما الذى يلزمك بذلك ؟

– لقد وعدت وليدا !

– وهل أمره يعنيك الى هذه الدرجة ؟

– انه صديقى الكبير . بل صديقى الأوحد . كنا تلميذين فى المدرسه معا ، وظللنا على اتصال مستمر طيلة غربتى فى انجلترا .

– كل هذا مفهوم . ولكنه لم يعد الآن صديقك الأوحد . فأنا الآن فى حياتك .

فأجابها باصرار : « **أنت حبيبتى ، أما هو فصديقى . والأمران مختلفان . فحبى لك لا يغير من شعورى نحو وليد .**

وأنا فى الواقع لا أريد أن أقتطع من وقتى معك بالذهاب الى الخليل ، ولكنى كنت قد وعدته بذلك منذ زمن طويل جدا ، ولابد لى من الوفاء بوعدى ! »

.. فتنهدت ، ثم قالت : « كما تشـــاء . ولكن لا تطل الغياب . »

ـ سأعود فى الوقت المناسب لاقامة الحفل .

ـ ان شاء الله .

..

ـ أجل ، ان شاء الله

* * *

وسافر أنطون وطالب معا بالسيارة العـامة من بيت لحم الى الخليل . ووقفت الآنسة « ريس » تودعهما ملوحة بيدهـا أمام مبنى المعهد الرئيسى . أما أمين فقال لأنطون وقد وضع يده على ذراعه : « عد الينا سريعـا ، فانى سأفتقد أحاديثك وسمرك فى الليل .. مع السلامة . »

وفى الطريق ، لم يسأل « طالب » أنطونا الا سؤالا واحـدا بخصوص الحصول على الترخيص . وفيما عدا ذلك لم يوجه اليه كلمة واحدة ! .. وكانت السيارة العـامة تمر ـ فى طريقها ـ بين بساتين التفاح ، والحقول المزروعة ، ومعسكرات اللاجئين ، وطالب يطل على ذلك كله من النافذة بوجه صارم مقطب ، **وفى ذهنه أنه لولا عملية بئر سبع هذه ، لكان بوسعه أن يقضى أسبوع العطلة فى معسكر اللاجئين مع زوجتـه . أما الآن فلن يسعه أن يقضى معها ، من هذا الأسبوع كله ، يوما واحدا ولا ليلة واحدة .** ولم يكن قد أنبأها بأمر الأجازة التى حصل عليها ، أو ما اعتزم أن يصنعه فيها ، ولكنه قد يخبرها بعد عودته ويروى لها أنباء مسقط رأسهما (بئر سبع) .

وكان وليد فى استقبال السيارة العـامة فى الخليل ، متهلل الوجه منشرح الصدر . فقد تم اعداد العدة لاستخراج

الترخيصـــات ، وما عليهم الا أن يذهبوا الى بلدية المدينة لتسلمها .

وقال وليد لأنطون ان عمه منير فى المدينة ، وسيصحبهما فى طريق العـودة . أما طالب فيتوقع وصـول أقاربه من الظهيرية فى السيارة العامة التى تصل بعد ظهر ذلك اليوم . وقال طالب حمادى لوليد : « **ومتى سننطلق الى هناك ؟** » ، **فأجاب وليد** : « **الليلة . فليس هناك مايدعو للتسكع هنا** » .

وعندئذ سأله أنطون وهو يحاول أن يجعل لهجته طبيعية : « كم من الوقت يلزمنا فى اعتقادك للوصول الى هنـاك ؟ » ، فقال وليـــد : « ان المسافة تبلغ نحـو اثنى عشر كيلو مترا بالطريق الممهدة . ولكن لا بد لنا من تجنب تلك الطـريق . وسيكون السير فى هـذه الحالة شاقا جـدا وتحت جنح الظلام . »

وقال طالب : « ربما استطعنا أن نقطع المسـافة فى ثلاث ساعات . فقد رتبت كل شىء فى ذهنى ، على أن نتجنب المرور بالقرى والكفور . »

وكانوا يتكلمون وهم فى طريقهم الى البلدية ، والتجهم باد على وجه طالب كالعادة . أما وليد فكان على سجيتـــه ، الا أنه كان جادا . وأما أنطون فكان يشعر بهبـوط فى قواه وروحه المعنوية ، حتى لقد عجز عن اصطناع تلك الابتسامة التى كان يجيدها . وقبل أن يصلوا الى البلدية ، لحق بهم العم منير ، فرحب بأنطون ترحيبـا حارا ، وقال لطالب : « بيتى هو بيتك . يا مرحبا . »

وصحبهم الى البلدية حيث كان له صديق من موظفيها ، فاستطاع الحصول على الترخيصـــات على الفور ، من غير أن يتجشموا الانتظار مع عشرات المنتظرين . ثم قال وليـد لانطون : « **سوف لا نذهب فى هذه المرة الى الحانوت ، لأننى**

لا أريد أن يعلم أقاربى بذهابنا الى الظهيرية • ولكننا سنزورهم عند عودتنا ، وان كانت هـــذه الزيارة ستتم ونحن متفرقين ، لأننى قد أبقى فى بئر سبع مدة شهر » •

ثم توجهوا الى مطعم شعبى فى شارع خلفى بالمدينـــة ، وهناك شعر أنطون بحالته النفسية تزداد سوءا ، فلم يستطع أن يمس الطعام • ونظر اليه طالب بخبث وقال : « كأنى بك خائف ؟ » ، وقال وليد : « كثيرا ما تتوتر الأعصاب عنـــد اقتراب ساعة الصفر » ،فقال أنطون : « **ليس توتر أعصابى بسبب خوفى من عملية التسلل ذاتها ـ فما أكثر من يقومون بها ـ ولكننى فى الحقيقة لم أعد مؤمنا بجدوى هذه العملية** » •

ونظر اليه وليد نظرة صارمة ، أما طالب فضحك ضحكة استهزاء • ثم قال وليد بصوت باتر : « يبدو أنك لم تعـــد تصلح للايمان الا بفتاة تدعى ثريا سابا ! انك لم تعد تؤمن بعمليه بئر سبع ، ولا بالتسلل • لأن هذه الأفكار كلها ، لم تعد مناسبة لك ! » • ثم دفع وليد صحفته من غير أن يتم طعامه ، فى حركة تدل على منتهى الاشمئزاز والتقزز ، ورفع نظره الى أنطون وقال : « هناك سيارة عامة تقوم الى بيت لحم بعد الظهر • ومن الخير أن تستقلها • بل لعل أفضل من هذا وذاك أن تعود الى انجلترا حيث تنتمى ، **وأن تقلع منذ الآن عن ادعاء انتمائك الى العروبة التى كان أبوك من أبطالها • فأنت انجليزى كأمك ! انجليزى حتى النخاع !** »

ونهض أنطون عن المائدة ، وقد شحب وجهه شحـــوبا شديدا حتى حاكى الثلج فى بياضه ، وقال : « سأنصرف ، لأنه لم يعد ثمة مبرر لبقائى » ••• فقـــال وليـــد بمرارة : « اطلاقا • »

وأطلق طالب ضحكة ساخرة ، وأولاهما أنطون ظهـــره ، ولم يلبث أن اختفى •

- ٨ -

وبعد ظهر ذلك اليوم ، وصلت الى حانوت أقارب وليد بالخليل ، برقية باسم أنطون بطرس منصور محولة من بيت لحم . وكانت هذه البرقية بعينها قد وصلت الى المعهد فى الصباح بعد رحيل أنطون وطالب . فلم يسع مستر شابلى - بعد استشارة الآنسة ريس ، والرجوع الى أمين - الا أن يحول البرقية الى عنوان أقارب وليد ، لأن المفروض أن أنطون سينزل ضيفا عليهم هناك طيلة ذلك الأسبوع .

وكانت البرقية من أمه ، ونصها : « أصل (عمان) فى منتصف السادسة صباح غد بتوقيت الأردن . »

وكان المفروض طبعا أن تصل البرقية الى أنطون فى اليوم نفسه ، كى يغادر الخليل الى عمان فى الحال لاستقبال أمه .

ولما كان الشبان الثلاثة قد تحاشوا المرور بالحانوت - فى الخليل - فقد تحير أقارب وليد فى معنى تحويل هذه البرقية اليهم . وأخيرا قرروا الاحتفاظ بها الى أن يسأل عنها صاحبها !

وفى هذه الأثناء ، كان الصراع ناشبا فى سريرة أنطون : بين ايثار السلامة ، وبين المضى فى الكفاح الوطنى كما اتفق عليه مع صديقه وليد !.. **ولم يدم ذلك الصراع طويلا ، لأن حمية الشباب ، ونخوة القومية ، أشعرتاه بالخزى لموقفه المتخاذل ، ولم يأت الأصيل حتى كان قد غير اتجاهه وأخذ طريقه الى الظهيرية - وليس الى بيت لحم - ليحاول اللحاق بصاحبيه .**

وكان منير حسين وزوجته يتأهبان للنوم ، عندما طرق

بابهما طارق ، فبادر منير الى بندقيته القـائمة فى ركن من الحجرة ، وخرج سعيد من الحجرة الأخرى وفى يده بندقيته • فقد تعـود أهل الظهيرية أن يطرق بابهم أفراد الحـرس الوطنى للانذار بغـارة من غارات اليهـود على الحـدود • **وقد يكون الطارقون هم المغيرون أنفسهم • أو هـم أفراد الحرس الوطنى وقد ضبطوا وليدا وطالبا يحاولان التسلل فجـاءوا لالقـاء القبض على سكان الدار أيضـا بتهمـة التواطؤ ! •• وصاح منير بصوت أجش : « من هناك ؟ » •**

– أنا أنطون منصور • صديق وليد •

وعلى الفور فتح الباب • ولم يأبه أنطون بالرد على عبارات الترحيب والمجاملة ، بل صـاح فى لهفة يسأل عن وليد وطالب •• فقيل له : « **لقد رحلا منذ ساعة ، ولن تستطيع اللحاق بهما الآن فى الظلام • استرح** » •

وجلس أنطون ، ثم تناول قدح اللبن الذى قدموه اليه ، وهو يقول : « انى فى غاية التعب • فقد جئت سائرا على قدمى من الخليل • والمسافة ليست طويلة ، ولكنى حرصت على الابتعاد عن الطريق حتى لا أقع فى يد الدوريات الليلية • ولابد لى الآن من اللحاق بهما : فقد تشـاجرت مع وليد وافترقنا متخاصمين • ولكنى راجعت نفسى • ولابد لى الآن من الانصراف حتى لا تزداد المسافة بينى وبينهما • ألا تظن أنى سأدركهما ؟ »

– هذا يتوقف على سرعتهمـا فى المرحلة الأولى • وهـذه المرحلة تقع فى الشقة الحرام ، وهى أصعب المراحل • ولكن طالبا يعرفهـا بالشبر • ووليد قضى السنوات الأخيرة فى تفقدهـا بين الحين والحين ، وهو يتظاهر برعى الأغنـام أو العمل فى الحقول ، كلما سنحت له فرصة للحضور الى هنا • أما أنت فمن الجنون أن تجـازف بالمضى وحدك لأنك لا تعرف تفاصيل الأرض فى هذه المنطقة •

– ولكن لا مناص لى من الذهاب !

– وما الذى جعلك تغير رأيك ؟

– وجدت أن احساسى العميق بقوميتى أرجح عندى وأبقى من نداء العقل ، وصوت المصلحة ، وروابط العواطف الأخرى . وأخزانى أن يصمنى طالب بأننى انجليزى . ثم لم يلبث وليد أن تبعه فى ذلك ورمانى بأننى لا أصلح الا لصحبة النساء !

– ولكنك على الأقل يجب أن تأكل شيئا قبل أن تنطلق .

ولم يسع أنطون الا أن يشرب الشاى ويأكل كعكة مما قدم اليه على خوان من النحاس – على الطريقة العربية – مع شىء من جبن الماعز والزيتون الأسود . ثم كرر عليه منير ووالده العجوز النصح بالا يجازف بالتسلل فى الليل وحده وهو يجهل كل شىء عن المنطقة . ولكن أنطونا قال : « لابد من هذا . وفى وسعكم أن تساعدونى . فانى أعلم أن طالبا رسم خريطة لهذه المنطقة غاية فى الدقة . فهل لديكم هذه الخريطة ؟ »

وجاءه منير بالخريطة . وكان أنطون قد تدرب على قراءة الخرائط العسكرية فى معسكر التدريب فى انجلترا ، وأظهر فى ذلك تفوقا ملحوظا ، فجعل يطبع فى ذاكرته جميع التفاصيل . وكى يطمئن منيرا طوى الخريطة ثم شرع يرسمها من ذاكرته . فلم يترك منها شاردة أو واردة .

وعلى باب الدار ، ودعه منير وسائر أفراد البيت قائلين :

– كان الله معك . مع السلامة .

* * *

وكانت الليلة حالكة السواد ، لا قمر فيها . وأخذ أنطون يتحرك بحذر ، والخريطة مرتسمة فى مخيلته ، وهو يحرص على ألا يحدث صوتا بمشيه فوق الحصى الكبير غير المتماسك .

وفى بعض المواضع كان يضطر للزحف . وقدر أن وليدا وطالبا لابد قد اجتازا خط التقسيم ودخلا فى البرية منذ أكثر من ساعة . ولعلهما قد اجتازا البرية أيضا ووصلا الى سفح التل . وحين يقترب منهما – زاحفا فى الظلام – قد ينتابهما الرعب ، بل قد يثبان اليه ، ولكن حسبه أن يهمس باسم وليد قائلا له : « ها أنذا قد أتيت يا وليد ! »

وهدأت نفسه عند هذه الخاطرة . وكانت الطريق تبدو متعرجة بين التلال ، منحدرة الى بئر سبع . وجلس يستريح قليلا ويلتقط أنفاسه اللاهثة ، ويصغى لسكون الليل يمزقه نباح كلب فى مكان بعيد ، عند أحد معسكرات البدو . وجاوبته بالنباح كلاب أخرى فى قرية مجاورة . ثم لم يلبث الصوت أن خبا . وأعقبته بعد قليل نغمات من ناى يعزفه شخص ما داخل كوخ مقفل .

وانتقلت خواطره الى الحراس اليهود الكامنين فى أوكارهم فوق التلال من الجانب الآخر . أتراهم يلعبون الورق الآن بين نوبات الحراسة وأوقات الداورية ؟ وهل احدى دورياتهم الآن تجتاز الوادى ؟ ان مثل هذه الداوريات هى الخطر الحقيقى ، أما الحراس فوق رؤوس التلال فلا خطر منهم فى هذا الليل البهيم . وانه ليعجب كيف استطاع وليد وطالب أن يفلتا .

ونهض وشرع يهبط الى بطن الوادى بحذر . وكانت الحصباء تنزلق تحت قدميه ، ولكن صوتها لا يسرى فى الليل طويلا . وهو مستمر فى زحفه ، مستترا بالصخور البارزة ، متنقلا بينها على يديه ورجليه . ثم يتوقف بين الحين والحين ، ويصيخ السمع .

واصطدم فى زحفه بشجرة من الشوك ، فأدمت يده وكاد يصرخ من الألم ، وانبجست الدموع من عينيه ، ثم زايله الألم عندما جمد الدم فى عروقه لسماعه نباح كلب يقترب

منه بخطوات واسعة . ثم لم يلبث النباح أن بعد ، وتبين أنه لم يكن كلبا كما يخشى ، بل ابن آوى .

كان يتقدم ببطء والمسافة قد أمست فى نظره أطول مما يتصور . وتراءت له على البعد أنوار كشافة فخفق قلبه خشية أن يسقط عليه شعاع من أنوارها من فوق احدى القمم ، وأنشأ يجرى كى يختصر المسافة ويحتمى بالجانب الآخر حيث سفح التل ، وحيث يقدر أن صاحبيه قد وصلا منذ حين . وتعثر وهو يجرى ، وسقط على وجهه ، فظل بلا حراك وقتا طويلا ، وهو يرهف السمع ، ولما اطمأن أخذ يزحف على بطنه خائفا من الوقوف على قدميه ، وجعل يشجع نفسه بجميع الخواطر الممكنة ، ويحاول أن يتذكر بقية الخريطة ، وموضع بيت شقيق طالب قرب السوق فى بئر سبع . ونظر من فوقه الى النجوم وقد أخذت تتكاثف فيما خيل اليه .

واستجمع قواه ونهض ، وأخذ يجرى بخفة .. ولكنه تعثر مرة أخرى ، فعدل عن الجرى الى السير البطىء ، الى أن وجد الأرض مستوية تحت قدميه ، خالية من الصخور التى يمكن أن يتوارى خلفها حتى قاعدة التل التى يقدر أن صاحبيه يجلسان عندها . وتمنى لو استطاع أن يقطع هذه الأرض المكشوفة منتصب القامة ، حتى يرياه على تلك الحال ، ولكنه لم يجسر . واستمر يزحف على بطنه . وفجأة تجدد النباح . واقترب الكلب منه اقترابا شديدا ، فالتقط حصاة قذفه بها . ولكن نباح الكلب اشتد ، ثم تبين عينيه فى الظلام على قيد أقدام قليلة منه . **ثم سمع لغط كلام لم يتبينه ، فلم يكن أمامه الا الفرار السريع . ووثب كالأيل الشارد ووجهته بطن الجبل ..**

ومزقت سكون الليل طلقات مدفع رشاش !

ومات أنطون قبل أن تسقط جثتـه الداميـة على أرض الشقة الحرام .

× × × ×

وبعد بضع ساعات بزغ الفجر على وليد حسين وطالب حمادى وقد دخلا بئر سبع .. وعلى طائرة ماريان وهى فى طريقهـا الى عمان .. وعلى ثلة من الرجال يحملون الى خط التقسيم جثة شاب فلسطينى ليسلموها الى حرس الحـدود الأردنيين .

وتجمع حشد من النـاس صامتين ، كأن على رؤوسهم الطير .

انه شـهيد آخـر – لن يكون الأخير – على الطريق الى (بئر سبع) !

تمت القصة

سلسلة « مطبوعات كتابى »

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

قدمت لقراء العربية فى أعدادها التى صدرت حتى الآن - وعددها ثلاثة وسبعون كتابا ، وكتابان من الحجم الكبير ، خارج السلسلة - الكتب التالية ، (وتستطيع أن تستكمل ما ينقص مجموعتك منها من ادارة كتابى بالقاهرة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو ، شقة ١٤ - تليفون ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥) :

من شوامخ الأدب الانجليزى

رقم العدد	عنوان الكتاب واسم المؤلف .
١	قصة مدينتين (تشارلس ديكنز)
٢	ذات الثوب الأبيض (ويلكى كولنز)
٤	الخاطئة ، أو القناع الملون (سومرست موم)
١٥ - ١٧	جين اير ، ٣ أجزاء (شارلوت برونتى)
٢١	فرنسا الجريحة على ضفاف النيل (ديفيز)
٢٤ - ٢٦	بيللادونا ، ٣ أجزاء (روبرت هتشنز)
٣٩ ، ٤٠	المسبحة ، جزءان (فلورنس باركلى)
٤٤	أرواح هائمة (سومرست موم)
٤٥ - ٤٧	القلعة ، ٣ أجزاء (دكتور أ. ج. كرونين)
٤٩ - ٥١	مرتفعات ويذرنج ، ٣ أجزاء (اميلى برونتى)
٧٢ ، ٧٣	الطريق الى بئر سبع ، جزءان (ايثيل مانين)

من شوامخ الأدب الفرنسى

٥ ، ٦	حياة امرأة ، جزءان (جى دى موباسان)
٨	أوديب (أندريه جيد)

٩ ، ١٠	مدام بوفارى ، جزءان (جوستاف فلوبير)
٢٢	الابن الضال (هنرى بوردو)
٢٨ ـ ٣٢	اعترافات جان جاك روسو ، ٥ أجزاء (روسو)
٣٤	ليالى بلزاك أو قصص ماجنة (بلزاك)
٤١	سفينة الملذات (موريس ديكوبرا)
٤٨	هل تحبين برامس (فرانسواز ساجان)
٥٢ ، ٥٣	مدموازيل جوفر (مارسيل بريفو)
٥٤	العذراء المفتونة (هنرى باتاى)
٦٣	السحب الرائعة (فرانسواز ساجان)
٦٤ ، ٦٥	الآلهة عطشى ، جزءان (أناتول فرانس)

من شوامخ الأدب الأمريكى

٣	الخالدون (ديل كارنيجى)
١٨	فاتنة الرجال (مارجورى كورين)
٢٠	الثأر للوطن أو غروب القمر (جون شتاينبيك)
٢٣	أسرار الجاسوسية (برنارد نيومان)
٥٩	لوكريشيا بورجيا (جوان هاسلييت)
٦٠	«مشهد من الجسر» ، و «كلهم أبنائى» (آرثر ميللر)
٦٩	فاتنة الكونغو (تشارلس ميرسر)

من شوامخ الأدب الروسى

١٩	رجال ونساء (مكسيم جوركى)
٢٧	حياة بوشكين
٤٢	دم وخمر (تولستوى)
٥٥ ، ٥٦	مياه الربيع ، جزءان (ترجنيف)
٥٧	ضحكة فى الظلام (نابوكوف)
٥٨	ماريا ايفانوفنا ، أو ابنة الضابط (بوشكين)
٦١ ، ٦٢	نيتوتشكا ، جزءان (دستويفسكى)
٦٦	قصص من تولستوى (تولستوى)

من الأدب الايطالى :

٧ الخطيئة الأولى (البرتو مورافيا)

٣ ديكاميرون ، ألف ليلةوليلة الايطالية (بوكاشيو)

٣٨ قصص من روما (البرتو مورافيا)

من الأدب اليونانى :

٨ أوديب ، مسرحيتان (سوفوكليس)

٣٥ ـ ٣٧ الالياذة ، ٣ أجزاء (هوميروس)

من الأدب النمسوى :

١١ عاشقات فى الخريف (ستيفان زفايج)

من الأدب الألمانى :

٦٧ مارى ستيوارت (فردريك شيللر)

من الأدب الهندى :

١٢ قلوب ضالة (تاجور)

٦٨ ألف ليلة وليلة الهندية .

من الأدب الفنلندى :

١٤ الظمأ للحب (ميكا والتارى)

من الأدب الصينى :

٣٣ قصص من الصين (لوشون وآخرون)

من الأدب التركى :

٤٣ تحت ظلال الليلا (مبرورة سامى)

من الأدب الرومانى :

٧٠ قاتل بلا أجر (أوجين يونسكو)

من الأدب الأسبانى :

٧١ قصص من ايبانيز (بلاسكو ايبانيز)

خارج السلسلة

دكتور جيفاجو ، الترجمة الكاملة فى جزئين (باسترناك) .

مطبعة البريد

أكبر مطبعة في الشرق الأوسط

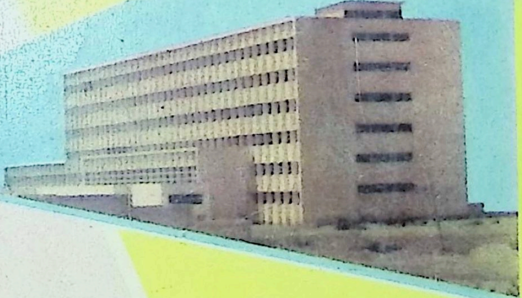

أصبحت مطبعة البريد - التي افتتحت في ٢٣ يوليو سنة ١٩٦١ - مقصد كثير من الدول العربية والإفريقية، لتطبع طوابعها العادية والتذكارية.

فهي أول مطبعة من نوعها في الشرق الأوسط، وتستطيع بإمكانياتها الضخمة، وآلاتها الحديثة الدقيقة، أن تطبع أية كمية بأحسن مستوى فني. علاوة على ما تقوم به من مطبوعات أخرى.

طابع البريد العربي خير سفير لبلادنا في الخارج

طوابع البريد التذكارية دائرة معارف متنقلة وثروة تتضاعف عاما بعد عام، وتحفة فنية رفيعة

حافظ على اقتنائها واتصل بمكتب خدمة الهواة - ٢٨ شارع رشدي بالقاهرة - ت ٧٦٥٩١